من الكتب الأحسن مبيعاً على قائمة النيويورك تايمز

هل تلبسين هذا؟



نحو فهم الأمهات والبنات

ديبوره تانن

نقلته إلى العربية
هدى الحمدان

"إن المؤلفة لا تكشف علل علاقات الأمهات بالبنات فقط، ولكنها أيضا توفر دليلا لتغيير الكلام"

تصوير
أحمد ياسين

هل تلبسين هذا؟

نحو فهم الأمهات والبنات

ديبوره تانن

نقلته إلى العربية

هــدى الحمـــدان



Original Title

YOU'RE WEARING THAT?

Understanding Mothers and Daughters in Conversation

DEBORAH TANNEN

ISBN: 978 - 0 - 8129 - 7266 - 5

ISBN 978 - 9960 - 54 - 268 - 8

الناشر: العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف 2937574 - 2937581 فاكس: 2937588 ص. ب: 67622 الرمز: 11517

الطبعة العربية الأولى 1429هـ - 2008م

(ح) مكتبة العبيكان، 1429هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

تانن، ديبوره

هل تلبسين هذا؟ نحو فهم الأمهات والبنات./ ديبوره تانن؛ هدى الحمدان.- الرياض، 1429هـ

296 ص؛ 14 × 21 سم.

ردمك: 8 - 268 - 54 - 9960 - 978

1. العلاقات الأسرية. 2. الآباء والأبناء. أ. الحمدان، هدى (مترجم) ب. العنوان

ديوي 301.42 رقم الإيداع: 2299 / 1429

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف 4160018 - 4654424 فاكس 4650129 ص.ب 62807 الرمز 11595




تصوير
أحمد ياسين
@Ahmedyassin90

في ذكرى أمي

ولدت والدتي دينا روسن
في مدينة منسك، روسيا
في الثالث من مايو، 1911م.

وتوفيت باسم دورثي تانن في الولايات
المتحدة الأمريكية في الثالث
والعشرين من يوليو 2003م.




تصوير
أحمد ياسين
@Ahmedyassin90

المحتويات



المقدمة

الحوار بين الأمهات والبنات الراشدات قد يكون من أفضل الحوارات أو أسوئها على الإطلاق. مجرد تعليق أو ملاحظة من ابنتك أو أمك يكون وقعها أكثر تشجيعاً أو إيلاماً من أن تأتي من شخص آخر. العلاقة بين الأمهات والبنات بالمعنى الحرفي هي «أم كل العلاقات» هي من أقوى العواطف في حياة النساء، مصدر أعمق أنواع الحب و أعمق أنواع الغضب ـ حتى الكره ـ الذي تتعرض له معظم النساء. إنها تضعنا وجهاً لوجه مع الصورة المنعكسة لأنفسنا، وتجبرنا على مجابهة أسئلة جوهرية عمّن نحن بالضبط ومن نريد أن نكون، وما العلاقة التي تربطنا بالآخرين داخل عائلاتنا وخارجها.

إن علاقة الأم بابنتها تستمر في الاحتفاظ بقوة عظيمة خلال حياتنا ـ نحن البنات ـ حتى بعد بلوغنا و ما بعد ذهاب أمهاتنا، و ما بعد بلوغ البنات سن الرشد، وفي بعض الحالات «بلوغ الأمهات أنفسهن». إن الكلمات المتبادلة بين الأم وابنتها في اللحظة أو في الذاكرة من الممكن أن تحمل وزناً كبيراً. في كتابي «أنت لا تفهمني» بينت كيف من الممكن للمرأة والرجل أن ينتهوا من حوار ويفترقوا بأفكار مختلفة تماماً عما قد قيل وما عني به في الحقيقة. والشيء ذاته في الحوار بين الأمهات والبنات الراشدات، بالرغم من أن كليهما من النساء، وأنهما في جوانب كثيرة يتكلمن اللغة نفسها ـ اللغة التي يتم التفاوض بها باستمرار على الألفة والانغلاق والقوة والتفوق. إن تحسين وسائل التواصل والتفاهم بين الأم وابنتها تماماً كما

بين الرجل والمرأة يتطلب كل ما سبق. إن التفهم هو أن نرى المسألة من منظور الطرف الآخر. وفي هذا الكتاب أحاول أن أوفر التفهم والاقتراحات الواقعية لتحسين الحوار بين الأم وابنتها ومن ثَمَّ تحسين العلاقة.

إن التحدي في كل علاقة وفي كل حوار هو محاولة إيجاد طرق لتكون أقرب ما يكون من الطرف الآخر دون أن يصبح القرب تطفلياً أو مهدداً لحريتك وأحاسيسك أو تحكمك في حياتك. إن علاقة الأم بابنتها ككل العلاقات - ولكن أكبر - فهي تجمع من جانب أعمق الاتصالات وأكثر أنواع القرب والمودة راحة. وفي الجانب الآخر العلاقة الأكثر رعباً ونزاعاً على السيطرة. كل منهما يميل إلى المغالاة في قوة الطرف الآخر في الوقت الذي تستخف به بقوتها. وكل واحدة تتشوق إلى أن يراها الناس ويتقبلها كما هي عليه، بينما ترى أن على الطرف الآخر أن يكون كما تود هي، أو كطرف قصر في حق نفسه وكان من الممكن أن يكون أفضل.

إن النساء تسعد أو تتألم في سبيل الحوارات المرضية مع أمهاتهن أو بناتهن. في بعض الحالات من أجل البناء على علاقة ممتازة في الأصل، وفي بعضها الآخر لقطع دوامة سوء التفاهم التي بدورها تستطيع قلب كل الحوارات الودية إلى حوارات غاضبة في لمح البصر. كلاهما يود توسيع هبة الوئام والألفة وتقليص الإساءة المحتومة التي تأتي مع كل علاقة ودية والتي من الممكن أن تكون حادة خصوصاً في هذه العلاقة.

خرج هذا الكتاب «هل ستلبسين هذا؟» من كتابي الأخير «أنت لا تفهمني» الذي بدوره كان نتيجة الكتاب الذي سلفه وهو كتابي الأول «ليس هذا ما قصدت» وكان للجمهور العام. في هذا الكتاب قدمت مفهومي لأسلوب الحوار العام. ووضحت قوته في مختلف النواحي في حياتنا

اليوميــة. من بين فصول الكتــاب العشرة فإن الفصل الوحيد الذي قد نال معظم الاهتمام و أكثر الإجابات حماسة هو الفصل المكرس للحوارات بين الرجـل والمرأة. هذا قادني إلى أن أغـير بحثي إلى موضوع: «الاتصال بين الذكر والأنثى» ولكتابة كتاب «أنت لا تفهمني»: الرجال والنساء في حوار.

مقارنة بهذا فإنه من بين الفصول التسعة لكتاب «أنا أقول هذا لأني أحبك» وهو كتاب عن علاقات الراشدين العائلية فإن الفصل الوحيد الذي حظي بالاهتمام كان بعنوان «إنني ما زلت أمك.» والأجزاء الوحيدة التي أسرت القراء هي تلك التي خصصت للعقد والمشكلات في العلاقة بين الأمهات وبناتهن الراشدات. هذا التجاوب ورغبتي في الوصول إلى قاع علاقتي المتطورة مع أمي، كلها شجعتني على تغيير بحثي إلى الحوار بين الأمهات وبناتهن حتى أنمو وأتعمق في هذه العلاقة الفريدة والقوية والتي تستمر في إثارة العواطف القوية لمدة طويلة حتى بعد انقطاعها، زاعمة بأنها محور حياتنا الشخصية.

معظـم مـا أقولـه عن الحـوارات بـين الأمهـات والبنـات ينطبق على الحـوارات بـين الأمهـات والأولاد، والآبـاء والبنـات، والآبـاء والبنـين. وبالتركيـز على الأمهـات والبنات فأنا لا أعني تجاهـل الأطراف الأخرى، لأني لم أقـم بدراســة مقارنه في هذه النواحــي. وكأستاذة جامعية في علم اللغـات تخصص علم اللغات الاجتماعي، فقد استخدمت طريقة ـ دراسة الحالة ـ في بحثــي، مظهرة جزء اللغات من علم اللغات الاجتماعي، حيث أسسـت كثيراً من نتائج أبحاثي على تحليل السجلات المدونة والتسجيلات الصوتيــة للحوارات. وأظهرت الجــزء الاجتماعي منه في تحليل الحوارات

التـي أحضرها أو التي أسمعهـا. إن المتخصصين في علم الاجتماع أو علم الإنسان ـ كما كتاب روايات الخيال ـ يصبحون أكثر ملاحظةً وأكثر تحليلاً للتفاعـلات من حولهـم. كثير من الأمثلة مبنية علـى تفاعلات كنت جزءًا منها، أو سمعتها أو قد ذكرت لي. أي إن الحوار يدور مع أشخاص أعرفهم أو لا أعرفهـم، كبعض النسـاء اللاتـي مـا إنْ يسمعـن عن اسـم الكتاب حتـى يتبرعـن بخبراتهـن. إن أساسـ بحثي هـو تحليل قريـب للسجلات والتسجيـلات الصوتيـة. وفي هذا الكتـاب فأنا أحلل كلمـة كلمة لسجلات حوارات كانت قد سجلت بواسطة تلاميذي والتي كانت جزءًا من الفروض الدراسيـة والبحوث المفروضة عليهـم في الفصل الدراسـي، وعندي إذْنٌ مسبق باستخدامها.

قد قمت بتنظيم حوارات أكثر تركيزاً ومقابلات مع نساء أعرفهن ونساء قريبات لتلاميذي حتى يتسنى لي أن أستمع بعمق إلى تجاربهن مع أمهاتهن وبناتهن. عندما أقوم بمقابلة الشخص بنفسي فأنا أقوم بتسجيل الحوار على شرائط وتدوين المقابلة أيضا. وعندما أتحدث مع شخص عبر الهاتف فأنا ألبس سماعات أذن وأقوم بطباعة الملاحظات أثناء الكلام. وعند استخدامي للبريد الإلكتروني كنت أطبعها إلى عدة نسخ. وفي عدة حالات تكلمت مع الأم ثم مع ابنتها كل على حدة أو بالعكس. في حالتين منفصلتين تقابلت مع مجموعة من النساء خلال مأدبة طعام، كنّ قد قمن بدعوة مجموعة من صديقاتهن اللاتي لا أعرفهن. كانت مقابلاتي (أو حواراتي في الحقيقة لأني لم أسأل أسئلة متسلسلةً ومضبوطةً مسبقاً) كانت قد تضمنت نساء من مختلف الأعمار والأجناس والأعراق. لم أتعمد

التعميم على أفراد من مجموعة معينة، فأنا لا أخصص جنساً معيناً للنساء اللاتي استخدمت تجاربهن في بحثي. بالرغم من أن كثيراً من أمثلتي قد أتت من نساء أمريكيات من أصل آسيوي أو إفريقي أو أوروبي.

لم أستخدم مثالاً دون الحصول على إذن مسبق من الشخص الذي كان مصدرًا للمثال، إذًا فالناس يستطيعون التحدث إلي بحرية، وببساطة فإنها مسألة أمانة (فاستخدام تلاميذي وأصدقائي وعائلتي كمصدر بيانات ومعلومات قد يعطي انطباعًا بأني صقر عنيف) أنا دائمًا أعلم الأشخاص كيف أنوي استخدام تجاربهم في الحياة حتى أتأكد من أنني قد أصبت في الاختيار وأنهم لا يمانعون في ذكر هوياتهم الكاملة أو أنهم يودون استخدام الاسم الأول فقط.

في تحاليلي للأمثلة المقدمة كان أساس عملي هو نفاذ البصيرة والمفهوم العام الذي قد تطور عبر ربع قرن من عملي في البحث الأكاديمي منذ أن حصلت على شهادة الدكتوراه في العلوم اللغوية من جامعة كاليفورنيا، باركلي.

كل المفاهيم والشرح لطرق البحث التي أقدمها هنا قد طورت بتفاصيل تقنية في الإعلام الأكاديمي. وهذه بعض المراجع على صفحة الويب الخاص بي:

www.deborahtannen.com

عندما سألت عن سبب قراري في الكتابة إلى عامة القراء بدلا من البقاء في المقالات الأكاديمية والكتب، أجبت بشكل طبيعي: «بأني أردت كتابة كتاب يسهل على أمي قراءته». وعندما أقول هذا فإن كلمة «أمي» هنا

تعني عامة القارئات اللاتي من المستحيل أن يفكرن بشراء كتاب مثقف. ولكن كلمة أمي تعني أيضاً أمي نفسها، الشخص الذي كان من أوائل جمهوري لكل إنجازاتي، والقاضي النهائي لكل أعمالي. موت أمي المفاجئ خلال كتابتي لهذا الكتاب جعل عملي صعباً، ولكن أيضاً جعلني أشعر بأن علي إنجازه بأسرع ما يمكن. أصبح الكتاب بمثابة طريقة لتكريم ذكراها بينما تدفعني لدراسة التأثير القوي الذي تركته علي والذي مازال مستمرًا مؤثرًا في كل جزء من حياتي. الاعتراف بهذه القوة يعزز من أهمية التفهم وتحسين الحوار بين الأمهات وبناتهن.



1

هل يمكننا أن نتحدث؟

الأمهات والبنات في حوار

تقول إحدى النساء وابنتاها في الثلاثينيات من عمرهن: «إن بناتي يستطعن قلب يومي إلى يوم أسود في ثانية..». وأخرى تقول: «كنت أتكلم مع أمي عبر الهاتف وكل شيء يسير بهدوء، ثم فجأة قالت أمي شيئاً أغضبني كثيراً، فقمت بإقفال السماعة بدون تفكير. ثم بعدها لم أستطع تصديق أني فعلت هذا، فأنا لا أتصرف هكذا مع أحد أبداً».

ولكني أيضاً أسمع تعليقات مثل: «لا أحد يدعمني ويجعلني أشعر بشعور جيد كأمي. فهي دائماً إلى جانبي». وتعليقاً من أم لبنت بالغة تقول: «أنا أشعر أني محظوظة وقريبة جداً من ابنتي، خصوصاً أنني لم أحظ بعلاقة قريبة مع أمي، إنها علاقة تجعلني أشعر بالمساندة والشفاء. إن الأمهات والبنات يجدن في بعضهن مصدراً للراحة العظيمة ولكن أيضاً مصدراً للألم العظيم. إننا نتكلم مع بعضنا بأفضل وأسوأ الطرق مجتمعة بالقياس إلى كلامنا مع أي أحد آخر. وهذا التطرف من الممكن أن يوجد في الطرفين الأم والبنت معاً. كانت هناك أختان في مصعد المستشفى الذي ترقد فيه الأم على فراش الموت فسألت إحدى الأختين الأخرى: «كيف ستشعرين عندما تموت أمنا؟» أجابت الأخت: «جزء مني يقول: «كيف سأعيش بعدها؟» والجزء الآخر يردد: «أخيراً ماتت الساحرة».

الجزء الذي يقول «كيف سأعيش بعدها ؟» يعكس الاتصال العاطفي: الرغبة في الكلام مع أمك شيء غريزي أو كما الرغبة الجسدية، و إن كانت تعيش في البيت المجاور أو في مدينة ثانية، أو في بلد آخر أو حتى لو لم تعد تعيش على الأرض. ولكن الجزء الذي يرى أمك ـ كساحرة وشريرة وامرأة حاقدة بقوى سحرية ـ يعكس غضبك الذي يشتعل من نبذها لك أو من كلمة استهجان واستنكار أو مجرد شعورك بأنها مازالت تعاملك كطفلة، كل هذا يسبب ألماً عميقاً. إن الثقافة الشعبية الأمريكية ـ كما الأفراد في الحياة العادية ـ تميل إما إلى إظهار الأم بمظهر رومانسي أو بمظهر الشيطان. إننا نتقلب بين اثنتين : «إن كل ما أنجزته في حياتي أدين به لأمي. «أو» إن كل مشكلة في حياتي هي بسبب أمي». وهذه الإدانة تأتي محملة بالعواطف القوية. لقد اندهشت من عدد النساء اللاتي كن يكتبن لي عن أمهاتهن وكل واحدة منهن تكتب وتقول: «إنني أبكي وأنا أكتب لك هذا».

النساء كأمهات يتصارعن مع التناقض والتطابق. إن العبادة والهيام الذي يشعرن به تجاه بناتهن ـ ممزوجا بشعور المسؤولية تجاه سلامة البنات ـ من الممكن له أن يكون شعوراً غامراً وساحقاً. هذا الشعور يقارن فقط بمقدار الألم الذي يشعرن به عندما تترجم محاولتهن للمساعدة أو للبقاء على اتصال على أنها تدخل مفرط وانتقاد، وتقابل بالصد والشجب.

وحقيقة فإن هذا الدفع والجذب في العلاقة يستمر حتى بعد بلوغ البنات سن الرشد، هو بحد ذاته مفاجأة وليس بالمفاجأة الجيدة. تقول سيدة في الستين من عمرها: «كنت أتوقع أنه ما إن تصبح ابنتي بالغة حتى تنتهي

المشكلات بيننا.. ونصبح صديقتين نستمتع ببعضنا. ولكني أجد أنه كلما كبرت بالسن بدأت الأمور تؤلمني أكثر، وزد على ذلك التعقيدات بيني وبين ابنتي.. إن هذا مخيب للأمل».

إن شعور الألم الناتج عن خلاف حدث بسبب شرارة بسيطة هو محير ومخيب للأمل، ويظهر على أنه تافه وغير مهم. هنا مثال من إحدى تلميذاتي تدعى كاثرين هاريسون: «هل ستقومين بتقطيع الطماطم؟» سمعت كاثرين صوت أمها وهي تقوم بتحضير السلطة. تصلبت كاثرين وتسارعت نبضات قلبها وقالت: «حسناً، كنت أعمل على هذا». ردت أمها: «آه.. حسناً». ولكن نبرة صوت الأم ونظرتها لكاثرين جعلتها تسأل أمها: «هل هذا خطأ؟»

«كلا.. كلا ولكني لو كنت مكانك لقطعتها شرائح».

أجابت كاثرين بأدب: «حسناً». ولكن بينما كانت تقطع الطماطم إلى شرائح فكرت، هل لي أن أفعل شيئا دون تدخل أمي وتعليمي كيف علي فعله؟

أنا مستعدة للرهان على أن أم كاثرين اعتقدت أنها كانت تسأل مجرد سؤال عن تقطيع الطماطم. أي شيء أتفه من هذا؟

ولكن ابنتها اتخذت موقفاً عدوانياً لأنها سمعت المعنى المتضمن «أنت لا تعرفين ما تصنعين. أنا أعرف أحسن منك».

عندما تكون ردة فعل البنات منزعجة وغاضبة لأبسط الملاحظات التي تبدو بريئة، فإن الأمهات يشعرن بأن كلامهن مع بناتهن كما المشي على قشر البيض، عليهن الانتباه لكل كلمة.

إن أسئلة الأم وتعليقاتها التي توحي للبنت بأن عليها فعل الأشياء بطرق مختلفة من الممكن أن تطلق شرارة الإجابات الثقيلة، لأنها تعيد إلى مركز التركيز لغز العلاقة بين الأم وابنتها وهو «المعنى المزدوج للتواصل والتحكم».

كثير من الأمهات والبنات يكن على أقرب ما يكون من بعضهن، ولكن القرب دائماً يحمل معه الحاجة أو في الواقع ـ الرغبة ـ في مراعاة أثر تصرفاتك على الطرف الآخر. وهذا يجعلك تشعرين كما لو أنك لا تتحكمين في حياتك الخاصة. إن أي كلمة أو حركة مقصودة خلال هذا التواصل يمكن أن تفسر على أنها إشارة بأن الطرف الآخر يحاول السيطرة عليك.

وقد تبلور هذا المعنى المزدوج في تعليق من امرأة فقالت: «إن ابنتي كانت تكلمني بالهاتف كل يوم، وقد أحببت هذا. ولكنها بعد ذلك توقفت. إنني أتفهم أنها تزوجت وانشغلت، وأنها شعرت أنه ربما عليها إرخاء حبل الوصل قليلاً. أنا أفهم هذا ولكني مازلت أشتاق لمكالماتها». لاحظي في المعنى «إرخاء حبل الوصل» يكمن المعنى المزدوج للتواصل والتحكم. إن كلمة «الوصل» تثير العاطفة في «العلاقة القريبة» وأيضاً سيطرة «العبودية»: أن تكوني مربوطة بأحد ولست حرة.

هناك أيضاً سبب آخر لجعل التعليقات والنصائح تثيرنا: «وهو أنها من الممكن أن تفهم على أنها عدم ثقة». وهذا مزعج من أي شخص، ولكنه مؤلم إذا أتى من شخص تعتد برأيه ـ كأمك ـ. وبالرغم من أن هذا يبدو محيراً للأمهات فإن أصغر ملاحظة من الممكن أن تجعلنا نفكر بأكبر الأسئلة التي

تحوم فوق كل حوارات الأم والبنت تقريباً: « هل تراني كما أنا في الحقيقة؟» و«هل تعتبر شخصيتي جيدة؟»وعندما تعلق الأمهات على البنات أو ـ البنات على الأمهات ـ ويكون التعليق جواباً إيجابياً فإنه يعيد الطمأنينة لأعماقنا، ونشعر أن كل شيء في العالم جيد. ولكن عندما تلمح كلماتهن بالسلبية والرفض: «إن ما تفعلينه غير صحيح». فإن البنات «أو أمهات المستقبل» يبدأن يشعرن بأن الأرض اللاتي يقفن عليها بدأت بالاهتزاز. إنهن يبدأن بالشك بصحة أفعالهن ومن ثَمَّ بحقيقتهن كأشخاص.

إنك لن تلبسي هذا، أليس كذلك؟

لورين كانت تقضي أسبوعاً في زيارة أمها التي تعيش في مبنى للعجزة. وفي مساء أحد الأيام كانتا على وشك النزول إلى صالة الطعام لتناول العشاء. وبينما اتجهت لورين إلى الباب توقفت أمها مترددةً وهي تتفحصها بعينيها من رأسها إلى قدميها سائلة: « أنت لن تلبسي هذا، صحيح؟».

«ولم لا؟» سألت لورين، وقد بدأ ضغط دمها بالارتفاع «ما الخطأ فيه؟».

«حسناً. إن الناس هنا يلبسون ملابس أكثر تألقاً، هذا كل شيء». هنا قامت أمها بالشرح لمدى أبعد من اللزوم ملمحة إلى أن ابنتها لم تكن ترتدي ملابس جميلة ومناسبة. إن أسئلة أمها السلبية ضغطت على لورين بالطريقة الخطأ، لأنها لم تكن أسئلة كما هو واضح.

«لماذا دائماً تستنكرين ولا توافقين على ما ألبس؟» سألت لورين.

الآن ظهرت على وجه أمها نظرة تلمح بأن لورين تتصرف بغير لباقة: «أنا لا أستنكر»، اعترضت الأم «أنا فقط فكرت لو كنت قد ارتديت ملابس أخرى».

إن الطريقة التي من الممكن أن نفهم بها الاختلاف بين ما سمعته لورين وما تقول أمها إنها عنته هو معرفة الفرق بين «الرسالة المباشرة» في الكلام وبين «المعنى المخبأ» في الرسالة. عندما قالت أم لورين: «أنا لا أستنكر»، فإنها كانت تعني المعنى الحرفي «أو المباشر» للكلمات التي تفوهت بها. ولكن الاستنكار الذي سمعته لورين في المعنى والتلميح المخبأ في كلمات أمها هو «الرسالة الخفية» أو ما وراء الرسالة. كل ما نقوله له معنى على هذين المقياسين. إن «الرسالة المباشرة» هي التي تكمن في التعريف القاموسي للكلمات. وكلنا تقريباً نوافق على ذلك. ولكن الناس عادةً يختلفون حول ترجمة وتفسير الكلمات، لأن التفسير يعتمد على «المعنى المخبأ». لأن المعنى يفهم من الطريقة التي قيل بها، أو حتى إن كان قد قيل أم لا. وردود الفعل العاطفية عادة تثار وتفجر بسبب «المعنى المخبأ» في الكلام.

عندما قالت أم لورين: «أنا لا أستنكر» فإنها كانت تقوم بفعل ما أسميه «صراخ بالمعنى الحرفي». إنها تستطيع أن تختبئ تحت مفهوم الرسالة المباشرة وتأخذ مسؤولية المعنى الحرفي لكلماتها فقط.

وعندما يصرخ أحدهم بالمعنى الحرفي، فإنه من الصعب حل النزاع، لأنه سينتهي بك الأمر بالكلام عن الرسالة المباشرة بينما المعنى الخفي في الرسالة هو الذي كان قد أثار غضبك.

هذا لا يعني أن بعض القول له معنى خفي وبعضه لا. كل ما نقوله له معنى خفي يشير إلى كيفية تفسير كلماتنا: هل هذا فعلاً تعبير جديّ أم مزحة؟ هل تظهر الإزعاج أم الرضا؟ في كثير من الأوقات فإن المعاني الخفية في الكلام تصل وتفسر بدون انتباه، لأن المتكلم والمستمع يوافقان

على المعنى العام للكلام. إننا نلاحظ ونهتم فقط بالمعاني الخفية عندما لا تتفق معاني المتكلم مع ما يفهمه السامع.

عندما فسرت لورين كلام أمها على أنه دلالة على عدم الرضا كانت تتصور الحوارات القديمة بينها وبين أمها، لم تستطع عد المرات التي علقت أمها فيها خلال هذه الزيارة أو في زيارات سابقة قائلة: «هل ستلبسين هذا؟» وفي هذه المسألة تكمن الأسباب الأخرى التي تجعل أي كلام يدور بين الأم وابنتها إما أن يدخل الدفء لقلوبنا، أو يرفع من ضغطنا. إن حوارات لورين وأمها لها تاريخ طويل، تعود إلى مرحلة بداية حياة لورين. إذاً أي شيء يقال من أي منهما في أي لحظة يؤخذ بمعنى، ليس فقط من الكلمات المتفوه بها في تلك اللحظة ولكن أيضا من كل الحوارات التي دارت بينهما في الماضي. وهذا له أثر بطريقة إيجابية وسلبية معاً. إذ إنه ينتهي بنا إلى أن نتوقع تعليقات معينة من بعضنا، ونكون مستعدين لتفسير ما نسمع طبقاً لهذه النفسية والروح.

حتى الهدية التي تكون الرسالة منها إيماء واضحاً للتواصل، تستطيع أن تحمل في طياتها معنى «مخبأ» للانتقاد في سياق الكلام الذي دار في الحوارات في الماضي. مثلاً إذا دلت البنت أمها على متجر راقٍ للملابس فإنه من الممكن أن تفهم أمها الرسالة على أنها لا تستطيع انتقاء ملابسها بطريقة جيدة. أو ممكن أن تفهم البنت الرسالة على أنها انتقاد إذا قامت أمها بإهدائها أدوات لتنظيم مطبخها الفوضوي.

إن التاريخ الطويل للحوارات التي يتشارك به أفراد العائلة لا يسهم فقط في كيفية تفسير الكلمات ولكن أيضاً بكيفية اختيار المتحدثين للكلمات.

علقت امرأة على هذا الموضوع قائلة: «إن الكلمات كما اللمس. يمكن أن تخدش أو أن تلاطف. عندما أتكلم مع أولادي فإن كلماتي عادة تخدشهم، أنا لا أريد استخدام كلمات كهذه ولكن ليس بيدي حيلة. أنا أعلم أنهم حساسون، ولذا أعرف ما الذي يؤثر فيهم. وإذا كنت أشعر بالألم تجاه شيء قالوه أو فعلوه، فأنا أقول أشياء سوف تخدش أحاسيسهم. وهذا يحدث في المنطقة التي بين الميول الفطري والقصد.»

هذا التعليق يبين قوة اللغة في نقل وإيصال المعاني غير الموجودة في المعنى الحرفي للكلمات. إنه يلقي الضوء على كيفية استخدامنا للحوارات القديمة كمصدر للمعاني في الحوارات الحالية. وفي الوقت نفسه فهي تصف الاختلاف بين «الرسالة» وبين «الرسالة الخفية» أو ما وراء الرسالة. الاختلاف الذي سيكون مهما في كل الحوارات التي سوف نقوم بدراستها في هذا الكتاب.

ومن يهتم؟

كانت جونا تتكلم عرضاً مع زوجها، وبينما هي شاردة الذهن شدت على جزء من جلدة أصبعها، فسقطت منها قطرة دم صغيرة. وبدون تفكير كانت تحملها بيدها أمام عيني زوجها. قال زوجها بفتور: «ضعي عليها ضمادة جروح». إن ردة فعل زوجها جعلتها تتساءل: لم جعلته يرى جرحها بكل تفاهة؟ ثم أدركت أنها قد تعودت على عرض جراحها مهما صغرت على أمها. ولو أن أمها رأت هذا الجرح البسيط لكانت مدت لها يدها، وأخذت أصبع جوانا وتفقدته بلطف. جوانا كانت تبحث عن لمحة العطف والشفقة، رسالة تذكير سريعة الزوال بأن أحداً آخر يشاركها هذا الكون.

من غير أمها ممكن أن يحترم جرحاً بسيطاً ويجعله يستحق كل هذا الاهتمام؟ لا أحد ـ لأن أم جوانا لا تستجيب للجرح فقط ولكنها تستجيب لإيماءات جوانا ومحاولتها إظهار هذه الإيماءات لأمها. إنه ليس من الواقع أو الحقيقة أن يكون قلق الأم فقط بسبب جرح الإصبع البسيط، ولكنها كانت اللغة الدقيقة والبارعة التي يتقاسمنها. إن نقطة الدم البسيطة هذه هي تذكير من جوانا لأمها «بأني هنا». وتأكيد من أمها على أنها «حريصة على رعايتها».

نمت عند كثير من النساء عادة إخبار الأمهات عن المحن الصغيرة في الحياة لأنهن يقدرن رسالة العناية والاهتمام الناتجة من ردة فعل أمهاتهن. ومع ذلك فإن بعض النساء كجوانا قد لا تلاحظ الفرق حتى تحصل على ردة فعل مختلفة من شخص آخر. هذا أيضا حدث مع كاري إحدى تلميذاتي. كانت عادة كاري أن تتحدث إلى أمها عندما تتصل ببيت والديها وقد كانت مريضة بالأنفلووانزا وقتها، لكن كانت خارج المدينة فتحدثت كاري مع والدها، وهكذا روت كاري الحوار الذي دار بينها وبين والدها:

كاري: آه يا أبي. أنا مريضة بالأنفلوانزا، إنه شعور بغيض للغاية.

الأب ببرود: حسناً، خذي بعض الدواء.

كاري: لقد أخذت، ولكني مازلت أشعر بالتعب الشديد.

الأب: حسناً اذهبي إلى الطبيب.

كاري: ولكن كل من في المدرسة مريض أيضاً، حتى إنني لم أستطع أخذ موعد مع الطبيب اليوم.

الأب: حسناً إذاً، أنا آسف. لا أستطيع مساعدتك في هذا.

في التعليق على هذا الحوار، شرحت كاري أنها تعرف جيداً كيفية أخذ الدواء، وأن عليها الذهاب للطبيب عندما تشعر بالمرض. وما كانت تبحث عنه عندما اتصلت بالبيت هو رسالة اهتمام مخفية. وكانت هذه كلماتها: «إنني متعادة على اهتياج وقلق أمي على أصغر المشكلات في حياتي». ونلاحظ الفرق بين ردة فعل أمها المميزة وطريقة والدها الواقعية التي تركتها تشعر بعدم الرضا، أو حتى بقليل من الألم.

الدعم في التفاصيل الصغيرة

لا تحتاج الأمهات والبنات إلى أن يشعرن بالمرض حتى يتكلمن ويتواصلن مع بعضهن، في حال كان التواصل من مسافة بعيدة، أو من خلال اللقاء الشخصي، أو خلال مكالمة هاتفية. ومن خلال كلام النساء معي عن أكثر ما يقدرنه في العلاقة مع أمهاتهن فإن كثيراً منهن ذكر الحوارات الدائمة التي تدور حول أصغر التفاصيل في الحياة اليومية: ومن غير أمي أستطيع أن أقول له: بأن القميص الذي طالما وددت شراءه قد نزل على لائحة التخفيضات؟ من غير أمي من الممكن أن يهتم؟ هذه من أكثر أوجه الكلام تكلفاً مع الأم: لا أحد يهتم بما لبست، أو ما أكلت؟ أو ماذا قيل لك بالتحديد؟ وما كانت ردودك؟. بالنسبة لمعظم النساء فإن الاهتمام بأتفه الأمور هو إشارة للألفة والاهتمام.

والعكس صحيح أيضاً بالنسبة لعلاقة الأم وابنتها. في خلال بحث قمنا به في الفصل، بحثت كايت ستودارت في بريدها الإلكتروني الذي قد استلمته من أمها، كانت الأم قد أخبرت ابنتها في أحد الإيميلات عن شعورها تجاه الملابس التي قد اشترتها بمساعدة كايت فقالت: (أحببت

القطع التي طلبناها، ولكني سأقوم بإعادة القمصان البنفسجية.. الكنزة الخضراء ممتازة، والزرقاء أيضاً قد أحببتها جدًا...(شكراً لمساعدتك لي في إيجادها).

بوضع هذه المعلومات في أقواس فإن أم كايت بينت أنها أخذت نظرة ابنتها في الاعتبار، واحترمت رأيها. وهذه التفاصيل الصغيرة تساعد في البقاء على علاقة قريبة مع الابنة التي كانت تعيش في الجامعة.

إذا كان تبادل التفاصيل اليومية في الحياة يخلق ويبقي على المودة، فإن عدم الاهتمام بهذه التفاصيل وفهمها بالطريقة الخاطئة قد يكون بداية لهروب المودة. في كتاب «الحب الذي خسروا: العيش في ميراث الطلاق» لستيفان ستال، عاشت ستيفان مع والدها بعد طلاق والديها، تتذكر ستيفان بداية مراهقتها وكيف أنها كانت تستمتع بوجود أمها بجانبها خلال زيارتها الأسبوعية ولكن تتابع ستيفان أن أمها كانت تسأل عن صديقة لم تكلمها منذ سنين، أو أن تخلط أسماء الأصدقاء الحاليين بالقدامى، تقول ستيفان: «اعتدت على إعطائها ابتسامة باهتة، و شعرت كم هي المسافة كبيرة بيننا». إن عدم معرفة أمها لتفاصيل اليومية في حياتها كان مؤلماً ومذكرًا لما قد خسرته ستيفان عندما تركت أمها البيت.

المحقق الكبير

أليسون كيلير، طالبة أخرى شرحت في بحث كتبته في فصلي كيف أن التفاصيل الصغيرة تكون جزءًا كبيرًا من محادثاتها وعلاقتها مع أمها. وركزت على الدور الذي تلعب من خلال أسئلة أمها.

وبالنسبة لأليسون فإنها على صلة قريبة بأمها، وتقوى هذه الصلة عند حديث أليسون عن «أتفه الحوادث وأصغر التفاصيل» في حياتها. تصف أليسون واحداً من هذه الحوارات على هذا النحو:

في محادثة هاتفية حديثة مع أمي كنت أخبرها عن يومي وما قد فعلت. أخبرتها بأني ذهبت للغداء مع أخي لاري، وحضرت دروس تقوية إضافية، وأني ذهبت للسينما مع صديقتي. وتابعت أمي بالسؤال «ماذا لبست؟» «ماذا أكلت؟» «وما نوع الصلصلة التي كانت على طبق السلطة؟» «وهل كان هناك موضوع تتحدثين فيه مع أخيك لاري أم أنه كان غداء عاديًا؟» «هل اتصلت به أنت أم هو اتصل بك؟» «وهل لبست الملابس نفسها في الدروس والسينما، أم أنك قمت بتغيير ملابسك؟» و«متى نمت على هذا الحال؟» و«هل كان عندك عمل اليوم التالي؟» وهكذا.

ومن خلال قراءة هذه الأسئلة فإنه يمكننا رؤية السبب الذي يجعل أليسون وأخيها يسمون أمهم بـ«المحقق الكبير» ولكن أليسون تقول هذا بحب وليس بانزعاج. هي لا تمانع أسئلة أمها الكثيرة؛ لأنها تحب أن تخبرها بكل القصص التي دارت في يومها (مع ذلك فهي تنزعج من وقت لآخر عندما تكرر أمها الأسئلة بينما تحاول هي الإجابة وتقاطعها أمها بثلاثة أسئلة أخرى!).

أي شيء يشير إلى المودة من الممكن أن يفهم على أنه تطفل إذا كانت المودة غير مرغوب بها. والحال نفسها في الاهتمام بتفاصيل الحياة فإننا قد نستاء منها ونرفضها بدلاً من الترحيب بها إذا لم نود التقرب من الشخص السائل.

إن الأم التي تود الاطلاع على كل صغيرة وكبيرة من حياة ابنتها قد تبدو كأفضل صديقة، أو قد تبدو كمستجوب، وكثير من البنات قد لا يشاركن أليسون في تقديرها لدور أمها.

إن البنت قد تتمنى ألا تسأل أمها أسئلة كثيرة في حال كان الموضوع حرجاً ومزعجاً ولا تود البنت الإسهاب فيه. وهكذا كانت الحال مع طالبة أخرى اسمها كولين، تقول كولين:

قد مررت مؤخراً بمرحلة صعبة بعد انفصالي عن خطيبي الذي دامت علاقتي به أربع سنوات. وبالرغم من أني عادة أفضي إلى صديقاتي عند مروري بمسألة كهذه، لكني اعتقدت أن أمي ستقدم لي وجهة نظر مختلفة عن صديقاتي، وقد فعلت. كانت أمي أكثر من مستعدة للاستماع إلي ولمواساتي ولتقديم الرأي والنصح. ولكنها كانت سريعة في تذكيري في سبب ترددي بالكلام معها في مسائل كهذه في الماضي. ومنذ ذاك الحوار الذي دار بيننا فهي تنجح باستمرار في توجيه كل حواراتنا تجاه الانفصال، من خلال أسئلة كهذه: «كيف تتعاملين مع الأمور؟» و«ماذا عنه هو هل هو بخير؟» «ما الذي ستقومين بفعله هذا الصيف؟» وهكذا... وأخيراً كان علي أن أخبرها بأني لا أود الحديث في الموضوع؛ لأنها كانت تزيد من صعوبة الموقف علي. وقد أزعجها كلامي.

إن الاطلاع على مشكلات بعض الناس يضعك في مأزق: هل عليك تجنب ذكر الموضوع وتجازف في الظهور كشخص قاسي القلب، أم تذكر الموضوع لتبدي اهتمامك وقلقك وتخاطر في إحداث أضرار إضافية وتبدو متطفلاً. أم كولين اختارت الأخير. وفضلت ابنتها لو أنها اختارت الأول.

وبوضوح فأم كولين سألت هذه الأسئلة كتعبير عن الاهتمام وطريقة حماية ورعاية للقرب الذي بدأت به كولين عندما أحسنت الظن ووثقت بها. لكن في حين أن كولين قدرت تدخل أمها عند سؤالها، لكنها لم تكن ممتنة عندما كانت أمها هي من يفتح الموضوع .

ليس هناك شك بأن أمها كانت منزعجة لأن تصعيب الأمور على ابنتها كان آخر ما تود فعله، وطلب ابنتها لها بالتوقف عن الأسئلة قد يبتر القرب والصلة بينهما.

إذا كانت الأم تلتمس المعلومات كوسيلة للتقرب من ابنتها، إذاً القدرة على إعطاء أو إمساك هذه المعلومات يعطي البنت القوة في العلاقة. قوة من الممكن أن تستخدمها البنت في زيادة القرب بينهما أو في الحد منه. وهي طريقة من بين طرق عديدة تستطيع البنت من خلالها التغيير والتبديل على هذه القوة عند بلوغها لسن الرشد.

التدخل أم الغزو؟!

ليليان لديها بنات في الثلاثين من العمر، وقد دارت بينهن حوارات مختلفة. كانت الصغرى منهن آندريا طفلة منعزلة دائماً. ليليان لم تكن تستطيع انتزاع معلومات من صغيرتها، فعندما يكون الأطفال صغاراً تحتاج الأم أن تعرف ما يدور في حياتهم حتى تستطيع حمايتهم. ولكن التحقيق والسؤال أدى إلى صمت آندريا المحتوم. كانت تغلق وتطبق بإحكام تماماً كما يفعل ذلك الحيوان الصدفي عندما يستشعر الخطر. وقد أدركت ليليان مبكراً أنها سوف تجمع معلومات أكثر من آندريا إذا تظاهرت بأنها غير مهتمة وتترك ابنتها تتطوع بالمعلومات في الوقت الذي يناسبها. آندريا

كانت أشبه بالقصر المحمي ذي الجدران العالية وكان على أمها الانتظار في الخارج حتى يتم إنزال الجسر المتحرك والغامض، ويفتح محجوبًا من الداخل.

البنت الكبرى نادين مختلفة تمامًا فمنذ أن كانت صغيرة كانت تتكلم بحرية مع أمها عن أي شيء يدور في حياتها. تأتمنها على مخاوفها، وتطلب نصحها، وبدت كما لو أن لديها بعض الأسرار التي لم ترد أن تفشيها. وبالرغم من هذا فإن الشيء المحير الآن أن ليليان «الأم» على خلاف مع نادين وليس آندريا. أحيانًا نجد الحوار يدور بتجانس خلال مكالمة هاتفية بينهما. تخبر نادين أمها عن أمر شخصي والأم تسأل بدورها الأسئلة، وتقدم الملاحظات كما قد تفعل أي صديقة أخرى. ولكن الأم تسأل أسئلة مكررة ومشابهة لبعضها. نادين تشتعل غضبًا لدرجة أنها أقفلت سماعة الهاتف مرة تاركة أمها على الطرف الآخر محدقة بالسماعة صامتة، ومتألمة كما لو أنها قد صفعت للتو. عرفت الأم أنها تعدت بعض الحدود، ولكنها كانت أيضاً في حيرة من أمرها، إذ كيف لها أن تعرف أين تنتهي الحدود. بالنسبة لليليان فإن نادين تشبه المضيفة التي لا يمكن التنبؤ بها، فهي تدعوك لبيتها ثم لا تلبث أن تطردك وتضرب الباب في وجهك. وفي مثل هذه الأوقات تتمنى أنه لو لم يتم دعوتها من الأساس.

إنه لشيء مثير للسخرية ومحير للأم أن تظهر هذه المشكلات مع نادين، البنت التي طالما تكلمت معها بكل حرية، وليس مع آندريا التي كانت دائماً تترك مسافة ذراع بينها وبين أمها. ولكن هذا التطور ليس مفاجئاً لأن الحديث عن مواضيع شخصية يوفر الفرص للملاحظات والانتقادات التي من الممكن أن تؤلم أحاسيسنا ومن ثَمَّ تغضبنا. وهذا

يفسر لماذا علاقة الأم بالبنت من الممكن أن تكون مصدر ضيق ومشكلات، وأن تكون أيضاً مصدراً للراحة. وعلى خلاف بعض الأوقات فنتائج هذه الأنواع من الحوارات تحدث مع كثير من النساء القريبات من بعضهن. إن اندلاع النار والغضب يثار من خلال الالتفاف بالحوار والكلام الذي بدوره يغيظ أحد الطرفين، لذا فإنه من الأرجح عند حديث الأم وابنتها في أمور خاصة وشخصية ـ كالتي تدور بين معظم النساء ـ فإن هذه الأحاديث تعتبر كنزاً ورمزاً للقرب والمودة. واحدة من المجازفات لهذه الحوارات هي تخطي الحدود الخفية: فإن إعطاء حد معين من المعلومات الشخصية لا يعني بالضرورة أن المرأة تود كشف كل جزء من حياتها. وبمعرفة هذا فإن ليليان افترضت أنه عندما تغضب ابنتها نادين بعد طرح سؤال عليها، فإنه من المؤكد أن السؤال الذي سألت قد تخطى الحدود إلى منطقة لا تود البنت الدخول إليها. في كثير من الأحوال ما يغضب البنت ليس نوع المعلومات التي تحاول الأم معرفتها، لكن الحكم والانتقاد الذي يتضمنه السؤال. وهذا يحدث بتفاهة واضحة وجلية في تبادل التفاصيل بنفس درجة الحديث المحمل بالعواطف الزائدة.

الارتقاء أو الانحدار بنفسك؟

كانت مارين تتكلم عبر الهاتف مع ابنتها كلير التي تعمل مدرسة للبيانو. وكان جدول كلير ممتلئاً بالطلاب والدروس الخصوصية خصوصًا بعد أن انتخبت مؤخرًا رئيسة لجمعية المعلمين للموسيقى التي كانت عضواً فيها. وخلال حوارهم الهادئ واللطيف قالت كلير: «إنني متعبة جدًا لم أنم طيلة الليلة السابقة، كنت أكتب تقييمي للطلاب الذين قدموا طلباتهم للحصول على المنحة الدراسية في جمعيتنا، والليلة سأكون مستيقظة أيضًا

حتى أطبع المسودات من اجتماعنا الأخير». ردت مارين: «إنك تأخذين على عاتقك الأشياء الكثيرة يا كلير! لماذا لا يقوم أحد من الأعضاء بعمل بعض هذه الأشياء؟ لا يجب عليك طباعة المسودات على أي حال؛ أنت لست بسكرتيرة، أنت الرئيسة! إنني أكره أن أرى الناس يحتالون عليك ويستخدمونك لفوائدهم». بعد هذا التعليق يأتي الانفجار.

«أمـي..» انفجرت كلـير. «أنت تعلمـين حبي الشديد للعمـل في جمعية المعلمـين للموسيقى! وكنت فرحة جداً بانتخابهـم لي، وقد اخترت بنفسي البقـاء كرئيسـة للجنـة المنح الدراسيـة. أنا أحـب أن أكـون الحكم فهذا يساعدني في تهيئة تلاميذي للمنافسة. وقد تطوعت هذه المرة لأخذ الوقت الإضافي للعمل على هذا، لأن السكرتيرة لم تستطع القيام بالاجتماع، لماذا أنت دائماً تهونين وتقللين من شأني؟ لم لا تساندينني أبداً؟» دافعت مارين عـن نفسهـا قائلة: «أنـا لا أقلل من شأنـك. وأنا أساندك!» تشعـر الأم أن ابنتهـا قد هاجمتها بطريقة غـير عادلة. من أين لها هذه الفكرة بأن أمها كانـت تهون و تقلل من شأنها، أليس من المساندة والمعاونة أن تشجع ابنتها للوقـوف والصمود لنفسها؟ وإذا كانت كلـير لا توافق على اقتراحات أمها لماذا تغضب؟ لماذا أحدث هذا التعليق الصغير ردة فعل قوية؟

إن السبب هو «الرسالة الخفية» في الكلام. إن المعنى الذي سمعته كلير من كلام أمها هو أنها لم تأخذ القرارات الصحيحة، وأنها لا تستطيع تنفيذ الواجبات التي أخذتها على عاتقها. إن قولها «بأن الآخرين يستخدمون كلير لفوائدهم» لا يعني فقط الحكم عليها، ولكنه أيضا يغير الصورة الذهنية لنفسها. إن الواجبات الكثيرة التي ائتمنت كلير بإنجازها كانت كما العهد والميثاق لاحترام زملائها لقدراتها. وتأديتها لكل هذا جعلها

تشعر بالأهمية والكفاءة بغض النظر عن شعورها بالتعب والإرهاق. إن لوم أمها جعلها تشعر كأنها ممسحة للأرجل عند باب أحدهم، أو أنها مغفلة وعاجزة. بينما كانت ثقة واحترام زملائها إعلانًا في استحقاقها لهذه المسؤولية والميثاق.

إن مارين كانت تتعجب «ما الذي يمكن أن تريده مني؟» إن ما كانت تريده كلير من أمها هو إشارة بالاهتمام. كأن تقول: «أتفهمك تماماً.. أكاد أشعر كم أنت مرهقة، لكن العمل الذي تقومين به مهم للغاية وأعلم أنك ستقومين به على أفضل حال. ستعوضين نقص النوم في الإجازة». كانت ترمي إلى تعاطف وتعزية أمها لها. «نظرية المبالغة في التلميح» تماماً كالطفل الذي يحاول أن يلفت نظر أمه إلى ركبته المجروحة ليحصل على قبلة منها حتى يشعر بالتحسن. كم سيكون مخيباً للأمل لو أن الأم صاحت ووبخت الطفل لوقوعه، ـ ويحدث هذا من الأمهات بعض الأحيان بسبب الذعر والخوف عليهم ـ وهذا إحباط مضاعف زود انفجار كلير: إن أمها لم تخفق فقط في تقديم العطف الذي كانت تبحث عنه، ولكن أسوأ من هذا، فالنصيحة التي قدمتها تضمنت عدم ثقتها بحكم وجدارة كلير. ولكن ضع في اعتبارك وجهة نظر مارين للأمر حيث إنها كانت تحاول حماية ابنتها، وهذا يظهر الصفة التي تقدرها كثير من النساء في أمهاتهن: وهي أنها دائماً تكون في صفها.

ولهذا كانت ردة فعل كلير غير متوقعة، وعدم توقعها هو ما يجعلها أكثر ألماً. مارين كانت تعتقد أنها تتحدث مع ابنتها في حوار على الطريق نفسه بسعادة وانسجام عندما تفاجأت بحاجز في الطريق صدمها ورمى بها خارج العربة.

لقد كانت ردة فعل الاثنتين مفاجأة تجاه بعضهما. إنه التفسير المختلف لطريقة الكلام الذي يجعل من الخيبة والتثبيط شيئاً شائعاً جداً بين الأمهات والبنات. وعادة ما يجري سياق الحديث بطريقة كهذه:

البنت تكشف عن شيء خاص وشخصي في سبيل التقرب من أمها. الأم تريد وتتمنى حماية ابنتها فتقدم بدورها النصيحة. إن المعنى الخفي لنصيحتها هو الاهتمام والحماية. ولكن البنت تسمع معنى آخر: إن أمها لا توافق على ما تفعله ومن ثَمَّ لا توافق عليها. هذا التلميح يؤذي مشاعر البنت، ومن ثَمَّ تندفع فجأة في محاولة لإيذاء مشاعر أمها بالمقابل. وتستمر الاثنتان مكبلتين في حبل تكونت به عقد كثيرة بسبب المعنى المزدوج للنصيحة: فبينما تقدم إحداهن النصيحة المساعدة هي أيضاً تلمح إلى أن ما تفعلينه خاطئ وإلا لما كانت تحتاج النصيحة. إن من الصعب حل هذه العقد، لأنه في معظم الأحوال قد تكونت هذه العقد من خيوط لا توجد في السياق العادي الذي من السهل التعرف عليه ولكن في المعنى الخفي الذي يلمح إليه الكلام.

إن الطريقة التي نشأت بها المجادلة بين مارين وكلير تظهر لماذا من الممكن أن يكون الحوار بين الأم وابنتها أفضل الحوارات أو أسوأها: إن المخاطر والمغانم تنبت من نفس الجذور. إن الخوض في حوارات تكشف الشخصية والخصوصيات تعود على كثير من النساء بالمكافأة: فوجود شخص يهتم بتفاصيل حياتك ويتفهم ما الذي تمرين به، شخص تستطيعين أن تفتحي له قلبك وتكشفين ما بداخله. وجود هذه الحوارات يُكْسِبُ النساء البصيرة تجاه المشكلة والوضع الحاصل لهن ويجدن فرصاً أكثر تجاه معرفة التصرف الصحيح. وهي أيضا تجدد الطمأنينة في عدم

الشعور بالوحدة، وأن آخرين قد مروا بالتجربة نفسها. ولكن هذا النوع من الحوارات هو أيضاً خطير للغاية: فأنت تعطين شخصاً آخر معلومات قريبة جداً من إحساسك بنفسك، حيث إنه لو لم يتفاعل هذا الشخص بالطريقة التي تريدين فسيكون ألمك عميقًا، ليس بالألم نفسه الذي ستشعرين به لو كنت تتكلمين مثلا في السياسة أو الأحداث الجارية في الحياة.

ليس هناك شيءٌ أكثر إيلاماً من الاعتقاد بأنك في طوق حوار آمن، تشاركين في تفاصيل شخصية تعزز من القرب والمودة وفجأة تشعرين بأن الشخص الذي وثقت به بهذه المعلومات عن حياتك ونفسك أصبح يستخدمها كسلاح لضربك. عندها من المحتمل أن تندفعين بدورك معتقدة بأنك تضربين بالمقابل. ولكن إذا اعتقد الشخص المقابل بأنه كان يقدم نصيحة وردّاً جيداً ومفيداً، إذ هو سيفهم أن ردة فعلك كانت الضربة الأولى.

وهنا أمثلة لحوارات تركت البنت والأم في معاناة من الجروح والآلام وكل منهن تلوم الأخرى.

«أنا لا أصدق أنك قلت هذا»

مارثا كانت فرحة للغاية لأن ابنتها فيكي كانت تطلعها على تفاصيل حياتها. «أنا منشغلة جدًا بالانتخابات القادمة»، قالت فيكي: «أنا لا أستطيع التوقف عن الحديث عنها، لقد كنت قد تطوعت للاتصال بالناخبين في الولايات المجاورة. وأنا في الحقيقة أفكر جديًا في الذهاب إلى هناك مدةَ أسبوع والمساعدة في إخراج التصويت العام». أجابت أمها مارثا بأفضل طريقة مدح تراها، فقالت: «فيكي، أنا أحب سماعك وأنت

متحمسة لشيء ما. لقد مررت بمرحلة انفعال مؤخرًا، أنا لا أتذكر آخر مرة رأيتك فيها متحمسة لشيء ما. أنا سعيدة جدًا». وفجأة من لا شيء، جاء انفجار: «أنا لا أصدق أنك قلت هذا! من يهتم إذا كنت سعيدة أم لا. هذا الموضوع ليس عنك! لقد كان علي معرفة أنني لا أستطيع قول أي شيء لك». مارثا شعرت بالحيرة والألم. لقد اعتقدت أنها قد قالت شيئًا إيجابيًا وداعمًا. لم يكن لديها أدنى فكرة أن هذا بدوره سوف يغضب ابنتها. إن ثورات كهذه جعلتها تشعر أنها تمشي على قشر بيض في كل مرة تتكلم مع ابنتها. ولكن عند سماعي لهذا الحوار فهمت لماذا كانت ردة فعل فيكي بهذه الطريقة. لماذا كان وقع كلام الأم مؤلماً على البنت بينما كانت نية الأم المدح والدعم ـ لأنه وعلى كل حال عندما يغضب الناس فإن غضبهم يكون بسبب الألم بالرغم من أن الأم كانت فرحة بسبب حماس ابنتها للانتخابات. قالت مارثا: إن فيكي كانت تفتقر سابقاً إلى هذه الصفات الإيجابية وهي الشغف والعاطفة. وكان تعبيرها: «إن الطريقة التي هي عليها الآن عظيمة» مسرفًا حيث لمح المعنى إلى أن الطريقة التي كانت عليها من قبل عديمة الجدوى. إنه تقابل الجانب الإيجابي الحالي مع السلبي الماضي الذي حول من تعليقات مارين من مديح إلى انتقاد. وبينما كانت تعتبر مارين الجانب الإيجابي هو حقًا ما قالته وعنته، فإن الجانب السلبي قد حجب النور عن الكلام من وجهة نظر الابنة.

لم تشعر فيكي بخيبة الأمل هذه عندما قالت «هذا الموضوع ليس عنك!» ـ ولكن قد كان هذا أكثر شيء آلم مارين.

إنني أستطيع أن أفكر بعدة أسباب تجعل فيكي تتهم أمها بالأنانية بدلا من شكواها عن اتهام أمها لماضيها وتقييمها له.

أولاً: في الوقت الذي تكون فيه متألما فأنت غالبا لا تعرف بالضبط اتجاه ردة فعلك، وما الذي تتفاعل من أجله. أنت تعرف فقط أنك كنت تشعر بشعور جيد والآن تشعر بالانزعاج.

ثانياً: الاختلاف بين الرسالة والرسالة الخفية في الكلام. حيث إن المعنى المؤلم لم يكن واضحاً في كلمات الأم، لهذا ركزت فيكي على كلمة «الأنا» في كلام الأم «أنا سعيدة جداً». ربما شعرت فيكي أن باتهامها لأمها تستطيع أن ترد الضربة بالضربة. (ليس هناك أي طريقة لمعرفة ما كانت فيكي تفكر به بالضبط، هل جملة «أنا سعيدة جداً» كان مجرد تعبير اصطلاحي تماماً كقول: «أنا أسفة جدًا» ويمكن اعتباره طريقة تعبير عن المواساة، أو أن فيكي كانت على حق عند شعورها بأن أمها كانت تركز على تجربتها العاطفية بدلاً من التركيز على حالة ابنتها العاطفية).

هناك عوامل مشتركة بين الحوار السابق وبين هذا الأخير الذي سمعت عنه من أم شاركت به وكانت تشعر بالسوء بسببه. بدأ هنا الحوار أيضًا بتبادل هادئ للأحداث اليومية والمشاعر. «أنني أشعر بالإحباط مؤخرًا». أفضت جودي بثقة لأمها إيفا خلال مكالمة هاتفية. «إن ذاك التقييم مازال له أثر سيئ على نفسي، لا أدري لماذا إلى الآن لم أستطع التخلص من تأثيره علي». إيفا حاولت أن تقدم نصيحة مساعدة فقالت: «ربما عليك التفكير في أخذ بروزاك». ـ بروزاك عقار لحالات الكآبة ـ. «لقد لاحظت أنك تميلين أحيانا للكآبة، وكثير من صديقاتي يقلن: إن بروزاك يساعدهن حقًا». فجأة تحطم الجو الدافئ والمريح للحديث العابر. صرخت جودي: «أنا لا أستطيع تصديق أنك قلت هذا! أنا لم أكن أبدًا كئيبة! فقط لأنني أعاني من يوم سيئ تريدين تحويلي إلى مريضة نفسية؟!!». لقد فوجئت

إيفا تماماً بهذا الانفجار. لم يكن لديها أدنى فكرة لماذا كانت ردة فعل ابنتها قوية جداً تجاه اقتراحها الطيب.

أكبر من الحياة

وكما في المثال السابق، فإن جودي كانت تطلب مواساة أمها تجاه ما كانت تشعر به وقتها، وردت إيفا بتعليق عام على حياة ابنتها. ليس لدي أي فكرة عن صحة قول إيفا بأن ابنتها لديها ميل للكآبة، ولكني أستطيع رؤية أن إيفا حريصة ومهتمة بابنتها لدرجة أنها تتمنى أن تجد أي طريقة لمساعدتها وأنها تعتقد أنه من الممكن لعقار الكآبة أن يقوم بالمهمة.

وبمعنى آخر من المحتمل أن إيفا أعطت موضوع تعاسة جودي حجما أكبر من الطبيعي لأنها كأم تحرص وتهتم بابنتها أكثر من أي شخص. وأستطيع أن أرى أيضا أنه في حين من الممكن أن يكون اقتراح جودي مزعجًا إذا أتى من شخص آخر ولكن أن يأتي من أمها فإنه سيكون بمثابة حكم كريه، لأن رأي الأم يحمل وزنًا عظيمًا. وهكذا فإن غضب جودي هو خوفها من أن تكون أمها على صواب: ماذا لو أن شعورها بالحزن لم يكن فقط حاله طبيعيه من الكآبة بل دليل على الذهن غير المستقر؟

وبسبب انفجارات كهذه، فإن الكلام مع البنت الراشدة أو الأم من الممكن أن يشعرك كأنك تتخللين حقل ألغام. حتى وإن تفهمت إيفا انزعاج ابنتها من نصيحتها، فقد وجدت ردة فعل ابنتها فظة وفادحة وغير مناسبة تماماً. فكرت أمها: حسناً إنك لا توافقينني الرأي بأنك تميلين إلى الكآبة أحيانًا ما المشكلة؟ بالتأكيد ما قلت لم يكن بهذا السوء!

عادة ما تكون ردة فعل البنت على كلام أمها غير مناسبة لأنها في الحقيقة هي ليست ردة فعل تجاه الكلمات المقولة، ولكن هي ردة فعل لوزن رأي أمها عليها. هذه المعلومة يجب أن تجلب الراحة للأمهات اللاتي لا يفهمن حجم غضب بناتهن، بالنسبة للبنت فإن الأم هي أكبر من الحياة، لذا فأي حكم يأتي منها فإنه قد يبدو كحكم بالمؤبد. قالت لي سيدة: «عندما كنت طفلة وأمي تغضب مني، كانت تصرخ وتقول: إنني أسوأ طفلة في العالم. وكنت أصرخ بالمقابل: أنها أسوأ أم في العالم. ولكن في داخلي كنت خائفة من أن تكون أمي على حق، وحتى الآن عندما أتشاجر مع زوجي، أو أشعر بأن أحدهم غاضب مني، فأنا أسمع صوت أمي وأفكر، ربما كنت في الحقيقة أسوأ طفلة في العالم، والآن أسوأ شخص بالغ في العالم».

إن التعميم المؤلم من الممكن أن يكون أيضاً من البنت للأم. كانت ماريلين حرفيه تعتز بعملها ونفسها. كانت تقوم بصنع سترات من قماش مميز. كانت قد صنعت بنفسها خليطاً من الأقمشة. ولكن مؤخراً كانت تجري تجارب على الاستخدام الكلي لهذه الأقمشة. من خلال عمل تعليقات للحائط تمزج بين الألوان والأنسجة بطريقة فريدة. كانت فخورة بسلسلتها الجديدة ولكنها أيضاً كانت قلقله حيال ردود فعل زبائنها، وبالفعل فأول مرة تعرض فيها هذا العمل في المعرض تفاجأت ماريلين من قلة بيعها لهذه التعليقات. ذكرت مارلين لابنتها هذه التجربة وقد كانت تتوقع تشجيعاً مثل: «إن تعليقاتك جميلة يا أمي، أنا متأكدة من أن الزبائن سوف يأتون». ولكن بدلاً من هذا قالت ابنتها: «من الأفضل لك أن تضعي اهتمامك بصنع السترات فقط فأنت تعرفين أنك بارعة في عملها وأن هذا ما يرغب به المشتري». شعرت ماريلين بأنها تلقت ضربة على رأسها. لقد

كان مدمراً لنفسيتها أن تسمع من ابنتها أنها كانت قد ضيعت كل هذه الساعات في محاولة للتطوير في اتجاه جديد. وقد كان مؤلماً أكثر لأنه آتٍ من ابنتها. لقد شعرت كما لو أن ابنتها أرادت إيلامها وقد عرفت بالضبط الهدف الجيد لتفعل هذا، الجانب الأكثر حساسية من حياتها.

توقعات عظيمة

إن الواجهة السلبية لعلاقة الأم والبنت ممكن أن تنتج من أهمية الواجهات الإيجابية. إن البنات والأمهات يتوقعن وغالبًا ما يحصلن على الكثير من بعضهن. حتى إن إحباطهن يتوسع عندما لا يحصل هذا. إن الممثلة ليف أولمان عبرت عن الخيال الذي تتوق إليه كل ابنة ـ والذي من الممكن أن تحصل عليه أحيانًا في بعض الأوقات ـ قالت أولمان واصفة علاقتها بابنتها «مهما حصل لها هي تعرف أنها تستطيع أن تأتي إلي وأنه لن يتم الحكم عليها، وأنني سأساندها وأساعدها».

وهناك تعبير مشابه على الأقل لبعض الأمهات وهو أن بناتهن سوف يفعلن أي شيء يطلبنه. وقالت إحداهن: «إن أمي دائما تخبرني كم كانت تفعل من أجل أمها. أنا أعلم أنها تفكر أن علي القيام بالشيء نفسه تجاهها».

هذه التوقعات نفسها هي التي تطلق شرارة الاستياء. تلقت ماكوت اتصالاً هاتفياً من ابنتها بوني، قالت بوني: «مرحباً أمي.. لقد عرفت للتو أن علي الذهاب لاجتماع في ولاية سان فرانسيسكو الجمعة المقبلة. وستان «زوجها» يستطيع أخذ إجازة الجمعة المقبلة لذا قررنا أن نأخذ إجازة طويلة. وفكرنا في أن نترك ابنتنا جونا معك خلال عطلة الأسبوع، حسنا؟» شعرت ماكوت بضيق في صدرها: «يا إلهي يا عزيزتي» قالت ماكوت بتردد:

«إن يوم السبت هو يوم عيد ميلادي وقد خططنا أنا ووالدك للاحتفال بطريقة خاصة». تحبس ماكوت أنفاسها. إنها تكره أن تخيب ظن ابنتها وبالكاد ترفض طلب ابنتها الدائم للعناية بابنتها الصغيرة جونا.

بوني بدت متفاجأة وقالت: «أنت لا تكترثين لأعياد الميلاد أبداً».

قالت ماكوت: «إن هذا صحيح، ولكن هذا العيد سيكون الخامس والستين؛ لذا فهو يبدو خاصًا قليلاً». بوني تقبلت الأمر ولكن ماكوت تشعر بالذنب كلما ترفض لابنتها طلبًا. هي نفسها تعتقد كما قالت الممثلة ليف أولمان: أنها يجب عليها التواجد لمساندة ومساعدة ابنتها عندما تحتاج إليها. ومِنْ ثم تغتاظ من بوني لجعلها تشعر بالسوء فقط لأنها تود أن تحتفل بعيد ميلادها.

إن استياء الابنة أيضاً يأتي من عدم مقدرتها على إنجاز ما هو متوقع منها ـ توقعات أمها منها وتوقعاتها من نفسها. كانت شارون تتكلم مع أمها عبر الهاتف، وأمها تسأل: إذا كانت تستطيع مقابلتها للغداء. شارون تعلم كم تعاني أمها من الوحدة بعد موت والدها وقلبها يتألم حقًا لأمها، ولكن ليس لديها الوقت الكافي في جدولها المزحوم لتستطيع التزاور مع أمها يومًا بعد يوم. إن عليها أن تقول: لا، لا تستطيع أن تقابل أمها للغداء. ولكن لأنها تعتقد أن عليها ذلك فإنها تشعر بشعور صعب جدًا ـ وينتهي بها الأمر إلى لوم أمها لجعلها تشعر بهذا الشعور.

حبلاً يربط بيننا

يتضح لنا من خلال مواقف كهذه كيف أن شعور الانزعاج بين الأمهات والبنات ينتج من عدم فهم كل منهما لواجباته أو واجبات الآخر. والرابط

القوي بينهما الذي يجعلهما تشعران بعمق بمشاعر الطرف الآخر. وهذا بالتأكيد كان الحال بيني وبين أمي.

عندما كانت أمي في التسعينيات من العمر كانت تعيش مع والدي في دار التقاعد. وفي يوم من الأيام وصلت للبيت ووجدت صوتها على جهاز الرد الإلكتروني للرسائل. كانت قد قرأت مقالاً في جريدة وعلقت بصوت مليء بالعفوية والحماسة: «لقد استشهدوا بكلامك!» إن الحماس الذي كان في صوتها جعل قلبي يتوسع. وضربت رقم هاتفها شوقًا لسماع سعادتها مباشرة. ولكن عندما ردت على الهاتف سمعت صوتًا مختلفًا، تحية موجزة و ومختصرة، تقال بطريقة باردة وعديمة الحياة. عرفت مباشرة أنها لم تكن سعيدة.

سألتها: «ماذا هناك؟ هل أنت بخير؟»

«نعم. أنا بخير». قالتها بصوت يدل على أنها ليست بخير. «حسناً ما الذي فعلته اليوم؟» سألتني بنغمة متبلدة.

أعطيتها رداً نموذجياً: «عملت على كتابي». ولردي هذا أعطتني رداً نموذجياً أيضاً «أنت تعملين كثيراً. يجب أن تأخذي بعض الوقت للترفيه». هذه الجملة جعلت قلبي يغرق، كما يفعل دائماً، وقد بدا الأمر كما لو أني لا أحب الحياة التي اخترتها لنفسي. وردي الاعتيادي كان بأن أقول محاولة الدفاع عن نفسي: «أنا أحب العمل، بالنسبة لي العمل هو ترفيه». وهذه المرة كانت جيدة فقد استطعت أن أقول لها إنني عملت شيئاً «للترفيه» اليوم. قلت: «ولكننا خرجنا اليوم بعد الظهيرة، قابلنا بعض الأصدقاء وذهبنا للمتحف التذكاري. ثم ذهبنا لتناول العشاء».

لم تقل حتى «جيداً، إنني سعيدة أخيراً لأنك تقومين بفعل شيء للترفيه عن نفسك». ولم تسأل «كيف كان المتحف التذكاري؟» قالت: «كيف هو؟». قلت: «إننا لم نفعل شيئاً. فقط تناولنا طعام العشاء وذهبنا للطابق الثاني». شعرت بصدمة تماماً كالتي أشعر بها دائماً عندما تكون أمي غير سعيدة. إن خيبة أملها في حياتها جعلتني أشعر بالاتهام، كما لو أنني كنت أنا من خيب أملها، الشخص الذي أخفق في منع تعاستها.

لطالما شعرت بأن هناك حبلاً يجري من صدر أمي إلى صدري، لأن عواطفها كانت تنتقل إلي مباشرة. عندما اتصلت بها علمت من طريقة ردها أي نوع من العواطف أنا على وشك أن أمتص. إذا ارتفع لحن صوتها عند ردها: «آه، أهلا يا حبيبتي. كيف حالك؟» فإن روحي ترتفع. ولكن روحي تهبط إذا كان لحن صوتها بارداً وهي ترد: «مرحبًا. كيف حالك؟» أنا أعلم الآن أنني لست المرأة الوحيدة المربوطة بهذا الحبل. وأن هذا الحبل يمكنه توصيل التيار من كلا الجانبين. عبرت سيدة وأم لابنة بالغة عن هذا كالآتي: «أنا دائمًا أستطيع أن أميز من نبرة صوتها كيف تشعر. ولو كانت تشعر بقليل من الحزن فإن هذا يحزنني أيضا. أنا أستطيع التمييز من أول ثوانٍ للمكالمة. وعندما كانت تمر بظروف الطلاق كانت حزينة تقريبًا كل الأوقات، لذا كنت أنا نفسي حزينة طيلة الوقت».

هذه الأم لديها ولدان أيضاً إلى جانب البنات ولكن انتقال العواطف هذا يحدث فقط مع الابنة. لقد سمعت بالشيء نفسه من كثير من النساء اللاتي تحدثت إليهن: إذا كان عندهن أولاد وبنات فإنهن يشعرن بمزاج بناتهن بسهولة. وعواطف بناتهن غالبًا ما تؤثر على عواطفهن والبنات يشعرن الشعور نفسه تجاه أمهاتهن مقارنة بالآباء. إن حدة التأثر هذه

تتفاوت، بالرغم من أن بعض الأمهات أخبرنني أنهن يشعرن بالحزن إذا شعرت بناتهن بالحزن. ولكن هذا الشعور لا يبقى لمدة طويلة بعد انتهاء الحوار. إن أختي اللتين هما من الأم نفسها عرفا مباشرة مزاج أمي، ولكن لم تتأثرا بكلامها كتأثري. إن مقياس التأثر يتفاوت على نحو كبير بحسب الشخصية الفردية وطبيعة العلاقة بين الأم وابنتها. ولكن داخل هذا النطاق فإن الميل إلى امتصاص عواطف الآخرين عادة ما يكون الأقوى بين الأمهات وبناتهن.

أخبرتني أيضاً أمهات لبنين وبنات بأنهن يتكلمن مع البنات أكثر من البنين، تماما كما تتحدث كثير من النساء مع صديقاتهن لمرات عديدة ولوقت طويل.

إن التحدث الدائم هو سبب آخر في جعل العلاقة بين الأمهات والبنات مشحونة أكثر من العلاقة بين الأمهات والبنين، وبين الآباء والبنات أو الآباء والبنين. أبي كان يسأل بصدق وحيرة عندما تتحدث معي أمي على الهاتف لساعات أو مع واحدة من أخواتي: «ما الشيء الذي تجده النساء للتحدث عنه؟» بالنسبة للبنات والأمهات أو أي امرأتين متقاربتين فإن الحوارات المشتتة والطويلة يمكنها أن تكون من أكثر الجوانب التي تضفي على العلاقة الرضا والسرور. هي سبب كبير لما يجعلهم متقاربين. ما إذا كن يتشاركن في نقاش جدي لمشكلات شخصية أو ببساطة يخبرن بعضهن عن تفاصيل حياتهن اليومية. إن الحوارات الدائمة أيضاً تمنح الفرصة لامتصاص العواطف السلبية، وهي طريقة نتعلم من خلالها كيف نميز بين هذه العواطف من إشارات دقيقة مرسلة عبر كلمات، ومن خلال نغمة الصوت ومن خلال الصمت.

إن الحبل الخفي الذي ينقل العواطف من شخص لآخر يفسر أيضاً لماذا لا تريد كثير من النساء أن يطلعن أمهاتهن عما يدور في حياتهن ـ خصوصاً عن أي شيء مهم من شأنه أن يسبب إزعاجاً وقلقاً. مثلاً كمرض معين أو مشكلة في العمل. كنت دائماً سريعة في إخبار أمي عن محنة صغيرة، حتى أتلقى لوم قلقها. ولكني لم أخبرها بمشكلات جدية لأني لو فعلت فأنا متأكدة بأني سأسمع منها جملة «كنت قلقةً عليك طيلة الليل» إلى اليوم الثاني. إن مشكلاتي أصبحت مشكلاتها، لم أكن أريد لأمي الحرمان من النوم ـ أو لم أكن أريد الانتقال من حالة طلب الراحة إلى حالة وجوب إعطائها.

خارج المأزق

إنه من المستحيل معرفة حقيقة الضربات اللفظية التي تتبادلها الأمهات والبنات أحياناً هل هي مقصودة أم لا.ربما في بعض الأحيان تدرك كلاهما – وإلى درجة معينة – أنها تقذف بعنف، ولكنها تعتقد أنها سوف تفلت من الموضوع من خلال صراخ المعاني الحرفية. إن شخصين قريبين من بعضهما لهذه الدرجة ولهذه المرحلة من المؤكد أن لهما تاريخًا طويلاً في الألم ومن خلاله يسعيان وراء الانتقام الرقيق. ولكن أيضاً لديهما تاريخ مشترك في الفكاهة، قصص مشتركة ولغة مشتركة. إلى جانب الاهتمام العميق بسعادة بعضهما البعض. الشيء الذي يجعل الحوار بدوره أكثر راحة وألفة من التكلم مع أي شخص آخر. إن فهم طريقة عمل ـــ الرسالة وما وراء الرسالة في الحديث ـ والطريقة التي يتفاوضن بها حول الاتصال والتحكم والألفة والتطفل، كلها قادرة على توسيع الأوقات التي من خلالها تستطيع الكلمات والملاطفة والعناق تقليص الأوقات التي من خلالها تخدشنا.

لأن الكلام يلعب دوراً كبيراً في حياة النساء، فإن تَفَهم طريقة عمل الحوارات، وكيف لها أن تقود إلى الإحباط، وإيجاد طرق لتحسين هذه الحوارات، هي المفتاح لعلاقات مرضية أكثر وأقل إحباطاً بين البنات الراشدات وأمهاتهن. إن أعمق أمنية نتمناها كنساء هي أن ترضى عنا أمهاتنا وتفهمنا بناتنا. إننا نستطيع أن نقترب من هذا الهدف من خلال الإنصات للطريقة التي نتحاور بها وأن نتعلم كيف نتحاور مع بعضنا بطريقة جديدة.



2

أمــــي وشعـــري

الاهتمام والنقد

بينما كنت أقوم بزيارة والدي في ولاية فلوريدا، كنت أجلس مقابل أمي في غرفة الطعام عندما سألتني: «هل يعجبك شعرك بهذا الطول؟» ضحكت من السؤال. (عندما كنت أصغر وكانت أمي أقوى لكنت قد تألمت وغضبت). سألت باستغراب: ما المضحك؟ فسرت سبب ضحكي وقلت: أني خلال بحثي في هذا الكتاب قد أتيت على أمثلة كثيرة لأمهات ينتقدن شعر بناتهن. قالت أمي: «لم أكن أنتقد». إنه كان من الواضح أنها شعرت بقليل من الألم؛ لذا تركت الموضوع ينتهي. ولكني سألت بعد حين: «أمي ما رأيك بشعري؟» ودون تردد قالت: «أنا أعتقد أنه طويل قليلا».

أتت أم شيلا لزيارة ابنتها، وفي صباح أحد الأيام قالت بصفاء: «أحب شعرك عندما تمشطينه للخلف. إنه جميل جدًا هكذا». الآن يبدو هذا على أنه مديح. ومن الممكن أن يكون كذلك لو أنها بالفعل مشطته للخلف، ولكن شيلا اليوم قد تركت شعرها يتدلى على وجهها. إن مدح ابنتها حول طريقة تمشيط معينة بينما مشطته البنت بطريقة أخرى يدل على: «لا أعتقد أن شكل شعرك جيد بهذه الطريقة التي عليه الآن». وعندما ردت شيلا: «حسنا.. أنا مشطته بهذه الطريقة اليوم». فإنه من الواضح من نغمة صوتها بأنها منزعجة: «ما خطبك؟» سألت أمها وهي تشعر بشيء من الحرقة: «لماذا أنت حساسة للغاية؟».

إن الشكوى التي سمعتها كثيراً عندما كنت أتحدث إلى نساء عن أمهاتهن هي: «إنها دائما تنتقدني». وأكثر شكوى سمعتها من الأمهات عن بناتهن الراشدات هي: «أنا لا أستطيع فتح فمي. إنها تأخذ كل شيء كانتقاد». إن هذه الشكاوى هي الجانب المعاكس من الآخر. إن الأمهات والبنات يتفقن على معرفة الحوارات المزعجة ولكن لا يتفقن على من بدأ بنغمة الخلاف. أيضاً لديهن وجهات نظر مختلفة حول المعنى الخفي الذي تتضمنه كلماتهن. حيثما تجد البنت النقد فإن الأم ترى العناية، إنها فقط كانت تقدم اقتراحاً، تحاول المساعدة. وتقدم النصيحة والبصيرة. وفي كثير من الأحوال فإن كليهما على حق. سواء أكان منظر شعر شيلا يكون أفضل إذا كان ممشطاً للخلف أم لا فإن أمها مقتنعة بأنه أفضل. وماذا لو كانت الأم على حق؟ أليس متوقعاً.. أم أنه لم يكن واجباً على الأم أن تتأكد من أن ابنتها تبدو على أفضل صورة. ألا تكون الأم مهملة إذا لم تستخدم خبرتها الكبيرة في الحياة لمساعدة ابنتها وتحسين حياتها بما في ذلك مظهرها. إنها روح الاهتمام والعطاء التي من خلالها تتسلل رسائل ذات معانٍ خفية للاهتمام والعناية. ولكن أي إبداء للرأي وتقديم مساعدة من الممكن أن يفهم على أنه انتقاد. وعلى كل فإن الأم التي تعتقد أن ابنتها لا تخطئ فليس لها حاجة في تقديم المساعدة. وعندما تزيد الاقتراحات والنصائح وتصبح دائمة وكثيرة، فإن الابنة ستشعر كما لو أن أمها تراها على أنها مشروع إصلاح، وهذا يجعل البنت تشعر بالتحطيم. إن كلاً من الرسائل ذات المعنى الخفي للاهتمام أو للانتقاد موجودة، وكلاهما يشتري العملة اللفظية نفسها. ولكن كل طرف من الحوار يرى جانباً واحداً منها؛ لذا تشعر البنات على أنهن قد تم انتقادهن بغير عدل،

بينما تشعر الأمهات أنه تم اتهامهن بغير عدل. عندما تنفجر الأعصاب فإن كليهما يشعران بالعمى الجزئي، لا الأم ولا البنت ترى الكرة السريعة آتيه باتجاهها لأنهما تركزان على كرتين مختلفتين.

بالنسبة للبنت فإن الانفجار يأتي دائماً بسبب الانتقاد. لكن الحال مختلفةٌ بالنسبة للأم، فهي ترى أن الانفجار أتى من لا شيء، لأنها تؤمن في قلبها بأنها لم تقصد الانتقاد أو الجرح؛ لذا فهي تتألم مما تعتبره هجوماً مفاجئاً من ابنتها.

ما الذي تنظرين إليه؟

إن الانتقاد غير المباشر ليس السبب الوحيد الذي يجعل النساء تفزع من تعليقات الأمهات على تصفيف الشعر. فإن أي انتباه لمظهرهن ـ حتى ولو كان مديحاً ـ يمكن أن يجرح لأنه يلمح لنقص الانتباه فيما تراه البنت من أهم الجوانب في حياتها. تروي امرأة أنها استبقت بلهفة رؤية فخر أمها عندما رأتها تظهر على قناة «سي ـ سبان» مع رئيس الولايات المتحدة خلال حفل لتوقيع وثيقة. حيث من السهل علينا رؤية السبب الذي جعل تعليقات أمها تنطبع في ذاكرتها. وكان هذا تعليقَ الأم: «لقد بدوت كما لو أنك كنت تحتاجين تعديل قصة شعرك».!! حقا لقد خطر بذهني أنه ربما اقتبست هذه المرأة هذا الكلام. وقالت لي أخرى: إنها استخدمت هذا الأسلوب للرد على تعليقات أمها: «إنني آسفة.. إن الاهتمام الأبدي لموضوع شعري منهك للغاية». أعتقد أن موضوع الشعر واحد من ثلاثة مواضيع كبيرة تميل النساء من خلالها إلى انتقاد أو ـ نصح ـ بناتهن، والموضوعان الآخران هما: الملابس والوزن.(وبالنسبة لبعض الناس هناك رابع، ولكن من نوع مختلف جدا: كيفية تربيتهن لأطفالهن). وها هنا مثال للثاني.. الملابس.

عندما تم نشر كتابي «أنت فقط لا تفهمني». ذهبت في رحلة لنشر الكتاب والتي تضمنت من خلالها الظهور على محطات للتلفاز في كثير من المدن. وقد طلبت من أصدقائي الذين يعيشون بهذه المدن تسجيل هذه المقابلات على شرائط فيديو. وعندما انتهت الرحلة عرضت الأفلام على والدي. أمي كانت فرحة للغاية لرؤية ابنتها على التلفاز، ولكنها كانت مستاءة أيضاً لأنني لبست اللباس نفسه في كل المقابلات. ولم يهدئها معرفة أن المشاهدين لن يشاهدوا كل المقابلات سوية. وبعد ذلك، وكلما ظهرت على التلفاز الوطني علمت بأني لو لبست اللباس نفسه لكنت سأسمع عنه من أمي، ولكنت سأستحق مدحها لو لبست شيئا آخر. إذا كانت أمي منزعجة لإهمالي بملابسي فقد كان مصدر انزعاجي هو عدم تركيز أمي واهتمامها في ما كنت أقول ووضع جل اهتمامها بمظهري. إن هاجس أمي حول ما لبست على شاشة التلفاز كان خاصاً بحاله معينة. ولكنها متعلقة بالجزء الثالث من الثلاثي الكبير وهو ـ الوزن ـ وهو من المواضيع التي يمكنها أن تطفو على سطح الحوار من خلال موقف بسيط. وهنا واحدة من أكثر الحكايات ندره وغرابة.

جيني كانت واحدة من النساء أخبرتني بأن الالتزام بحمية غذائية كان الشغل الثابت في عائلتها. عندما كانت في المستشفى لولادة طفلها الأول، تلقت زيارة من أمها والتي -وللأسف- حضرت بينما جيني بدأت بتناول وجبتها الأولى منذ ثلاثة أيام. وبينما رفعت جيني قطعة من الخبز ممسوحة بالزبد إلى فمها ظهرت أمها أمام الباب وقالت: «أود رمي هذه القطعة من يدك». ولا شك أن تعليق أمها قد فجر للتو تجاوباً أتوماتيكياً

بدلاً من إجابة متعمدة. ولكن في هذه اللحظة بدت ولادة الطفل لجيني أحق بالاهتمام من حجم السعرات الحرارية التي كانت تأكلها.

بالرغم من أن كثيرًا من النساء ذكروا تعليقات عن ملابسهن وأوزانهن عندما يتحدثن عن انتقاد أمهاتهن. لكن الموضوع الذي ظهر باستمرار وبشكل مشوق وبطرق عدة هو ـ الشعر ـ.

قصة شعر

عندما تنتقد الأم شعر ابنتها ـ أو جانباً آخر من مظهرها. فإنها تقول ما يراه الآخرون في ابنتها والذي لا يعبرون عنه. فأنت لا تقترب من غريب وتقول له: «أنا أستطيع رؤية أنك لم تغسل شعرك هذا الصباح. أنت ستبدو أفضل بكثير لو فعلت». ولكن الأم ـ التي ستصبح البنت الراشدة في المستقبل ـ فإنها تشعر بأنها مؤهلة وملزمة بالتعبير عن هذه الملاحظات بكلمات.

لماذا إذا النقد (أو المدح على أي حال) دائماً مركز على الشعر؟ إن هناك إشارتين تظهران في تعليقات النساء. قالت ميغان: «إن أمي أخبرتني بأنه من غير اللائق لمهنتي أن أترك شعري طويلاً». «والمزعج جداً هو أنني أتلقى مدحاً كثيراً لشعري والباقون يعتقدون أنه جميل. إلى جانب زوجي أيضاً». زادت ميغان بحماس: «وفي الحقيقة.. فإن أمي تكره شعرها! إنها دائما تحملق في المرآة، تحاول أن تسحبه للأسفل أو تحاول نفشه أو إبعاده عن وجهها أو تقريبه من وجهها».

سحب الشعر للأسفل، نفشه، تحريكه باتجاه الوجه و إبعاده عنه ـ إن ملاحظات ميغان تجعلنا نركز الانتباه على المأزق الذي يواجه كل النساء:

الخيارات الكثيرة التي وضعت كل النساء في مأزق حيال طريقة تصفيف الشعر. إن لدينا نحن النساء الكثير من الخيارات، حيث إن أي خيار منها سوف يكون بالتأكيد ليس الأفضل. وهذا يفسر لماذا تواجه كثير من النساء وقتاً صعباً في إيجاد طريقة قص شعر تعجبهن. ولماذا تثار نوبة من القلق الشديد بدلاً من التفاؤل فقط لمجرد التفكير بقصة الشعر.

كنت أتأمل هذا بينما أركب عربة قطار المسافرين من محطة القادمين في المطار إلى المحطة الرئيسة. فحصت بنظري النساء اللاتي كن في العربة معي، فكان منهن المتزوجة والعازبة التي اعتقدت أن شعرها من أجمل ما يكون، كل واحدة منهن في نظري كانت ستبدو أفضل لو أنها صففت شعرها بطريقة أخرى. وبالطبع فأنا لن أخبرهن بهذا أبدا ـ ولكن ربما قد تفعل أمهاتهن. ثم تفحصت بنظري الرجال في عربة القطار، كل واحد منهم كان قد صفف شعره بطريقة غريبة، لكن لم يكن أي واحد من الذين تفردوا بالمنظر الغريب أقل من الأمثل. (حاولي تجربة هذه الاختبار في أي مكان عام حيث يتجمع الغرباء: محطة الباص، الطائرة أو سوق الأغذية).

إن البنين والرجال يستطيعون أن يختاروا تصفيفه شعر غريبة لو أرادوا: يستطيعون أن يتركوا شعرهم ليطول إلى أكتافهم وربطه للخلف، يتركونه طويلاً وغير ممشط، أو حلقه تماماً. وإن فعلوا فإن هناك فرصة جيدة لقول بعض الناس -حتى أمهاتهم- بأنهم سيبدون بشكل أفضل لو مشطوه بطريقة أخرى. ولكن معظم الرجال يتبنون طريقة تصفيف خاصة حيث لا تلفت الانتباه ولا التأويل. كما فعل كل الرجال الذين كنت أنظر إليهم ذلك اليوم. وهذه نعمة ورفاهية لا تمتلكها البنات والنساء؛

ولهذا فعلى الأرجح أنه مهما صففنا، وبأي طريقة مشطنا شعرنا، فإن الآخرين ـ حتى أمهاتنا وبناتنا عندما يكبرن ـ سيعتقدن بأنه كانت هناك وسيلة أفضل للتسريح والتصفيف.

عبرت ميغان عن كره أمها لشعرها بمزاج كالتالي: «إنه ليس كما لو أنها اختصاصية في الشعر وعندها الأجوبة حول كيفية الطرق التي يجب أن يكون الشعر عليها». ولكن صورة أم ميغان وهي تحاول أن ترتب شعرها بالطريقة الصحيحة، بينما تنظر للمرآة يلقي الضوء على سبب آخر يجعل الأمهات يملن إلى انتقاد شعر بناتهن، وهو تعريض بناتهن للتدقيق نفسه الذي خضعن له أنفسهن. إن نظر أم ميغان إلى وجه ابنتها بالطريقة نفسها التي تنظر بها إلى المرآة يوحي بأنها ترى في ابنتها انعكاساً لصورتها. وهذا يفسر انتقاد كثير من الأمهات لمظهر بناتهن وسبب تمني البنات بأن تتوقف أمهاتهن عن هذا. إن إحساسنا بأن أمهاتنا يرين انعكاساً لأنفسهن من خلالنا؛ يصطدم مع أمانينا بأن يرانا الآخرون كأنفسنا. وفي الوقت نفسه فإن تدقيق أمهاتنا يبدو أنه يؤكد على أسوأ مخاوفنا: وهي أننا ناقصون على نحو مهلك.

عين الأم: العدسة المكبرة العظيمة

لوقت طويل كانت أمي تركز انتباهها بجنون على خطأ وجدته في منظري. بدأ الموضوع عندما عرضت عليها صورة مقربة لوجهي. حدقت في الصورة بحدة وشدة وقالت: «انظري.. هذه العين أصغر». ثم التفتت لكي تتفحص عيني. «نعم إنها كذلك». قررت هذا وقد بدت مهتمة: إن العين اليسرى أصغر. من المستحسن أن تذهبي للطبيب ليلقي نظرة عليها. إنه من الممكن أن يكون إشارة إلى مرض الغدة الدرقية. نظرت مرة أخرى

إلى الصورة وقد استطعت رؤية هذا أيضاً. إنه الوجه نفسه الذي طالما امتلكت، ولكن عيني اليسرى قد أصبحت أكثر ملامحي بروزاً. لمدة طويلة بعد ذلك في كل مرة أنظر فيها للمرآة كانت عيني اليسرى تبدو كما لو أنها في منتصف وجهي. وخلال هذه المدة كل مرة زرت فيها أمي كانت تمسك بذقني وتتفحص وجهي: «إن هذه العين هي حقاً أصغر. هل تحدثت إلى طبيب بخصوص هذا الموضوع؟» كيف لي أن لا ألاحظ هذا الخطأ لكل هذه السنين؟ أو هل هو شيء جديد، أعراض لمرض ربما؟ لقد سألت الطبيب الذي بدوره سخر من سؤالي، وأكد لي أن غدتي الدرقية بخير ـ وعيني أيضاً. وفي آخر الأمر انتهى موسم عيني الصغيرة وعيني اليسرى مازالت أصغر، ولكنها توقفت عن كونها عائقاً كبيراً في حياتي. فقط عندما ركزت عليها أمي كانت قد أصبحت عيباً كبيراً. قد ظهرت وتطورت وأصبحت أكثر بروزاً لأنها كانت محط تركيز واهتمام أمي. إن تحديق الأم كان أشبه بعدسة مكبرة بين أشعة الشمس واللهب. إنها تركز أشعة النقص على لهيب وشوق ابنتها لاستحسان أمها لها. والنتيجة حريق هائل.

بالنسبة لموضوع عيني اليسرى، فإن اهتمام أمي كان مفرطاً إن لم يكن مجنوناً. أنا بالتأكيد شعرت بهذا. ولكن ما رأيته أنا كانتقاد لمظهري كان دون شك اهتماماً وقلقاً من أمي على صحتي. ومن الممكن ـ إن لم يكن في هذه المرة في مرات أخرى ـ أن أعاني فعلاً من مرض دقيق للغاية لم يكشفه إلا تفحص أمي القريب.

عندما أحاول أن أرى هذا من وجهة نظر أمي، أذكر أنني في وقت ما كنت أنا التي أحمل عدسة المكبر وقد كانت أمي الشخص الذي تدربت عليه.

كثير من البنات وخصوصاً في أيام المراهقة يخضعن أمهاتهن لتدقيق قاس، قالت أم بكآبة: «إن ابنتي لا تحبني كثيراً. إنها تعتقد أنني بشعة، سمينة و غبية». لقد شعرت بالأسف لهذه الأم ولكن جملتها جعلتني أشعر بالإثم أيضا، لأنها ذكرتني بموقفي تجاه أمي عندما كنت بنفس عمر ابنتها. ولحسن الحظ فإن أمي عاشت لمدة طويلة واستطاعت أن تدير الطاولة باتجاهي. في سنوات مراهقتي كنت أنظر إلى بطن أمي المتدلي باشمئزاز، فقد كنت أقارن بينه وبين بطني المسطح باعتداد يجمع بين الارتياح والرضا النفسي، ومع أنني لم أفعل أي شيء للإبقاء عليه على هذا النحو. كنت فقط فتاه نحيفة بالطبيعة. وقد علمت أن أمي كانت نحيلة عندما كانت في عمري، ولطالما سمعت أنها كانت تزن 99 رطلاً عندما تزوجت، ولكن هذه الحقيقة لم تؤثر في الطريقة التي نظرت فيها إليها. وفي وقت لاحق في الحياة تغير جسمي كما تغير جسم أمي. وقد راقبت برعب كيف بدأ بطني بالبروز والانتفاخ. وخلال زيارة لوالدي وهما في آخر العمر وقفت بجانب أمي بينما كانت تجلس في كرسيها، والذي يعني أن منتصف جسمي كان على مستوى عينيها. نخست بطني بسبابتها، وقالت: «اسحبي بطنك إلى الداخل.» لقد تفاجأت تماماً وتألمت، ولكني شعرت أيضاً أنني كنت أستحق هذا، كنت أدفع ثمن عين الانتقاد التي طالما نظرت بها إلى أمي في سنين مراهقتي.

لماذا كنت تمشطين شعرها؟

انتبهت لنفسي في موقف آخر وأنا أعامل أمي بعين الانتقاد نفسها التي عاملتني بها. ولآخذ نظرة خاطفة على حافز أمي لفعل هذا. وفي

غضون كتابة هذا الكتاب، سألت أختي: إذا كانت أمي قد انتقدت شعرها؟ فقالت: «آه.. نعم لطالما قالت إنه قصير للغاية». فقلت: «لقد كانت دائماً تقول لي: إنه طويل جداً!» وعلى هذا ضحكنا سوية. ثم قالت أختي: «إن الشيء المضحك أن شعرها لم يبدُ جيداً أبداً. هل تتذكرين كيف كان يقف لجهة واحدة؟» فقلت: «آه أجل..» وضحكنا زيادة. لكني أدركت أني قد قلت لأمي أحياناً إن شعرها لا يبدو جميلاً. وفي آخر سنين عمرها كان أول ما أفعله عند زيارتها هو تمشيط شعرها وترتيبه. وقد كانت تفعل أختي الشيء نفسه. أدركت حينها أنني كنت أقدر هذه الأوقات كثيراً، فقد كنت أشعر بأن حبي لأمي يكبر وأنا أقوم بتمشيطه وتمليسه. كان هناك شعوراً حميماً للغاية خلال تناولي لشعرها، شعوراً محركاً يجعلني أشعر بثقتها.

وهذه الذكرى جعلتني أفهم السبب الذي يجعل كثيراً من الأمهات والبنات يتفحصن منظر بعضهن بهذه القوة. في جانب منه يبدو كتعبير عن قربنا من بعضنا، حيث إننا نستطيع لمس أجساد بعضنا والتكلم عنها، والتدقيق بها بحثاً عن الأخطاء بطريقة لا نفعلها مع أحد ليس بقريب. إن اللمس يلعب دوراً كبيراً في المودة والحب بين الأم وطفلها، و لمس الشعر هو جزء من هذه المودة. قد عاشت جدتي معنا إلى أن أصبحت أنا في السابعة من العمر. وعندما توفيت كانت أقرب الذكريات لنفسي هي الأوقات التي كانت تسمح لي ولأختي أن نفك لفة شعرها ونقوم بتمشيط شعرها الطويل والخفيف.

إن اللعب بالشعر طريقة معتادة بين البنات لإظهار المودة كصديقات. في دراسة حول خلاف الفتيات في سن المتوسطة، قامت عالمة الاجتماع دونا إيدير بسرد مناقشة قصيرة انفجرت بين بنات الفصل السادس اللاتي

كن صديقات عزيزات. وكان موضوع الخلاف هو أهمية ومعنى تمشيط شعر فتاه أخرى:

تامي تقول لهايدي : لماذا كنت تسرحين شعر بيكي بالأمس؟ ـ بيكي صديقة ثالثة ـ

- هايدي: لم أفعل.

- تامي: بلى كنت تفعلين.

- هايدي: لا لم أكن أفعل هذا.

- تامي: لقد كنت تمررين أصابعك في خصلات شعرها.

- هايدي: لم أكن أفعل.

- تامي: بلى كنت تفعلين.

- هايدي: لم أفعل يمكنك سؤال بيكي.

(تدخل بيكي إلى المكان)

- بيكي، هل كنت أمشط شعرك بالأمس؟

(تهز بيكي رأسها بالنفي).

- هل رأيت! ماذا قلت لك؟

- تامي: إذاً من التي كنت تمشطين شعرها؟

- هايدي: لم أكن أمشط شعر أحد.

- تامي: من الذي كان يمشط شعر بيكي؟

- هايدي: لا أدري. (توقف النقاش)

إن كل هذا الحديث عن «مَنْ يمشط شعر من؟» قد يبدو سخيفاً للغاية، حتى تدرك أن الرهان هنا يدور حول أعز ما تملكه هذه الفتيات من بضاعة في حياتهن الاجتماعية. حبال الصداقة التي يقضي فيها الفتيات في هذا العمر (وربما في كل الأعمار) بالتفاوض الدائم. عندما اتهمت تامي هايدي بأنها مشطت شعر بنت أخرى، فهي قد اتهمتها بخيانة الصداقة، فتسريح شعر باكي يعني أنها كانت قد اقتربت منها بالقدر غير المرغوب فيه. «إذا كنا أعز الأصدقاء فأنا الوحيدة فقط التي تستطيعين تمشيط شعرها.» بالنسبة لهؤلاء الفتيات فإن تمشيط شعر الأخرى يعمل تماماً كما يعمل التنظيف والعناية بالنسبة للقرود إذ لم يكن أكثر. إنها تعكس وتعزز حبال الاتحاد والقرابة.

خطرت على بالي دراسة إدير حول فتيات المتوسطة، عندما أخبرتني امرأة تدعى آيفي عن زيارة قامت بها لأمها. آيفي كانت منزعجة من تعليق أمها على طريقة تسريحها لشعرها، وأنها تحتاج إلى تحسين، وركضت لجلب الفرشاة وقليل من منعم الشعر لتحسينه في الحال. ولكن وفي الزيارة نفسها أدركت آيفي أنهت كانت تنتقد شعر أمها، وقد عرضت عليها تسريحه وتعديله. هي أيضاً استخدمت منعم الشعر، ثم قامت بلف شعر أمها الخفيف والأبيض. وعندما غادرت شعرت آيفي بالذنب لأن منظر شعر أمها الجديد بدا سميكاً وقاسياً. ولكن عندما تقابلتا مرة أخرى أخبرتها أمها كم كانت سعيدة لأنهما قد قاما بتمشيط شعور بعضهن. حتى إن الأم أخبرت أعز صديقاتها بذاك الموقف.

أتساءل لماذا رفضت آيفي أن تدع أمها تعبث بشعرها؟ وبعد مدة عرضت على أمها تسريح شعرها. ولماذا كانت أمها سعيدة، حتى وإن النتيجة كانت أقل من جيدة.

أعتقد أن السبب هو القرب، فعندما تكبر البنت فربما قد لا تريد القرب الجسدي الذي كانت تحصل عليه من أمها عندما كانت طفلة، وربما أمها أصبحت تتشوق للإمساك بهذا القرب. إنني أؤمن(وأتمنى) أن أمي شعرت بأن اهتمامي بشعرها كان يعكس ويعزز من قوة قرابتنا. ولكنني أراهن بأن يكون هذا هو قصدها عندما أبدت اهتمامها بشعري منذ البداية.

الحكم المخيف: الأم السيئة

بالرغم من أن ترتيب شعر أمي كان تعبيراً عن قربنا من بعضنا، فإنني في الحقيقة كنت انتقادية لشعرها، وفي المقابل كانت هي أيضاً. وهناك أيضاً سبب آخر يجعل البنات والأمهات يطلقن عين النقد على منظر بعضهن، وهو أن كليهما ترى أن الأخرى تمثلها أمام العالم. والنساء يحكم عليهن من خلال منظرهن بشكل ساحق. وهذا مهم للغاية بالنسبة للأمهات، لأنه ما إن تصبح المرأة أُمًّا حتى تتغير قيمها وتقديراتها، ويتمحور اهتمامها بشكل كبير في كيفية إتمام هذا الدور في عينيها وعين العالم. ومظهر الأولاد هو واحد من مقاييس كثيرة يحكم على الأم من خلالها. وهذا صحيح بغض النظر عن مدى نجاحها في حقول أخرى. وفي الحقيقة إذا كانت الأم ناجحة في ميادين أخرى فإن حاجتها إلى إثبات نجاحها في ميدان الأمومة يكون مهمًا للغاية، لأن كثيراً من الناس يتوقعون

مباشرة تقصيرها في واجبات الأمومة. عندما تعين شركة كبيرة مديراً جديداً كم مرة نسمع فيها أسئلة حول تأثر الوظيفة الأبوية لهذا المدير؟ تقريبا لا يحدث أبداً، إلا إذا كان هذا المدير امرأة.

آندريا جونغ أخذت رئاسة شركة أيفون للتجميل في عام 1999م. وفي عام 2004م للميلاد نقلت عنها مجلة «نيوز ويك» جملتها المفاجئة: «لم أكن أتوقع أبداً أن تكون عدسة المكبر على كيفية تربيتي لأولادي». ثم أكد المقال للقراء أن عدسة المكبر قد بينت أن آندريا لا يفوتها أهم مناسبات في حياة أطفالها. وهذا مثال آخر لمواقف كهذه فبعد نشر مارغريت ميد لكتابها الذي كان يدور حول والديها بعنوان «من خلال عين بنت». قالت مارغريت المتخصصة بعلم الإنسان - أنها طالما سمعت تعليقات حول إهمالها لابنتها، بينما كانت تسعى لبناء مهنتها كواحدة من أفضل العلماء المتخصصين في علوم الإنسان في وقتها. ولكن لم يسأل أحد عن سبب إهمال والد مارغريت لها في طفولتها، وتركه مسؤولياته الأبوية عند تركه للعائلة!! وبتقديم هذا المستوى من التدقيق فمن غير المفاجئ أنه حالما يكون للمرأة طفل فإن شعورها بأنها شخص جدير وكفؤ يعتمد على الابتعاد عن هذا الوصف المخيف «الأم السيئة»، ولتتمكن من هذا فهي تحتاج إلى رؤية أولادها ناجحين وسعيدين وعلى هيئة حسنة. لأنه لو كان هناك أي خطأ فستكون هي الملامة.

إلى مرحلة قريبة كان الاختصاصيون يلومون الأمهات على حالات يعاني منها أطفالهن ولكننا نعلم الآن أنها حالات لها أسباب بيولوجية. في مرحلة الخمسينات والستينات على سبيل المثال كان الناس يعتقدون بأن مرض التوحد يأتي من نقص الحب والعطف من جهة الأم والذي عرف بتلك المرحلة باسم « الأم الثلاجة» نظرية التوحد.

ولكننا نعرف الآن بأن التوحد له أصل بيولوجي، ومن المرعب معرفة أنه زيادة على اليأس الذي شعرت فيه الأمهات تجاه إعاقة أبنائهن؛ فإنهن حملن عبء هذه الإعاقة دون أساس لكل هذه الاتهامات وأنهن كن السبب بمعاناة أطفالهن. ومازال في وقتنا الآن ميل شاسع إلى تحميل الأم المسؤولية ـ وليس الأب ـ حيث تحمل الأم مسؤولية كل تعبير أو رأي أو اعتقاد يعتقد به هذا الطفل (أو عندما يصبح هذا الطفل شخصاً راشداً). والأطفال أنفسهم يميلون إلى حمل هذه النظريات. فواحدة من النساء علقت أنها مازالت تلوم أمها لأنها بعثتها إلى مخيم صيفي عندما كانت في الخامسة. ومن خلال استعادتها لأحداث الماضي أدركت أنه من الأكيد أن والدها كان له أثر كبير في هذا القرار أيضاً.

إذا كانت سوزان موشارت على حق في كتابها «قناع الأمومة» فإن كل أم قد عانت من لحظات شعرت خلالها أن الاعتناء وحاجة الصغار الملحة هي شعور غامر وساحق لدرجة أنها فقدت صبرها وتصرفت بطرق قد ندمت عليها لاحقاً. وأن شعورها بالذنب والخجل يزداد عمقاً بمعرفة أنها ليست وحيدة في هذه الخطيئة.

ولكل هذه الأسباب فإن كثيراً من الأمهات يشعرن بالاكتفاء والرضا بالعمل الذي يقمن به كأمهات. ظهر هذا واضحًا خلال تعليق سمعته من امرأة تكتب في زاوية في جريدة مدينتها. فقالت: إنها تميل لعدم الاهتمام بانتقاد الآخرين لكتاباتها. إنها تعلم بأن القراء ربما لا يوافقون على أخذها لهذه الموقع لكنها إذا قامت بدورها على أفضل وجه فإن ضميرها سيكون خاليًا من أي شوائب. ولكن أي انتقاد مباشر أو تلميح إلى دورها كأم فإنه يصل إلى الصميم.وفي هذا الحقل لا تستطيع أن تكون متأكدة أبدًا.

«ضعي قليلا من أحمر الشفاه»

إنه لشيء مثير للسخرية أن تكون عين الأم مشحوذة بالخوف من كونها لم تكن بالأم الجيدة، في حين تستطيع تمرير عين النقد نفسها إلى ابنتها عندما تصبح أماً. ومرة أخرى فإن الموضوع هو الشعر.

قالت الجدة -متحدثة عن حفيدتها وهي تعدو عبر الغرفة ممتلئة بالنشاط واللعب-: «سوف تبدو أجمل بكثير لو أنها فقط مشطت شعرها». انتصبت جيل بخشونة لأنها تذكرت كيف كانت أمها لا توافق على مظهرها عندما كانت صغيرة. جيل كانت توصف «بالبنت الصبي» منذ البداية، فهي لم تشارك أمها اهتمامها بالمظهر أبداً. كانت أمها دائمًا تحاول تمشيط شعرها، ثم عندما كبرت باتت تطلب منها أن تلبس لباس البنات العادي والتقليدي وأن تستخدم بعضًا من أدوات التجميل. «ضعي قليلا من أحمر الشفاه» كانت هذه واحدة من جملها. وسماع اللوم نفسه الآن لابنتها يعيد للذاكرة الاستياء العاجز والضعيف الذي طالما شعرت به جيل وهي طفلة.

إن سماع تعليقات أمها على مظهر ابنتها ذكرها بشعورها عندما لم تتقبل أمها مظهرها الصبياني. وأنها كانت تفضل الحصول على ابنة عادية وأكثر نعومة. جيل تمنت لو أن أمها ركزت على ما هو مهم وعظيم في داخلها، وليس على شكلها. كأن تركز على ما تفعل كعملها التطوعي ونجاحها المهني... والآن على طريقة تربيتها.

بالرغم من أنه لا يوجد سبب يجعلنا نفكر بأن أمها تعني كلامها بهذه الطريقة، ولكن جيل تسمع في كلام أمها سبق امتلاك للمظهر، والتلميح

إلى أنها لا تقدر إنجازاتها الأخرى. لذا عندما تقول أم جيل بأن ابنتها سوف تبدو أجمل لو مشطت شعرها فإن جيل تنكمش خوفا من خيبة الأمل المزدوجة فأولاً: إن أمها تبدو مهتمة بشعر الطفلة الصغيرة أكثر من اهتمامها وتقبلها لشخصيتها، وهو الشيء الذي تعتبره جيل مهمًا جداً وثانياً: يبدو أنها تلمح إلى أن جيل قد أخفقت في كونها أماً.

إن مظهر الأطفال ليس الشيء الوحيد الذي تشعر كثير من النساء بأن أمهاتهن يرفضنه ويعلقن عليه، ولكن أيضاً (المعنى المتضمن) حول تربيتهن لأطفالهن.

فمثلاً جريس لا تحدد فقط الوقت الذي تقضيه مع أمها، بل أيضًا تحدد المواضيع التي يتحدثن فيها. بدأت بنت جريس بالعمل بوظيفة صغيرة بينما تحاول التخطيط لحياتها. وفي كل مرة تزور جدتها تتساءل الجدة:« متى سوف تستقر هذه الفتاة؟» و«هل ستبدد حياتها سدى بهذا الشكل؟» وهذا لا يساعد جريس ولا ابنتها. إنه من الطبيعي أن تعتقد الجدة أنها تناصر ابنتها وتتشاركان في موقف، وهي تتوقع أن تتفق معها في الرأي. وبالطبع فإن جريس تتمنى أن ترى ابنتها وهي تجد المكان المناسب لها في هذا العالم. ولكن جريس تضع نفسها مع ابنتها، لذا فأي استنكار أو رفض للفتاة الصغيرة هو تلميح لرفضها هي أيضاً. إن سماع طريقة النبذ والصرف التي تكلمت بها الجدة عن الحفيدة آلم جريس، ولتتجنب هذا الألم؛ فإنها تلتزم وتتأكد من عدم ذكر ابنتها أمام والدتها. وهذا الاضطرار إلى تجنب الحديث عن موضوع غاية في الأهمية هو الذي يبني الحواجز بينهن.

انتظار الموافقة

روسو يونغ في الثانية والعشرين من العمر تعمل صانعة أفلام، قد انتهت لتوها من العمل على فيلمها. علقت أم روسو على الفيلم قائلة: «إنني لا أعتقد أنهم يحبونه!» تنهدت روسو وقالت: «هل تتوقفين عن الاهتمام بم يفكرون؟» لم استطع التوقف عن الابتسام وأنا أقرأ هذا. إذ كنت متفاجأة من أن موافقة واستحسان الأم مازال ثمينًا بالنسبة لروسو، بالرغم من أنها في الثانية والعشرين، إذًا ماذا ستقول لو عرفت أنه سيكون كذلك وهي في الثانية والأربعين والثانية والستين؟، هذا إذا كانت محظوظة لأن تكون مازالت أمها على قيد الحياة وهي في هذا العمر. حتى بعد ذهاب أمها فإنها على الأرجح سوف تفكر تلقائيًا عندما تصنع فيلما: «يا ترى ماذا سيكون رأي أمي فيه؟»

إن البنت تود أن تشعر بأن أمها فخورة بها، وأن ترضى عنها. لذا فأي دلالة على أن هذا الرضا أقل من « كامل» سيكون مؤلماً. والألم يتحول بسرعة إلى غضب. ولكن كيف تستطيع الأم (أو أي أحد) أن تفكر بأن ابنتها كاملة، وأنها تقوم بكل شيء على أكمل وجه في كل لحظة؟ إن كل إنسان يمكنه أن يتحسن في بعض النواحي وفي بعض الأوقات. والناس الأقرب لنا هم الأكثر عرضة لرؤية نواحي النقص فينا، وهذا يعني أنه كلما كانت الأم أقرب لابنتها رأت فرصًا للتحسن، لأنها تريد أن ترى أمورها تتم بطريقة جيدة. ولكن أي شيء تقوله لابنتها يجلب الانتباه، ويفهم على أنه ضعف، وهذا عكس الرضا.

إذاً فقد كان أي تلميح بعدم الرضا يغضب البنت، إذًا كم هو مزعج للأم بأن ترى بوضوح ما الذي على ابنتها فعله، وما الذي عليها تجنبه.

إحدى السيدات أخبرتني بأنها تعلمت الابتعاد عن إسداء النصائح لابنتها البالغة، ومع ذلك فهي تجد ذلك صعبًا للغاية، لأنها كما قالت: «أنا لدي حكمة أفضل من الكثيرين الذين تسمع لهم ابنتي». وسواء كان حكم الأم صحيحًا أم لا، فهي تعتقد بأنه صحيح. وهذا مصدر للإحباط.

وفي هذا الصراع المستمر بين الأمهات والبنات، فإن كليهما يرى قوة الأخرى ويتغاضى عنها. يكون للبنت ردة فعل سريعة تجاه الرضا أو عدمه لأن أمها تلوح كعملاق. وحقيقة أن رأي الأم مهم جدًا بالنسبة للبنت ويعطي الأم قوة كبيرة. ولكن الأم غالبًا تداوم على محاولة التأثير في ابنتها، وتحديدًا لأنها لا تمتلك السلطة التي كانت تمتلكها عندما كان أطفالها صغارًا في الوقت الذي كانت تستطيع توجيه أي تهديدٍ لهم. وما أن يكبر أطفالها فهي لا تستطيع التخلص من المخاطر بنفسها فعليها إجبارهم على ذلك. إن تكرارها المستمر يأتي نتيجة من شعورها بالضعف لأنها لا تستطيع التحدث عن هذه المخاطر بطريقة أخرى. وحيثما ترى الابنة القوة فإن الأم تشعر بعدم القوة.

سألتني إحدى السيدات خلال برنامجي على المذياع: كيف أستطيع إخبار ابنتي التي تبلغ الخامسة والثلاثين أن عليها إنقاص وزنها بخمسةَ عشر رطلاً؟» وأجبتها: «إنك لا تستطيعين». وزدت: «إنه ليس عليك فعل هذا. إذا كنت تعتقدين أن على ابنتك فقدان خمسة عشر رطلاً، فهي على الأرجح تعتقد أن عليها فقدان عشرين. ليس هناك أي شيء تقولينه سيجعلها تحاول بقوة أكثر لفقدان الوزن، هو فقط سيجعلها تشعر بالاستياء أكثر حيال الوزن الذي تود فقدانه».

أنا لا أشك أبدًا أنه من الصعب على المرأة المتصلة أن تحجم نفسها من التعليق على وزن ابنتها الزائد، خصوصًا مع كل الحديث الذي يدور حولنا هذه الأيام حول المخاطر الصحية للوزن الزائد. إن هناك ضرورة ملحة عندما تدرك الأم (أو البنت مستقبلاً) مخاطر الصحة والسلامة.

انتبهي لخطواتك

سالي شعرت أن أمها تنتقد زوجها عندما ذكرتهم مع كل زيارة أن عليه قطع شجرة الدردار الميتة في ساحة المنزل، خشية أن تقع وتصيب أحدًا بمكروه. (في آخر الأمر وقعت الشجرة ولكنها لم تصب أحدًا). وأن عليه تغيير العتبة المهترية خوفا من أن تزل قدم أحدهم. (في الحقيقة لم يحدث هذا أبدًا). بالطبع أي أحد سيعتبر هذه التذكيرات المستمرة مزعجة. ولكن تخيل القلق الذي تحملته أم سالي في كل مرة ترى فيها هذه الأخطار قريبة من الأشخاص الذين تحبهم وتخشى على سلامتهم. وخيبة الأمل التي شعرت بها لأنهم لم يباشروا بالتصليح البسيط لمنع الخطر.

إن عدم تفهم البنات لعمق قلق أمهاتهن على صحتهن وسلامتهن ربما يتضح عندما تنقلب الصورة وتكبر الأمهات في السن وترفض تقبل نصيحة البنات. وتنقلب وظيفة الحديث.

انزعجت لورين عندما أصرت أمها - ذات الأربعة والثمانين عامًا - على السفر وحيدة لتقضي العطلة مع ابنتها التي تعيش في نورث كارولينا. كان هذا فقط بعد بضعة أشهر من قيام الأم بعملية جراحية كبيرة للقلب. وعندما أصبح واضحًا أنها لن تستطيع أن تقنع أمها بالإقلاع عن هذه الفكرة قالت لها: «كل ما أطلبه منك الآن أرجوك... أن تشتري هاتفًا

جوالاً». ولكن الأم لم تفعل. استمرت لورين بالحديث: «حتى أني سمعت نفسي أقول لأمي: أنني لا أود نقاش هذا الموضوع». وردت الأم: «لن تستطيعي إجباري على فعل هذا». وربما يكون هناك عبرة للطرفين في النهاية السعيدة. فقد قامت أم لورين بالرحلة بدون حوادث وتعلمت كيف تحب الهاتف الجوال الذي قد اشترته لورين هدية لأمها.

ونهاية أقل سعادة تتلخص في تجربة ترودي التي شجعت أمها لتأخذ الكالسيوم وأدوية أخرى مقوية للعظام، وأن تحذرها خوفًا من أن تقع وتتعرض للكسر كحال كثير من النساء في سنها. ولكن أمها تجاهلت نصيحة ابنتها مقتنعة بأن عظامها قوية. تخيل فزعة ترودي عندما وقعت أمها وكسرت وركها بينما كانت تحمل طاولة صغيرة وتنزل الدرج. إن كثيراً من المسنين ـ تمامًا كما صغار السن ـ لا يشعرون بأنهم عرضة للخطر وليس هناك شيء ممكن قوله لتغيير رأيهم. تمامًا كما أنه لم تتغير قدرة الصغار على الفهم بسبب لوم ونصح أمهاتهم.

ليس كل القلق والاهتمام خطيراً وملحاً كما هو جلي هنا كالسلامة والصحة. ولكن في كثير من الأحوال فإن الأم (أو البنت أو في حالة الكارثة ـ أم الزوج ـ) ترى أن هذه التحسينات مطلوبة في بيت الابنة. في الداخل والخارج.

مثلاً روبيرتا انكمشت عندما حدقت أمها في فرن الغاز في مطبخها رافعة الوعاء الحامي للشواية لترى هل تم تنظيف فتات الخبز من تحتها ـ والذي بالطبع لم يكن قد نظف.

في حالة بولا فإن الجدال كان حول تزيين المنزل، وصفت زيارة أمها لي: «دخلت إلى غرفة الجلوس الرئيسة ولم يكن أحد بالداخل ولكن عين

الصقر تطوف من حولنا، فقالت: «هل تحتاجين مساعدة في الزينات؟» بولا رأت هذا على أنه تطور، لأن أمها في الماضي كانت إذا دخلت غرفة الجلوس تبدأ بتغيير الأثاث بنفسها. وتعلمها كيف عليها تغيير الأشياء. ومنذ بضع سنين حدث بيننا انفجار. فقد كنت أثرثر، وأخبرتها بكل الأوقات التي قد أزعجتني بها بفعل أو قول. انزعجت أمي كثيراً مما قلت وقالت: «حسنا.. الآن لن أتفوه بشيء». وكانت هناك نظرة عميقة على وجهها. بولا اعتقدت أنه مر وقت طويل منذ ذاك الانفجار، وعندما سألتها أمها هل تودين المساعدة كان ذلك مؤلماً، ولكن أقل من أن تقوم أمها بتحريك الأثاث بنفسها. بولا كانت فخورة بنفسها عندما وضعت حداً سريعاً من خلال الرد ببساطة: «كلا شكراً». لأن تزيين المنزل هو تماماً كتسريح الشعر وطريقة اللبس دائمة التغيير. هناك أساليب كثيرة تتبعها النساء في هذه الميادين. فالمرأة المخلصة لمبادئ فريقها النبيل سوف تتبع أساليب مختلفة عن أساليب أمها ومستقبلاً (مختلفة عن أساليب ابنتها). لذلك تجد كثيراً من النساء أنفسهن في منتصف العمر وسط محنة، حيث إنهن ينتقدن بناتهن الصغيرات أو الكبيرات، وينتقدن أيضاً أمهاتهن الكبيرات في السن.

مثلاً: «مارا» فنانة، وتملك نظرة مقاومة وعداوة للحياة، فعندما كانت طالبة قررت هي وزميلاتها ألا يقمن بحلاقة أو تنظيف أرجلهن، فقط ليبرهن ويثبتن حريتهن واستقلالهن من مطالب المجتمع الملحة. وبعد مدة طويلة كانت قد أبقت على هذه العادة رغم توقفها عن التفكير بهذه الطريقة. ولكن أمها لم ترض أبداً عن هذا، بالنسبة لها فإن النساء اللاتي لم يقمن بتنظيف الشعر من أجسادهن كن ببساطة غير جميلات، تجاوزن

البشاعة. لذا رفضت أم مارا أن تأخذها إلى مسبح النساء الخاص لأنها ستكون محرجة من ابنتها. وهذا لم يكن كل شيء، فمارا أيضاً كانت لها مشكلة مع ابنتها، وابنتها بدورها لا تود الظهور مع أمها.

تحول سريع

علاقة الأمهات بالبنات علاقة مليئة بالمخاطر، إنها أشبه كما لو أنه كان للأمهات غدد تحسين نشطة دائماً وللبنات غدد رفض نشطة أيضاً. إن البنات في الحقيقة يزدن من ردة الفعل لأي إشارة دقيقة أو متخيلة لعدم رضا الأمهات عنهن. والأمهات في المقابل يزدن من محاولة التأثير على البنات، وهذا يشمل مساعدتهن على التحسن. ولهذا تظهر الصراعات من لا شيء. وهنا مثال حول حدوث أمور كهذه:

فمنذ ذهاب برندا إلى الجامعة وهي تحظى بعلاقة جيدة مع أمها، فقد نمت بينهما علاقة صداقة. ولكن مازالت ردة فعل برندا سريعة وقوية عند شعورها بعدم رضا أمها. وهذا يمكنه أن يحول الحوار الودي والعادي إلى حوار شائك. كما الوردة التي تكشف عن شوكها فجأة.

في يوم من الأيام وبينما الأم وابنتها تتشاركان في حوار سريع من النوع الذي يعبر عن العلاقة ويوطدها بين النساء، وكان الحوار عن الحياة والصداقة. وفي خلال الحوار اشتكت برندا من صديقتها ماري وقد وافقتها أمها الرأي ـ محاولة أن تساندها ـ ثم قالت برندا: «إن ماري تحبك كثيراً. أنا لم أقابل والديها أبدًا». وبدا رد أمها بريئاً للغاية: «نعم إن هذا غريب، فهي تبدو كما لو أنها لا تريد أن تعرفنا عليهم. أستطيع أن أدعو ماري ووالديها للشواء». وفجأة تغيرت نغمة الصوت، وأصبحت برندا منزعجة: «حسنا يا أمي.. ـ قالت هذا وبصوتها شيء من الحدة ـ أعتقد

أن هذا سيكون غريبًا بعض الشيء، فماري ستشعر بالإهانة بدعوى كهذه، فهي في الثانية والعشرين».

ماذا حدث هنا؟ من أين جاءت نغمة الانزعاج هذه؟ ماذا قالت الأم حتى تفهم البنت أن الأم كانت تحاول إهانة صديقتها؟ إن برندا كانت تشتكي من صديقتها ماري نعم، ولكنها عندما أكملت الحديث وقالت: إنها لم تقابل والدي ماري أبداً» فهي قد انتهت من الشكوى وانتقلت إلى موضوع آخر. ولكن أمها كانت مازالت في الموضوع، لذا قد فسرت ملاحظة برندا على أنها شكوى إضافية. ولكن تعليق الأم الآتي كان يعني المساندة لشكوى ابنتها، فلمحت الأم:«نعم... ماذا بها صديقتك؟ لماذا لم تجعلك تقابلي والديها إلى الآن؟ ماذا تخبئ؟» بدت برندا هنا مشوشة، فهي تسمع الانتقاد الجديد عن صديقتها ماري (التي لم تود إظهارها للعيان) على أنه انتقاد لا مباشر لنفسها. إذا كان لديها صديقة تخبئ شيئا ما منها- إذا لابد أن هناك شيئاً خطأ في برندا. لذا ردت بأنه لا بد أن يكون هناك خطأ في أمها لتفكيرها بترتيب لقاء بينهم.

إن البنت ـ ذات الثانية والعشرين عاما ـ تنظر لنفسها على أنها كبيرة بما فيه الكفاية، ولهذا شعرت بالإهانة. مسكينة الأم فقد كانت تحاول مساندة ابنتها والوقوف إلى جانبها، ووجدت نفسها تنتقد فقط لأن ابنتها أخطأت فهم نواياها الطيبة.

كلمات بسيطة

ربما تكون حساسية برندا زائدة من انتقاد أمها، لأنها قد أصبحت مستقلة حديثاً. وصداقتها مع أمها مقارنة بعلاقة الأم وابنتها التي كانت

بينهن مازالت جديدة. ولكن برندا ليست منزعجة بالضرورة من سماع عدم الرضا والرفض في التلميحات أو في المعاني الخفية من كلام أمها أكثر من الكلمات نفسها. كثير من النساء يخبرنني أن ما يجدنه محبطاً في كلام أمهاتهن هو عادتهن في المراوغة: «إنها لا تقول أبداً ما تعنيه». ولكني عندما سألت عن مثال لهذا كن دائماً تقريباً يربطن بين أشياء قد فهمت كطريقة غير مباشرة للنقد. وأنا أتوقع أن المراوغة هي التي تفور في الصدر أكثر من النقد نفسه. إن الدراسة العرضية للملاحظة أو التعليق تبدو على أنها تناقض الهدف من النقد وتفشل في الاختفاء. فإن مكر النقد عادة يأتي متنكراً في جلد النعجة البريئة للمراوغة.

وبمعرفة عمق شوق البنت لرضا أمها، إضافة إلى خبرتهم الطويلة في الحديث مع بعضهن، فإنه قد يبدو من الغريب أنهن يتكلمن مع بعضهن بنظام مشفّر. تخيلي أماً تقوم بزيارة ابنتها وبمجرد دخولها للمنزل تبدأ بالنقد: «إنه يبدو كما لو أن لا أحد يسكن هنا». هل هذا نقد؟ ومن وجهة نظر شخص غريب فإنه قد يبدو نقداً. ولكن بالنسبة للمرأة التي أخبرتني عن هذا المشهد فقد كان في الحقيقة مدحاً لنظافة المنزل وتدبيره. وفي ذلك الوقت شعرت الابنة بالسرور لأنها كسبت رضا أمها. وبنفس النموذج فإن أكثر الجمل براءة يمكن أن تفهم على أنها انتقاد. قالت إيفلين لابنتها الكاتبة الحرة و أم لطفلين-: «أنا لا أعرف كيف باستطاعتك عمل كل هذا بنفسك؟» إن هذا يبدو كمديح؟ لويس لا ليس بالنسبة لابنتها. فإن لويس تسمع هذا على أنه تلميحا كالتالي: «إنه ليس عليك أخذ الكثير من المسؤوليات، يجب عليك التركيز على كونك أماً لأطفالك». ليس من المؤكد ما إن كانت تفكر إيفلين بهذه الأفكار الانتقادية أم لا، عندما قالت هذا

لابنتها. إن في أذهاننا راداراً خاصاً مضبوطاً ومعدلاً لالتقاط أي إشارة للرضا أو عدمه، إنها تستطيع التقاط أكثر التلميحات دقة للرضا أو الانتقاد، أو أي ملاحظة بريئة كبراءة سرب من الطيور الطائرة في السماء.

إن المراوغة أو اللامباشرة إن كانت مقصودة أو حقيقية هي بمثابة وسيلة نقل للنقد في فضاء القضايا الثلاث الكبار: «الشعر، والملابس والوزن». إن قول الأم لابنتها: «أعتقد أنه ليس عليك ارتداء هذه الملابس في عملك». تجعل ابنتها تجفل لأنها تعلم أن أمها لا تحب ذوقها في اختيار الملابس. ملاحظة أخرى من أم لابنتها «هل تحتاجين فعلا هذا الفستان؟» ولكن البنت على علم أن أمها تقصد أن عليها إنقاص بعض الوزن. ومن ثم فإن هناك الشعر...هذه المعضلة دائمة الوجود.

أم كيم مقتنعة بأن شعر ابنتها يكون جعداً وسميكاً ومنتفخاً كالفرو عندما يكون نظيفاً. ولكنه يتدلى بجانب وجهها بطريقة مسطحة وباهتة عندما لا يتسنى لها الوقت لغسله. «مسطح وباهت هنا هو وصف تقريبي لشعر كيم الذي هو في الحقيقية ليس مستوٍ على الإطلاق». لقد تأذت كيم من تعليق أمها، ولكن الذي يدفعها للجنون هو عدم قول أمها ببساطة إن شعرك يبدو باهتًا، قومي بتمشيطه قليلاً، ولكنها تقول شيئاً كهذا «ما الذي سنفعله حيال شعرك؟» تفكر كيم، ولكنها لا تتفوه بشيء: «إننا لن نقوم بفعل أي شيء تجاهه، إنه شعري وأي شيء سأقرر فعله سأقوم به بنفسي». وبالرغم من أن غضبها مثبت على ـ الرسالة الخفية ـ في كلام، إلا أنها تألمت من كلمات أمها التي تركتها تشعر بأنها غير جميلة.

أم رواندا من النوع الذي تستيقظ مبكراً، ورواندا تعلم تماماً أن أمها لا توافق على أن يبقى أحد في الفراش إلى ما بعد الساعة الثامنة صباحاً. وفي يوم إجازة اتصلت أمها في الساعة التاسعة والربع صباحاً، وردت رواندا على الهاتف بصوت صباحي كسول، فقالت أمها: «أوه روني، هل أيقظتك من النوم؟» وفي الحقيقية هي لم تفعل فقد كانت رواندا مستيقظة لكنها كانت متمددة في السرير. ومن أجل أن تبالغ رواندا بإزعاج أمها ولرد الملامة، قالت رواندا: «نعم» في أحسن صوت مقرف يوحي بأنها فعلاً مازالت نائمة. فقالت أمها: «آه إنني آسفة جداً....» ولكن بدلاً من الاعتذار تحول كلامها إلى اتهام حين أكملت فقالت: «يا نوامة». لقد اعتقدت أن كل من في المنزل قد صحا مع الساعة التاسعة. وتختم الحوار بتلميحه من خلال نغمة صوتها الضاحك الذي يتضمن معنى آخر للحكم.

في بعض الأحيان تشعر الأم أنها تدخل المنطقة الخطرة، لذا فهي تفتح الموضوع بطريقة غير مباشرة، معتقدة بأنها تخطو برفق أوحتى بصمت. ولكن الأرض تحتها مضغوطة بشكل جيد لذا فإن ابنتها تسمع خطاها آتية، والمراوغة تزيد من غضب البنت. تصف إحدى تلميذاتي ردة فعلها في واجب مكتوب حيال طرق أمها غير المباشرة في الكشف عن عدم رضاها. وكما في حالة رواندا فإن نقطة الاتصال هنا هي النوم لساعات متأخرة، والساعة السحرية هي التاسعة. كاثي تصف صباحاً عادياً في منتصف الصيف، هي لا تذهب للجامعة في الصيف وبالطبع فقد سهرت ليلية البارحة لوقت متأخر.

قد أتى الصباح ولم أشعر به لأنني كنت نائمة ثم سمعت: «كاثي» مع مَدِّ صوتها بالحرف الأخير، إنها أمي تقوم بإيقاظي قبل التاسعة. إن صراخها من الدور الأسفل لا يزعجني، ولكن حافزها هو ما يجعلني أبدأ اليوم بغضب.

إن كاثي تدون أنها لم تنزعج من ـ الرسالة ـ وهي أن أمها تريد إيقاظها ولكن ما يفور في صدرها هو ـ الرسالة الخفية ـ في صراخ أمها بـ: «كاثي» فهي تعني أن اليوم قد انتصف وأنت ما زلت في السرير، وأن الحيوانات في المزرعة تحتاج إلى من يرعاها. ولهذا السبب يفضل الناس ساعة المنبه فأنت لا تتلقين ـ رسالة خفية ـ من المنبه ولكني أتلقى ـ رسائل خفية ـ من كلمة واحدة تخرج من فم أمي، (إنها ليست في الحقيقة كلمة فقط طريقة لفظها لاسمي).

بعد ذلك تستخدم أم كاثي حيلة مبدعة لتجبر ابنتها على النهوض، فقد قامت بإرسال كلاب العائلة لغرفتها. تكتب كاثي: «أستطيع أن أسمع وقع أقدام الكلاب في الغرفة، تثب وتنتظر مني أن أقوم وبالطبع أفعل». تعبر كاثي بأنها تكون أقل غضبًا عندما يكون مبعوث أمها الكلاب الصغيرة، ولكن الكلاب في ذاتها تحمل نفس الرسالة الخفية لصوت أمي. لأنها تعلم أن أمها أرسلتهم.

وفري المديح

عندما تكون الأم كثيرة الانتقاد، فإن عدم موافقتها الواضحة قد ينتج من إحساسها بالتربية المناسبة للطفل. فإن من المتعارف عليه بشكل واسع في كثير من الثقافات أن الكثير من المديح للطفل من الممكن أن يسبب بتورم عقله، أو (نفخ رأسه كما يقولون). في الحقيقة هناك ثقافات تحمل عادات تصدق أنه إذا جلبت الانتباه لأي نجاح أو حظ جيد فأنت تخاطر بتدميره من خلال جلب عين الشيطان عليه، لذا فإن مدح الصغار متجنب تماماً ودائماً. إن الثقافة التقليدية للإغريق تتبع هذه القاعدة تماماً كما الثقافة اليهودية الشرق أوروبية.

إن اللغة اليدشية ـ لغة يهود شرق أوروبا ـ تقدم عبارة عليك قولها لتدفع الحظ السيئ القادم مع المدح - خصوصاً لطفل -. سمعت هذا التعبير كثيراً خلال نموي في بروكلن. إنه يبدو لي كهذا: «كوناهورا» فسر لي اللغوي جيمس ماتيسوف على أنها في الواقع «كين ـ عين ـ أورا» والتي تعني كن عيناً عوراء أو لا لعين الشيطان. لم يكن لدي أي علم أنها متصلة بعين الشيطان ولا حتى والدي عندما أخبرتهما بمعلوماتي الجديدة فيما بعد. ونقلاً عما قاله ماتيسوف فإذا رأت امرأة من الجالية اليدشية طفلاً جميلاً فإنها ستقول عكس ما تفكر به: «يخ ما أبشعه من طفل!» هل هذا معقول؟ إن الذين يضحكون الآن على عقيدة الإيمان بعين الشيطان قد امتصوا عادة الحجم عن مدح أبنائهم. هل من الممكن لهذه العادة أن توضح لنا لماذا البنت التي لم تتلقَ المديح من أمها تتفاجأ فيما بعد من معرفة أن أم صديقتها فخورة بابنتها وأنها لا تكف عن الحديث عنها.

إن المنطق وراء قول التعبير «يخ ما أبشعه من طفل!» عن طفل جميل بالتحديد جعلني أفكر في الملاحظات المهينة التي تلقتها بعض النساء من أمهاتهن مثل: «إن لشعر أبريل تجاعيد ملتفة وجميلة، إنه لمن المؤسف أن شعرك ليس كشعرها». (هذا بغض النظر أن أبريل كانت تحاول دائماً فرد شعرها المجعد). أو ملاحظة كهذه: « ماذا يريد هذا الدكتور منك؟» «ماذا يريد مني؟! حسنا اتضح في نهاية الأمر أنه يريد زوجة». فقد انتهى بهم الأمر إلى الزواج. هذه التلميحات قاسية ووحشية وقد سمعت الكثير منها. ويبدو أنه من المحتمل أن النساء اللاتي خاطبن بناتهن بهذه الطريقة كن صدى لأمهاتهن أنفسهن، يقمن بتمرير نفس التمرس الذي قد تطور على مر الوقت، من الشعور بأن مدح الطفل من المحتمل أن يجلب له الحظ

السيئ. وأن حبس المدح يبني الشخصية. والشيء المتصل بهذا الاعتقاد أيضاً هو ازدراء أي فخر أو اعتزاز أو أي شيء من الممكن أن يفهم على أنه تهنئة للنفس، فليس على الطفل الفخر بنفسه وليس علينا مدحه.

كتبت الكاتبة إسميرالدا سانتيكو في جريدة «بويرتو ريكان» أن جدتها كانت تردد مقولة بالأسبانية كلما رأت من حفيدها تفاخراً وتباهيًا وهي: «تباه وتفاخر الآن.. فالدجاج سيصبح يخنة غداً». (اليخنة هي طبق معد على نار هادئة).

إن الثقافة السويدية أيضاً تثبط أي مدح للأطفال، وأي إشارة إلى تشجيع وتعزيز للنفس. إنه لمن الطبيعي لوالدين سويدين أن يثبطا محاولة واضحة لطفل بتكبير وتعظيم نفسه بسؤال بلاغي متكلف: « هل تظن نفسك شخصاً مهماً؟»

هذا العرف أو التقليد الثقافي ربما يساعدنا من نواحٍ أخرى في فهم و تفسير تعليقات محيرة ومؤلمة.

إن كارين وهي امرأة سويدية تعيش الآن في الولايات المتحدة عادت إلى الجامعة بعد خروج آخر طفل لها من المنزل للكلية. وقد أعدت رسالة الماجستير في العلاج والاستشارة النفسية. وفي يوم هاتفت والدتها لتسلم عليها، وذكرت خلال الحوار كم هو صعب الإعداد والدراسة للامتحانات النهائية. فقالت والدتها: «يبدو أنك تبالغين في الموضوع.» شعرت كارين بالصدمة، ولكنها حاولت أن تكون مرحة وتقلل من شأن نفسها فقالت: «حسنًا.. فأنت تعلمين عندما تعود امرأة في منتصف العمر للدراسة فإن عليها أن تحاول جاهدة.» ولهذا ردت أمها قائلة: «إلى أي مدى من

العمر تحسبين أنه يمكنك وصف نفسك بامرأة في منتصف العمر؟» وهذا السؤال المتكلف لم يلدغ فقط ولكنه آلم أيضًا فالآن أمها تقول لها: إنها أصبحت عجوز.

لماذا يا ترى أرادت أم كارين إهانة ابنتها بهذا الشكل، ربما أرادت مضايقتها فقط، ولكنها ارتطمت في جدار. ومن المحتمل أيضاً أنها سمعت في البداية شكوى كارين من كثرة دراستها ثم كثرة محاولتها ـ كنوع من التعزيز والتعظيم للنفس ـ ومن منطلق التوقعات السويدية بأن الأفراد عليهم التقليل من شأن محاولاتهم وإنجازاتهم، وأن على الآباء غرس هذه العقيدة في أبنائهم. ولكن لم يكن هدف كارين التفاخر على العكس، فقط اعتقدت أن ملاحظاتها كانت تدل على الانتقاص من قدرها. ومع ذلك فإنه من المفيد أن نفهم أن الأم ربما كانت تفرض نفس قواعد السلوك التي تشربتها من والديها، معتقدة بذلك بأنها تفي بمسؤوليتها تجاه تعليم ابنتها الأسلوب اللائق. ومن خلال هذا المشهد فإن الأم التي تفرغ روح صغيرها هي ببساطة تحرص على بناء شخصيته والاستمرار في هذا العمل بعد بلوغ الطفل سن الرشد هو ببساطة توفير التعديل والضبط الدوري للطفل.

إنها تريد إرضاءَكِ

من خلال سماع كل هذه الأمثلة فإن منا من يرى الاعتناء، ومنا من يرى النقد. هل هناك سبيل خارج هذه الأدغال؟ إن تفهم الدافع خلف النقد الواضح من الممكن أن يساعدنا. لكن هل هناك أمور يمكن للأم أو البنت اتباعها لكسر دورة الأذى والإساءة التي تبعدهن عن بعضهن؟ إن الحل الجلي هنا للرضا وتحسين هذا اللغز هو أن تقاوم الأمهات الدافع

إلى إعطاء النصائح وتقديم المساعدة والاقتراحات عندما تصبح بناتهن بالغات. سمعت هذا من كثير من النساء اللاتي ذكرن أنهن على علاقة جيدة ببناتهن الراشدات. واحدة ذكرت أنها تعلمت هذا الدرس من ابنتها: «لا تعطيني النصيحة إلا إذا طلبتها.» « ولا تلمحي بالنصيحة أيضاً». (وربما لا تستطيع الأم الوفاء بهذا ولكنها بالتأكيد تستطيع المحاولة.) وأم أخرى علقت قائلة: «إنني أعض على لساني كثيرا حتى لا أتكلم.. أنا متفاجئة من أنه لا ينزف». و فوق ذلك علقت أخرى:» إنها لا تريد نصيحتك.. إنها تريد رضاك ومباركتك».

ولكن ماذا لو أن الأم لم تستطع إعطاء رضاها؟ إن هناك أوقاتًا حيث يكون هذا التصرف غير مسؤولٍ تماماً، فلكل أم قد ندمت على فتحها فمها، هناك أم قد ندمت على إبقائه مقفلاً، وأنها فشلت بتحذيرها، أو أنها حذرتها من الإصرار على تصرف قد رأت فيه خطورة عليها. (والشيء نفسه بالنسبة للبنات عندما تكبر أمهاتهن في السن). كيف تعلم الأم أنه من الأفضل أن تصمت لتتجنب التلميح بالنقد. ومتى يكون من الضروري بالفعل التكلم لحماية البنت من الأذى؟ عندما يكون الأطفال صغاراً فإن الإجابة سهلة: افعلي ما تحتاجين لحمايتهم. وعندما يدخلون مرحلة المراهقة فإن الموضوع أصعب: أي محاولة لمساعدتهم عادة ما تغضبهم، لأن من أهم أمانيهم أن يثبتوا أنهم لم يعودوا يحتاجون إلى الحماية. ولكن ماذا عندما تصبح ابنتك بالغة وكبيرة ومسؤوليتك عنها قد انتهت رسمياً، ولكن في الحقيقة لا تلغى أو تخمد أبدًا؟ لذا فإن القرار بتقديم النصيحة لم يعد واضحًا.

«دوري» مثلا تلقت اتصال من ابنتها «زووي» تخبرها أنها قد زارت طبيباً جراحاً بشأن آلام ظهرها. وأن الطبيب قد نصح بإجراء جراحة، وقد حدد الموعد لذلك في الشهر المقبل. ذعرت الأم دوري من الخبر، إنها تعتقد أن على ابنتها أن تكون أكثر حذرًا حول القيام بفعل شيءٍ خطير كهذا. بالتأكيد إن على زووي أن تأخذ برأي طبيب آخر، وأن تجري بحثًا في سجل وأوراق هذا الطبيب. ولكن دوري أوقفت نفسها عن التعبير صراحة بهذه المخاوف. وبدلاً من هذا سألت: « هل أنت مرتاحة لفعل هذا؟» «أليس هذا سريعاً قليلاً؟» ـ وبالطبع فإن زووي سمعت من أمها تلميح عدم الرضا، وليس القلق والاهتمام — قالت: «أمي.. إنني في الأربعين من عمري أعتقد أنني أستطيع الحكم على هذه الأشياء بنفسي».

دوري تراجعت وتركت زووي تفعل ما تريد بطريقتها مع استمرار قلقها. إن القلق في بعض الأحيان على صحة شخص ما ملح للغاية حيث يدفع الأم إلى أن تقرر أنه ليس هناك أي مقدار من الغضب على ابنتها سوف يجعلها تعدل على رأيها.

أم أخرى «شيرلي» كانت فرحة أنها فعلت، كانت متأكدة أن على ابنتها بيكي أن تتأكد من بعض العوارض التي أحست بها، وقد ألحت عليها بكثرة لدرجة أن ابنتها بيكي توقفت عن الكلام معها لأسبوعين. ومع ذلك لم تيأس شيرلي. فقد اتصلت بزوج ابنتها في عمله وانتصرت عليه في التأكيد على أن ترى ابنتها طبيباً. في الحقيقة بيكي كانت تعاني فعلاً من مرض مهلك، وإصرار أمها قد أنقذ حياتها.

انتقال القوى العظمى

عندما كانت بيكي صغيرة لم يكن على أمها إقناعها بالذهاب إلى الطبيب إذا اعتقدت أنه تصرف واع. إنها ببساطة تقوم بعمل موعد مع الطبيب وتأخذ طفلتها إلى هناك. وهذه واحدة من الطرق التي تفقد فيها الأمهات قوتهن عندما تصبح بناتهن بالغات. بالفعل فعند انتقال البنت إلى منزلها الخاص فإنها تستطيع أن تقرر عدد المرات ـ وحتى متى ـ تتكلم مع أمها. وأيضًا عندما تنتقل البنت فإن الأم تصبح هي من يتشوق إلى رضا ابنتها الآن خصوصًا في مجتمعنا الذي يقدر الشباب النضر أكثر من حكمة العمر. إن الأم من الممكن أن تتألم من عدم رضا ابنتها على طريقة لبسها للملابس أو الحلي، أو على قرارها في مكان العيش أو الرجل الذي تريد أن تتزوج إذا كانت أرملة، أو حقيقة أنها أرادت أن تتزوج للمرة الثانية أصلا. وفقط ابنتها هي التي تستطيع إعطاءها الختم النهائي للموافقة. عندما تعاود التأكيد لها أنها قد أدت عملاً جيداً كأم. ومن خلال هذه الطرق فإن الأم تكون تحت رحمة البنت تماماً كما كان عليه أبناؤها عند صغرهم.

إذا كان للبنت أطفال فإن هذه طريقة أخرى تكون فيها الأم تحت رحمة ابنتها، حيث إن من أكبر المتع لحياة نساء كثيرات هي هدية الأحفاد. حيث الحب الوافر والحقيقي والمتعة والاهتمام لهذه المخلوقات الصغيرة وتلقي حبهم بالمقابل. ويأتي هذا الحب محررًا من عبء مسؤولية الأمومة. ولكن الوصول لهذا المصدر العزيز متحكم به من قبل الوالدين أو الأمهات بالتحديد. وهذا يعطي البنات الراشدات ـ أو زوجات الأبناء ـ قوة كبيرة

على أمهاتهن. إن جزءًا من امتناع بعض النساء عن إزعاج أو مضايقة بناتهن ـ أو زوجات أولادهن ـ هو الخوف من حرمانهن من رؤية أحفادهن أو تقليل الوقت الذي يقضونه معهم.

إنه تحد كبير للأم أن تتعامل مع كل هذه الطرق مع ضعف ونقصان سلطتها. إنه من المفيد تذكر أن ردة فعل البنت الشديدة تجاه كلمات أمها هو دليل قاطع على أن ما تقوله الأم مازال مهمًا لها. وأنه من المفيد أيضًا البحث عن طرق جديدة لممارسة السلطة. علقت امرأة تحظى بعلاقة ممتازة مع ابنتها فقالت: «أحاول صنع موقفي من خلال إخبارها كم تبدو جميلة وكم يبدو الأطفال رائعين». وهذه بالضبط الطرق التي تستخدمها كثير من الأمهات في محاولة طرح تعليقات التحسين. تخيل أن تقول أم بولا عند زيارتها: «إن منزلك يبدو جميلاً، لقد قمت بعمل رائع في تزيينه». (ومن يدري لو أنها اتخذت من هذه الطريقة عادة لها لربما تقبلت بولا عرض أمها بالمساعدة بشراء الزينات).

وتماماً كما النقد فإن مدح الأم لابنتها يحمل وزنه الكبير أيضاً. ورؤية أهمية هذا المدح يعيد للأم التأكيد والأمان بأنه مازال لديها دور مهم في حياة ابنتها. إن الأم المتألمة من اتهامات ابنتها لها بالنقد ربما تواسي نفسها بأن الذي يحدث من ابنتها من تضخيم للأمور هو في الحقيقة إعجاب. فسرت امرأة كيف من الممكن أن يحدث هذا عندما كانت مراهقة فقالت: «ربما لا يكون افتراض النقد هذا بسبب نقد أمك لك. إنني في الحقيقة لا أعتقد أن أمي أمضت الوقت الطويل في نقدي ولكن كثيرًا ما شعرت أنها فعلت لأنني لم أكن أصل إلى المقياس أو الدرجة التي هي عليها. لم أكن جيدة مثلها. لم أكن أدري أنني ماهرة في أشياء

كثيرة... بالطبع لقد كنت في الرابعة عشر». ولكن لأنها أرادت الوصول إلى مقياس أمها بشدة، «لقد كان في الحقيقة نوع من نقد النفس ولكن هذا صعب.. فتصورت أنها كانت تنتقدني».

ربما يكون هناك بعض الصواب في معرفة أن رفض البنت لأخذ نصيحة أمها على وجه الجدية من الممكن أن يعني الكثير من الحرية و«العتق» للأم. عندما تفهم الأمهات أن نصائحهن لم تعد مطلوبة أو مرغوبة ولم يعد يأخذ بها بجدية فهذا بدوره يرفع الحمل الثقيل عن أكتاف الأمهات والبنات معًا.

على الأمهات أيضاً معرفة أنه لو أخذت بناتهن بالنصائح وكانت حكمة الأمهات بمثال المرشد والمعلم لهن، فإنه قد يأتي الوقت الذي تندم فيه البنت على هذا النمط، وتنقلب عليه للجهة المعاكسة. قالت إحداهن: «لقد سمحت لأمي بأن تكون الحكم لما هو صواب أو خطأ في حياتي، وبدون وعي مني كانت قد برمجت أفعالي ومعتقداتي».

لقد شعرت هذه الابنة فيما بعد خلال حياتها بأن التنازل عن رأيها وحكمها لأمها يعكس قلة الثقة بنفسها. وبدأت باتخاذ موقف لا يجعلها تتطلب نصيحة أمها على الإطلاق، حتى لا تكون متأثرة كثيراً بها. لدرجة أنها قد رأت حلمًا ترى فيه تمثالاً لأمها وتقوم بتحطيم رأس هذا التمثال. صحت من نومها بشعور عتق وحرية.

إن الابنة التي لم تهتم كثيرًا برأي أمها لن يكون عليها الشعور بالحاجة إلى قطع رأيها رمزيًا حتى تشعر بالتحرير فيما بعد.

ربما يكون هناك درسٌ للأمهات في قصة نثانيال هاوثورنرز «علامة الولادة» تدور القصة حول رجل تزوج من امرأة بارعة الجمال وغاية في

الكمال إلا من علامة ولادة واحدة. وكان مهووساً في إزالة هذا العيب فأقنع زوجته المعارضة بإزالة علامة الولادة جراحيًا، ونهاية القصة الحزينة بأن الجراحة لا تزيل العلامة ولكنها تنتهي بقتل الزوجة.

إذا كانت الأم لا تستطيع مقاومة إلحاح الرغبة للتصحيح أو النصح أو تسديد الاقتراحات، هل هناك شيء تستطيع البنت فعله بنفسها؟ إن هناك شيئاً واحداً تستطيع الابنة تذكير نفسها به، وهو أن محاولات أمها لتحسينها هي دليل على اهتمامها الكبير بها وشعورها بأنها تفقد سلطتها.

وإذا فشل كل هذا فإن على الابنة اعتبار أن تدقيق أمها هو ثمن عليها دفعه مقابل وجود أمها في حياتها. وحالما تذهب الأم فإن الابنة ربما تجد نفسها تفتقد نزعة أمها إلى الانتقاد إلى جانب وجوه أخرى من شخصيتها.

أخذت نيكول نظرة خاطفة على هذا عندما خضعت أمها لجراحة طارئة، أخذت الطائرة من كاليفورنيا إلى فلوريدا فور سماعها الأخبار الخطيرة. بحثت عن غرفة أمها في المستشفى وهي قلقة جداً وأول شيء قالته أمها عندما دخلت الابنة الغرفة هو: «ما آخر مرة صبغت فيها جذور شعرك؟» هذا التعليق كان من الممكن أن يغضب نيكول في موقف آخر لو أنها لم تكن مريضة. لكانت فكرت: «أن هناك القليل من الشيب ظاهرًا. لماذا عليها التركيز على ذلك الآن». ولكن في هذه الحالة وجدت نيكول تعليق أمها عميقًا ومريحًا. إنه يعني أن أمها خرجت من الجراحة بجسد سليم ـ وشخصية سليمة ـ مازالت أمها هي نفسها.



3

لا تتجاهليني..

أهمية كونك أنثى

كنت أقوم بمقابلة مع صحفية عن نمو الحوار بين الأمهات وبناتهن وما يمكن أن يسبب من أسى وحزن. قالت بدون تفكير: «ما المشكلة بين الأمهات والبنات؟ لماذا تكون حواراتنا معقدة؟ لماذا علاقاتنا مشحونة؟ لماذا هي مختلفة عن الآباء والأبناء، أو الآباء والبنات أو الأمهات والبنين؟» كان علي التفكير لوهلة قبل أن يصاغ الرد الواضح: «لأن الاثنتين من النساء». ولأن كلاً منهما مهم للآخر. كل المكافآت والمآزق والأخطار المستورة التي تصف حوارات البنات والنساء مبالغ ومسهب بها. إن الكلام أو الحديث يلعب دوراً على نحو نموذجي أكبر وأكثر تعقيدًا في علاقة البنات والنساء منها في علاقة البنين والرجال. تميل البنات والأمهات أكثر من الأبناء والآباء إلى اللعب والتفاوض في علاقاتهن من خلال الكلام، وفي كثير من الحالات فكلما زاد الكلام زادت الفرص للتواصل المريح أو لعدم التفاهم وللمشاعر المؤلمة. و بالنسبة لوسط البنات والنساء فإن الحديث هو بمثابة الصمغ الذي يمسك العلاقات بعضها ببعض ـ وهو أيضاً المادة المتفجرة التي يمكنها أن تفجره إلى أجزاء.

إنه شيء مثير للفضول عندما ترى تطابق سلوك الحيوانات مع سلوكنا حتى ولو أننا لا نريد أن نرسم تشابه تام. ووفقا لجويس بولل - المديرة

العلمية لمركز أبحاث الفيل الأمبوسيلي في كينيا - فإن أنثى الفيل في البرية تتكلم أكثر من نظيرها الذكر، وهي أيضاً تفعل هذا لتتفاوض في العلاقة. ومن خلال بريد إلكتروني تلقيته من الدكتورة بولل كتبت تقول:

إن إناث الفيل ـ وليس الذكور ـ ثرثارة إلى حد ما، وفي بعض الحالات يستخدمن نغمات النداء (ولها أنواع عديدة) والتي تبدو أن وظيفتها توطيد وتثبيت العلاقات. وهذه الحالات تتضمن: التسوية بين الأصدقاء، التعبير عن التضامن مع اقتراح أو خطة فعل أو نشاط. الاستعداد المسبق للاعتناء بـ(خطف صغير، أو الترحيب بمولود جديد، أو إنقاذ صغير، أو التجاوب مع قلق الصغير أو حزنه). أيضًا اتخاذ الرأي والفعل الجماعي في الاستجابة لخطر خارجي والتحالف ضد مجموعة أخرى والهجوم أو الهروب من الخطر، والتعزيز من الرباط والتضامن مع الحلفاء خلال مناسبة اجتماعية مثيرة كالترحيب أو التزاوج.. إلخ.

أنا لا أقترح هنا أن سلوك الحيوانات مساوٍ للسلوك الإنساني، مع ذلك لقد دهشت لرؤية ملاحظات دكتور بولل أن إناث الفيلة ينطقن ويعبرن أكثر، بل ويستخدمن هذا التعبير لتوطيد العلاقات. وكما ذكرت سابقاً وكثيراً فإن الكلام والحديث بالنسبة للنساء والفتيات كمثل الصمغ الذي يمسك العلاقات ببعضها.

وبتفهم ميل النساء إلى استخدام الكلام لصنع وتعزيز الاتصال الاجتماعي فهذا يفسر لماذا كل بنت تشكو من:«أمي تنتقدني». والأم تشكو من: «إن ابنتي تتجاهلني». ولرؤية الدور الذي يلعبه الكلام في علاقات النساء، وكيف يؤدي بنا إلى هذا التذمر الواسع الانتشار، لنبدأ من خلال

النظر إلى لعب الفتيات الصغار وكيف أن استخدامهن للغة يختلف عن الأولاد الصغار.

تحدثي إلي

امرأة لها ولد في العاشرة وبنت في السادسة، لاحظت الفرق بين أطفالها عندما كانت تجهزهم للمخيم الصيفي. تقول: مع الولد «جيسن» ليس هناك أمتعة. أقول له: أي حذاء عليه انتعاله وإذا هو جاهز فورًا للخروج من الباب. ولكن مع «لوسي» فإن كل يوم هو قصة طويلة. تقول البنت: «لا أدري إذا كان علي أن أكون صديقة مع جودي أو ليزا في مرحلة السباحة». ومن ثم تستمر بالكلام بلا نهاية، تتحدث عن الوعود التي قامت بإعطائها في اليوم السابق؟ وماذا ستفكر جودي عنها لو أنها اختارت ليزا؟ كيف ستشعر ليزا لو أنها اختارت جودي؟» قد أثار هذا التباين فضول الأم وسألت ولدها جيسن «من الأولاد الذين يلعبون معك في فريق كرة السلة؟» أجاب قائلاً: «أنا لا أعرفهم، ولكني أحب اللعب معهم لأننا فزنا». قمت بسؤال هذه الأم: «ماذا لو كان على جيسن أن يختار صديق في حصة السباحة؟» قالت: «لقد اختار وانتهى، ليس هناك مشكلة، لا أسمع عن الموضوع أبداً». ولكني أسمع هذا الكلام من لوسي مهما يكن الشيء الذي تخطط للقيام به ذلك اليوم.

لوسي وجيسن ليسا فريدين، فقد وثق الباحثون الذين قاموا بدراسة الأطفال خلال اللعب أن صداقة البنات والبنين تختلف في هذه الطرق: حياة البنات، الاجتماعية مركزة بالطبيعة على صديقة قريبة، وتخلقن البنات وتقيس الصداقة القريبة والجيدة من خلال الكلام. ومن ثم فإن

البنات يستخدمن اللغة للتفاوض حول مدى القرب أو البعد الذي يردنه من البنات الأخريات. ولهذا فإن قرار لوسي حول اختيار زميلة لحصة السباحة مهم بل ومعقد.

في المقابل فإن البنين يميلون إلى اللعب خلال مجموعات كبيرة، وبالنسبة لهم فإن النشاط المبذول هو المركز. مجموعات البنين أيضاً أكثر زعامة، حيث يميل البنون غالباً إلى الاستيلاء والمحافظة على مرتبة عالية من خلال أخذ وسط المنصة، وإملاء الأوامر والأفعال على البنين الآخرين. ومن ثم فإن البنين يستخدمون اللغة للتفاوض حول مرتبتهم في المجموعة.

الكاتب مايكل جورين -والذي يقدم كثيراً من المحاضرات عن الاختلافات بين الجنسين - يشير إلى أنك لو أعطيت بنتًا صغيرة دمية فستقوم البنت عادة بالتحدث إليها، ولكن لو أعطيت الدمية للولد فإنه على الأرجح سيتظاهر بأنها شاحنة أو طائرة ـ أو يحاول خلع رأسها حتى يستطيع النظر إلى الداخل. ووفقا لمايكل فإن الدمية للصبي كمثال «شيء» لفعل شيء ما به، أما بالنسبة للبنت فإن الدمية تمثل شخصاً تتصل وترتبط به.

لاحظ الباحثون أيضاً أن البنين عادة يجمعون بين الكلام والفعل ـ أو يستخدمون النشاط الجسدي فقط ـ في الحالات التي تستخدم بها البنات الكلام فقط، مثلاً عند البدء باللعب مع طفل آخر. قام ولد بدفع طفل آخر والذي بدوره رد الدفعة وبسرعة كانا يتشاركان اللعب. ولكن هذا لا يصلح مع البنات فعندما يحاول ولد أن يدعو بنتًا للعب معه عن طريق دفعها فهي على الأرجح ستحاول الهروب منه. وقد صور هذا في رسم كاريكاتوري في صحيفة نيويورك حيث كان هناك بنت وولد ينظران إلى بعضهم والبنت

تفكر وتقول: «ترى هل أطلب منه اللعب معي؟» والولد يفكر ويقول لنفسه: «ترى هل أستطيع أن أرفسها؟»

عندما أقوم بفرض واجب على تلاميذي بمشاهدة الأطفال يتفاعلون فيما بينهم، فإنهم يلاحظون دائماً أن البنات يستخدمن الكلام حتى يبلغن الهدف، وفي المقابل يستخدم البنون الفعل للوصول إلى الهدف. مثلاً شرح إجور أورلوفيزكي الذي يعمل في الديسكوفيري زون، ماذا يحصل عندما يريد أكثر من طفل اللعب باللعبة نفسها. فقال: أراد ولد كبير لعبة كانت في يد ولد أصغر منه فحاول أخذها بالقوة. ولكن عندما أرادت البنت أخذ اللعبة التي كانت في يد البنت الأخرى حاولت إقناعها بتبديل اللعبة بلعبة أخرى أفضل. وقد استخدمت ريبيكا ذات الأربع أعوام هذه الإستراتيجية. ماريا المربية كانت تعتني بريبيكا وماريا تعلم مدى حب ريبيكا للعب والتظاهر بأنها أم وأن تأخذ مربيتها دور الطفلة. ماريا جربت شيئاً مختلفاً هذه المرة فقد قالت: أنا أريد أن أكون الأم. غضبت ريبيكا من هذا التطور ولكنها حاولت إقناع ماريا بتغيير رأيها فقالت: «هل أنت متأكدة أنك تريدين أن تكوني الأم؟ لأنه من الأكثر مرحًا أن تكوني الطفل».

إن هذه النماذج المغروزة في الطفولة تصبح الأساس للسلوك الذي يميز الحياة الاجتماعية للنساء الراشدات عن أقرانهن الرجال. وبما أن الكلام هو المادة التي منها صنعت الصداقة فإن معظم النساء يتحدثن لصديقاتهن كثيراً: أسبوعياً أو حتى يومياً. إن الرجل يحترم صديقه القريب الذي لم يتحدث إليه من شهور وربما سنين ورغم ذلك هو يعلم أنه لو احتاج إليه سيكون بجانبه. إن الرجل يلعب رياضة التنس مع صديقه

أو الجولف أو البولنغ ورغم ذلك ربما يعلم الشيء القليل عن حياة صديقه الشخصية. وإذا أعلن الصديق أنه ربما سيقوم بالانفصال عن زوجته سيكون هذا مفاجئاً. ولكن إذا اكتشفت المرأة أن صديقتها ستنفصل عن زوجها ولم تذكر لها أبدًا أنها كانت تمر بوقت صعب في زواجها هذا، سيجعلها تتساءل عن حقيقة صداقتهن. بما أن معنى الصداقة أن نخبر بعضنا بما يجري في حياتنا.

وبفهم الدور الذي يلعبه الكلام في علاقات النساء؛ فإنه ليس من المستغرب - كما أثبتت كثير من الدراسات - أن الأمهات يتحدثن مع أطفالهن أكثر من الآباء، ويتحدثن مع بناتهن أكثر من الأبناء. والنمط يتكرر عندما يصبح الأطفال بالغين. وزيادة على ذلك فإن معظم البنات يتحدثن مع الأمهات أكثر من الآباء. إذا لم تتحدثي مع أحد لمدة فإن فرصتك بأن تكوني قريبة منه أقل، ولكن أيضاً فرصة إزعاج بعضكم تكون أقل.

وزيادة على كل هذه المسؤولية التي تأتي مع الكلام فإن هناك وجهاً خاصًا من علاقات النساء جديراً بالذكر، ويفسر بعض التعقيدات بين الأمهات والبنات: نوع الكلام الذي يتشاركون به يؤدي إلى الاستغراق الكامل بالبقاء (مشمولين) أو الخوف من أن نترك ونبعد. ويبدأ هذا الأسلوب عندما تكون طفلة تلعب مع بنات أخريات.

معظم الكلام الذي تتبادله البنات مع الصديقات هو أسرار. معرفة أسرار بعضهن هو ما يجعلهن أعز الصديقات. إن محتوى السر أقل أهمية من حقيقة أنهن تشاركن السر: إن تبادل الأسرار هو طريقة لتفاوض مع الحلفاء. إن البنت لا تستطيع قول السر أمام بنات لا يُعَدَدنَ صديقات،

لأنه على الصديقات فقط سماع السر. لذا فإن البنات عندما لا يحببن فتاة فهن يتوقفن عن الحديث معها، يقمن بتجميدها خارج المجموعة. ولهذا فعندما تغضب فتاة على زميلتها خلال اللعب فإنها تندفع وتقول: «لا يمكنك أن تأتي إلى حفلة عيد ميلادي». وهذا تهديد شديد جدًا لأن البنت المنبوذة تترك معزولة. وفي المقابل فإن البنين يسمحون لأولاد لا يحبونهم أو أولاد أقل مرتبة منهم باللعب معهم بالرغم من أنهم يعاملونهم بسوء. لذا فإن الأولاد والرجال لا يشاركون ولا يفهمون حساسية البنات والنساء لأية إشارة تدل على أحداً يبعدها أو يستثنيها. (إنهم يطورون حساسية مختلفة لأية إشارة تدل على الإهانة أو التحكم).

وبمعنى آخر: إن حجرَ الزاويةِ في عالم الصداقة بالنسبة للبنت هو الاحتواء والإبعاد. إن الأول هدية نفيسة ورقيقة، والثاني: عقوبة جبارة. وهذا يفسر شعور الاحتواء والشمول والذي ينتج من إشباع الحاجة والارتياح في حوار الأم وابنتها، ويفسر أيضاً الكثير من الرعب الذي ينتج من الشعور بالإبعاد والاستثناء.

لماذا لم أكن مدعوة؟

زارت ميوريل ابنتها دينيس بعد أن وضعت طفلها الأول لمساعدتها، وقد كانت سعيدة لفعل هذا. وبعد مدة قصيرة من وصولها لاحظت ميوريل مجموعة من الصناديق المصفوفة في الزاوية. ثم أدركت أن الصناديق كانت مليئة بحاجيات جديدة للطفل. في البداية تساءلت ماذا تفعل الصناديق في غرفة المعيشة. ثم أدركت أنها كانت ولابد هدايا قد أهديت لهم، سألت الأم ابنتها: «هل كانت هناك حفلة لك بمناسبة المولود الجديد؟»

محاولة أن تترك انطباعا على أنها تضايقت. «نعم» أجابت دينيس بطريقة طبيعية: «قد قامت صديقتي بعمل حفلة لي. أليس هذا لطيفا؟».

«أوه.. نعم» أجابت ميوريل «إن هذا لطيفٌ للغاية». ولكن ما كانت تشعر به في الحقيقة هو طعنة ألم. تساءلت لماذا لم تخبرها دينيس عن الحفلة؟ والأكثر حدة لماذا لم تقم دينيس بدعوة أمها؟. في هذه اللحظة شعرت ميوريل «الأم» أنها كمثل الطفلة الصغيرة التي اكتشفت للتو أن كل صديقاتها قد أمضوا الليلة السابقة في حفلة عيد ميلاد لم تكن هي مدعوة لها. وتماماً كما أنه في أحوال كثيرة لا يكون للبنت أدنى فكرة عن سبب تجنب صديقاتها لها، فإن الأم لم تستطع فهم لماذا لم تكن مدعوة للحفلة؟. وإذا كانت قريبة بما يكفي لأن تأتي وتساعد عند ولادة الطفل، لماذا لم تكن قريبة بشكل كاف حتى يتم شملها بالاحتفال؟

دينيس لم تقصد أن تجرح مشاعر أمها عندما لم تضع اسمها على لائحة المدعوين. لم يخطر ببالها فعل ذلك، وعند كتابتها للائحة قد فكرت بصديقاتها فقط. ولو أن أحدًا أخبرها أن أمها ستتألم لكونها قد أبعدت لكانت دينيس قد دعتها. وربما أنها شعرت أن سن أمها لن يتلاءم مع سن الحاضرات. وموقف كهذا من الصعب اجتنابه حيث تكبر البنات وتتوسع دائرتهن الاجتماعية إلى ما بعد أمهاتهن. إن الاستبعاد المحتوم والذي لا يمكن تجنبه إضافة إلى أهمية الاحتواء بالنسبة للنساء هي بالتأكيد تعقد العلاقة بين البنات والأمهات.

أدخليني

إن الشعور بالنبذ والاستبعاد من الممكن أن يكون الخلاف الأساس والعلة بدون أن يذكر الموضوع أبدًا. قالت لي جوليا عن مدى ما تسببه لها أمها من

إحباط - : «إن أمي دائما تحتاج اهتمامًا مني أكثر مما أستطيع إعطاءَها. ولكنها تقول إنه ليس هناك حاجة إلى إعطائها الاهتمام الزائد.. وهذا يجنني». وعندما أواصل في السؤال عن التفاصيل فإنه يصبح من الواضح أن نوع الاهتمام الذي تريده أم جوليا يختلف عن النوع الذي تعترض عليه جوليا نفسها. مثلاً جاءت أم جوليا لزيارة أسبوعية، وقد شعرت جوليا بأن أمها غير سعيدة وعابسة خصوصاً عندما يكون تركيز اهتمام جوليا على ابنتها ذات العشرة أعوام. وعندما سألت جوليا أمها ماذا كانت المشكلة؟ اعترضت أمها «لا شيء.. لا شيء». ولكن جوليا كان لديها الدلائل، فإن تعابير وجه أمها ولغة جسدها تبين أن أمها منزعجة. ووقتها قالت أمها : «توقفي عن إبداء الاهتمام الزائد بي».

كان هذا مغضبًا جداً لجوليا لأنها تعلم بأن أمها أرادت الاهتمام، ولكن كلمة «اهتمام» لها معان كثيرة في هذين السياقين. عندما تكون جوليا مشغولة بابنتها فإن أمها ربما تَظُنُّ شيئًا كهذا: «لقد قطعت كل هذه المسافة وزيارتي قصيرة ومع ذلك فإن ابنتي لا تلاحظ وجودي هنا. ربما كان أفضل أن بقيت في منزلي». و «الاهتمام» يعني في هذا السياق التحدث إليها وفعل الأشياء معها، جعلها تشعر بأنها مهمة. وفي المقابل عندما تقول أم جوليا: «توقفي عن إبداء الاهتمام بي». فهي تدافع عن نفسها ضد ما تفهمه كنقد ـ أو نوع اهتمام سلبي. وربما هي تعني: «إذا لم أقل إني أشعر بالإهمال، لا أستطيع أن أكون مسؤولة عن شعوري بهذا الشعور، إنه ليس من العدل أن تلوميني على أشياء ضعيفة مثل لغة الجسد وتعابير الوجه». وفي هذا السياق: «توقفي عن إبداء الاهتمام بي». يعني في الواقع «توقفي عن التدقيق بي».

أظن بأن أم جوليا شعرت بالوحدة عندما ركزت جوليا اهتمامها على ابنتها، ربما يبدو الأمر سخيفا أن تتنافس امرأة بالغة على الاهتمام مع طفل. ولكن الألم الذي يأتي مع الاستبعاد لم يأخذ حقه من العناية وهو غير مبرر منطقيا. ولهذا لا يفتح الموضوع أبدا عندما تتكلم جوليا مع أمها. و من المحتمل أن أمها لن تكون سعيدة إلا إذا كانت محط الاهتمام في كل الأوقات. ولكن من المحتمل أيضا أنها لو كانت محط الاهتمام لمدة طويلة ربما لكانت أكثر راحة في التراجع إلى الخلف بعض الوقت. وعادة عندما تزور الأم الابنة التي لديها عائلة فإن الابنة غالبا ما تكون مدفونة بالمسؤوليات ولا تستطيع تسلية أمها. ولكن ربما يستحق الأمر محاولة تخصيص يوم أو يومين من الزيارة خصيصا لها.

بنت أبيها

إن العائلة هي أول مجموعة نلتقي بها في حياتنا. وفي وجوه كثيرة تبقى هي أساسنا، وإذا كانت الأمور تسير بصورة جيدة فإن العائلة هي الحصن ضد العالم العدائي، مكان تجد فيه المأوى والراحة. ولكن إذا كانت العائلة نفسها تجعلك غير سعيد فإنك ستشعر أنه ليس هناك لك مكان لتختبئ فيه أو تشعر أنك تسقط من مكان ولا تستطيع التمسك بشيء.وبالنسبة للأم فإن هذا من الممكن أن يترجم على أنه مراقبة قريبة للتحول في صفوف العائلة. وشعورها بالإهمال يزيد من غضبها. في بعض العائلات يكون للأم والابنة حلف يستبعد منه الأب والأخ. وفي عائلات أخرى أو «أوقات أخرى» فإن الأم تلاحظ بأن البنت تتحيز لأبيها. تاركة الأم في الخارج. وعندما يصبح هذا الرفض شيئا مستديما في تفاعلات العائلة، فإن استياءها يقسو ويتحجر كمثل الندبة لجرح قديم.

كنت واحدة من هؤلاء البنات التي هامت بوالدها، وقد كنت في الغالب غاضبة من أمي. وقد رأت أمي بوضوح أنني أفضل والدي، وقد أغاظها ذلك دائماً. وحتى إلى نهاية حياتهما الطويلة عندما لم أعد غاضبة منها، وبدلاً من ذلك أسرفت على أمي بنصيب الأسد من اهتمامي. هدايا متكررة، وتعابير حب نابضة بالحياة. لكن تحالفي القديم مع والدي وانزعاجها من هذا التحالف لم يكن أبداً بعيداً عن السطح، ويمكنه الاصطدام بأي احتكاك بسيط. مثلاً، في مرة اتصلت بمنزل والدي وقد قاما كلاهما بالرد على الهاتف من جهازين مختلفين، وبمجرد سماع والدي لصوت أمي أعلن قائلاً: «سأضع السماعة حتى تستطعن الحديث». ثم علقت أمي قائلة: «أنا أعرف أنك تفضلين التحدث لوالدك». وقد كانت على صواب ومازالت مغتاظة مما أدركته بوضوح جلي كتفضيلي له. وفي المقابل فإن والدي قد تطوع بترك المكالمة بدون أية دلالة على أنه يمانع في أن أمضي النصف ساعة المقبلة في الحديث مع والدتي وليس معه ـ أو أنه في الحقيقة هذا ما كان يحدث في كل مرة أتصل بها.

عندما كانت أمي في الثانية والتسعين وأبي في الخامسة والتسعين كنت أنا وأمي في منتصف ما يصفونه بمكالمة هائمة أو مشتتة، وتبادلنا قصصاً بالصدفة. أعلمنا بعضنا بأمور حياتنا الشخصية وحياة عائلاتنا وأيضًا عن صديقاتنا. وتطرقنا مجددًا للأشياء المحبطة الصغيرة التي كانت قد ظهرت منذ حوارنا الأخير. قالت أمي: «طلبت من والدك أن يحضر لي شيئاً أشربة وبعد ساعة وجدته جالسًا على مكتبه. سألته ماذا حصل لشرابي؟ وأجابني بأنه قد نسي.! فقمت أنا بتحضير الشراب لنفسي» لقد كانت شكوى رقيقة ليس بها مرارة أو قسوة. وقد كان علي أن أدعم هذه

الشكوى بقولي شيئاً كهذا: «ذلك الرجل.. ماذا يمكنك أن تفعلي؟ إنه كثير النسيان». ولكني لم أقدم أي دعم لشكواها بل أنبتها قائلة: «أمي.. أبي لا يستطيع أخذ خطوه بدون جهاز المشي وحتى عند استخدامه فهو يجد صعوبة في الإبقاء على توازنه، بالإضافة إلى أنه يتألم مع كل خطوة يخطوها. لا يجب عليك أن تطلبي منه أن يحضر لك شيئاً أو شراباً!».

الآن انتقل انزعاج أمي من والدي إلي، قالت أمي: «كان علي معرفة أنني لا أستطيع قول أي شيء لك. أنت دائماً تتحيزين بصفه، في عينيك هو لا يخطئ أبدًا». وكان علي الاعتراف بأنها كانت على حق.

قد تشاركت أنا ووالدي بولع حب الكتابة، وفيما كبر سنه وتقلص نشاطه الجسدي فقد أمضى معظم وقته بكتابة الرسائل الطويلة للناس، إضافة إلي. كنت مسرورة جدّاً بهذه الرسائل وقد أجبت بود وحنان. لقد أنهيت كتابة واحدة من الرسائل بالتعبير عن مدى حبي له، وما سبب هذا الحب، وقد استخدمت كلمة «الهيام». وعندما تلقيت رسالة منه بعد ذلك مباشرة توسل فيها والدي بألا أكتب له رسالة مشابهة مرة أخرى، لقد أغضبت الرسالة أمي بشدة لدرجة أنها حولت حياته إلى تعاسة وانتقام. لقد اعتقدت أن هذا الأسلوب المليء بالطاقة والقوة كان فريداً ويدور في عائلتي فقط. ولكني كنت مخطئة فقد سمعت من تلميذة لي عن قصة ذكرتني بقصتي. قالت التلميذة: «إن أمي تغضب مني عندما أتشاجر معها، وفي العادة يتحيز والدي إلى صفي وهذا يغضب أمي كثيراً. توسلت إليه بألا يفعل».

أخبرتني نساء كثيرات عن أمثلة مشابهة في الحوارات التي تدور في عائلاتهن، وفي القصة الآتية وصفت إحدى تلميذاتي حواراً دار بينها وبين

والدتها وربما يعتقد القارئ بأن ملاحظة أمها غريبة ومفاجئة، لكنها من الممكن أن تفسر باستخدام المثال النموذجي الذي وصفته سابقاً.

كانت كارا قد حضرت من الكلية إلى المنزل بمناسبة عطلة عيد الشكر. ومما هو متعارف عليه في العائلة أن تذهب هي وأمها للتسوق في الجمعة التي تلي عيد الشكر مباشرة. وبينما كانت كارا وأمها تتحدثان في أمور أخرى، ذكرت كارا أن والدها قد أخبرها بأنه لن يذهب للعمل في يوم الجمعة. سألت أمها: «لماذا لا؟» «ما الذي سيقوم بعمله؟»

أجابت كارا: «لا أدري.. سيبقى في المنزل على ما أعتقد».

قالت أمها: «لفعل ماذا؟ إزعاجنا؟!»

قالت كارا: «لا أدري ماذا تعنين بكلمة « إزعاج» إن وجود والدي حولنا مسلٍ للغاية».

«حقا؟» أجابت أمها

«تماما» استمرت كارا في الكلام :» أعتقد أنه مسل جدّاً».

ردت الأم:«هل تعتقدين؟» وقد دلت جملتها على أن تقييم ابنتها كان متوقعًا.

فيما بعد سألت كارا أمها لماذا قد ردت عليها بشكل سلبي للغاية عند علمها بخبر جلوس والدها بالمنزل في يوم الجمعة. فشرحت أمها أنه بما أن والدها يكره التسوق فإنه سيرغب في بقاء ابنته في المنزل أيضًا حتى يتسلى هو وهي. وبما أنها افترضت أن كارا سوف تختار رفقة والدها على رفقتها فإن وجوده سوف يقطع الوقت الثمين الذي ستقضيه مع ابنتها . وما

إن تقتنع الأم بأن ابنتها تفضل والدها عليها، فإن أي مدح للوالد سيقابل بالاستياء ـ وبالخبث والقسوة ـ لأن هذا يعزز الصورة والانطباع بأن ابنتها وزوجها في حلف مع بعضهما تاركينها وحيدة.

خارج الدعابة

علقت كارا مفسرة حبها في قضاء الوقت مع والدها وقالت: «إن وجود والدي حولنا مسل للغاية». لقد صدمت من كثرة التعليقات نفسها التي سمعتها من نساء كثيرات. مثلا قالت واحدة «إن والدي مسل للغاية.. إنه يضحكني كثيراً». أنا أحب أن أكون حوله وأحب خفة ظله. وكلما كان الأب ذا شخصية مسلية ومرحة كان من المرجح أن يؤدي هذا الرابط إلى استبعاد الأم. وقد وثق الباحثون بأن معظم الوقت الذي يقضيه الأب مع أولاده يكون مكرسًا للعب بدلا من قضائه في الكدح على العناية اليومية. (وهناك بالطبع استثناءات كثيرة).

وقد وصف رجل وجد نفسه يقوم بدور الأب فجأة تأثير هذا المثال على الأم بطريقة مفصلة ومؤثرة في الآتي:

قام بوب شاكوشيز وزوجته «سي» بتبني بنت أخت زوجته، التي توفيت من مرض السرطان. وصف بوب – في مقاله المؤثر – التأثير الذي حصل لعلاقتهما جراء تبنيهما للبنت. وضح بوب كيف أن نزعته وميله بأن يأخذ دور رفيق اللعب بدون قصد جعل زوجته تشعر بأنها مستبعدة. قال:

في الخريف الأول بدت أدوارنا وهويتنا الأبوية كما لو أنها تحولت إلى الأبوية النمطية. لقد كنت شارلي المسلي، الرجل المرح واللعوب. المتفرج الذي

يمكن اختياره شاهداً للدفاع. سي كانت من يفرض النظام والانضباط، الأنثى القوية الواقعة في فخ الواجب المقدس للدم، والتي خدعت بصراحة وبمكر من شريكها. وبسرعة بدأت تصدق سي بأنها تستبعد وتترك وحيدة بتعمد. حتى لدرجة شعورها بالحرمان الجسدي. عندما دغدغت الطفلة قالت منتحبة ذات يوم «إنها تنال اللعب الآن بدلاً مني» وقد صدمت عندما أدركت أنها على صواب، إنه من الواضح أن من خلال محاولته لأن يكون أباً جيدًا لابنة أخت زوجته، لم يكن ينوي أن يستبعد زوجته من لعبهم ولا أن يحرمها من الضحك والاهتمام وهي المتعة الخالصة والتي كانت سابقًا لها. ولكن هذا ما حصل. إن هناك طبقات من السخرية والظلم في هذه النتيجة. إن اختلال التوازن الشديد في الأدوار الذي أخذه هو وزوجته ـ هو حصوله على العمل المسلي «شارلي المرح» وهي حصولها على دور «الأنثى القوية والمعطاءة» وبافتراض مقدار العناية غير المتجانس ـ كل هذا أدى إلى أن تعاقب بواسطة استبعادها من وقت اللعب.

أخي

تشعر كثير من الأمهات بالاستبعاد بسبب تفضيل البنات لآبائهن وبالمقابل تشعر كثير من البنات بالنبذ بسبب تفضيل الأمهات للإخوة الذكور. مثلا أخبرتني امرأة كم أحزنها عدم تعرف أمها عليها في نهاية حياتها. ثم أضافت: ولكنها لم تتوقف أبدًا عن التعرف على أخي.وبشكل مدهش مرت امرأة أخرى بتجربة شبيهه عندما كانت أمها على فراش الموت، «لقد كنت الوحيدة التي لم تستطع أمي التعرف علي. قد علمت جيداً وعلى نحو كامل من كان إخواني. ولكن بشكل أو بآخر كانت مقتنعة بأني لست ابنتها، وأنني نسخة عن ابنتها وأنني كنت أحاول إيذاءها!»

إن الرعب الشائع بين النساء بسبب نقد الأمهات المتكرر لهن يأخذ صفة لاذعة عندما تدرك البنت أن أمها تتخذ موقفاً أقل انتقاداً تجاه الأخ. امرأة قامت بعمل حفلة حتى تؤكد هذا الانطباع. كانت تقف بجانب أخيها في حفلة اجتماع شمل العائلة، تقدمت الأم منهما وقامت بتحية ابنتها بالطريقة الاعتيادية وقالت: «ما هذا الذي على جلدك؟» «ما بال شعرك؟» «لقد زاد وزنك». ولم تلاحظ البنت أي شيء غير اعتيادي ـ ولكن أخاها قد لاحظ. سأل الأخ غير مصدق: «هل تفعل هذا دائمًا معك؟» وبسماع دهشة أخيها أدركت هذه المرأة أن أمها تترك تفحص المظهر لابنتها وليس لولدها.

امرأة في السابعة والستين كتبت لي بريداً إلكترونياً : «مازال عندي مشكلة في علاقتي مع أمي.» والمشكلة كانت تفضيل أمها لولدها. قالت المرأة : «أخي كان نور عين أمي. لم أستطع أبداً أن أصل إلى المستوى الذي تريده أمي. كان الوضع دائماً.. لا تفعلي.. ليس عليك فعل هذا.. لماذا لا تكوني مثل... ولكن أن أكون أنا نفسي كان شيئاً مرفوضاً». إن تحيز أمها لأخيها امتد إلى عائلة الأخ، «حتى الهدايا التي تهديها لأطفال أخي كانت أفضل وأغلى من الهدايا التي تهديها لأطفالي. لقد دفعت رسوم مدرستهم ولكن ليس أطفالي. حتى أنها تعطي أخي وزوجته عشرة آلاف دولار كل على حدة هدية سنوية. ولكن ليس لنا». وبينما كنت أقرأ كلام المرأة توقعت أن تكون الأم مازالت على قيد الحياة ولكنها في نهاية الرسالة قالت المرأة: «بالطبع لقد رحلت الآن. ولكن الآثار تبقى». «أنا لا أستطيع أن أتخلص من هذا الحزن أبداً وأعتقد أنني سأذهب إلى قبري وأنا أحمل هذا الحمل الثقيل على قلبي».

(هذه المرأة تعلمت درساً من تعامل أمها السابق حيث خدمها جيداً في تربيتها لأطفالها والدرس كان أن تعامل أطفالها بالتساوي ولكن أن تعطي ابنتها زيادة قليلا).

حتى ولو كان تفضيل الأم ليس واضحاً أو مفرطاً، فإن كثيرات ممن لديهن إخوة يشعرن بالألم من حب أمهاتهن غير الكامل، وهو يزيد ويقوى عند المقارنة بين تعامل أمهاتهن مع الإخوة الذكور. هن يشعرن كما لو أن الإخوة الذكور يستولون على خشبة المسرح في العائلة بينما تترك البنات خلف الكواليس.

مشهد غير مرئي

هناك طريقة أخرى تشعر من خلالها كثير من البنات بأنه يتم دفعهن إلى الجانب عند مقارنتهن مع الإخوة. وبالنسبة لإخوانهم وهذا أيضا يعكس الموقف المنتشر تجاه المرأة في مجتمعنا، وهو الميل إلى توقع الشيء الكثير من المرأة، وليس من الضروري إظهار أي امتنان لذلك.

إن «بيث» معالجة عائلية في مكتب خاص. وفي يوم تلقت اتصالاً من والدتها - التي قالت: «لقد حجزت لزيارتي، وسأصل في الساعة الثانية، هل علي البحث عنك في مكان استلام الأمتعة أم في الخارج عند البوابة».

قالت بيث: «إن هذا سيكون صعبًا يا أمي.. فأنا لدي مواعيد طيلة هذا المساء. ثم قالت مشيرة إلى أخيها لماذا لا تسألين روني؟ فأجابت أمها: «إنه يعمل».

إن جزءًا من الاختلاف من موقف أمها تجاه عمل بيث وعمل أخيها ناتج وبلا شك من اختلاف المحيط الذي يعملون به طيلة يومهم. الأخ يذهب

إلى مكتب في مبنى في مركز العاصمة، بينما بيث ترى المرضى في مكتب في منزلها. ولكن سبباً آخر أيضاً هو ببساطة افتراض أمها عن الرجال والنساء. لقد اعتبرت أمها دائما أن عمل بيث كان نوعًا من الهواية. وغير مطلوب لإعالة العائلة، فقط مجرد شيء بيث تختار فعله في أوقات فراغها. وخصوصًا أن كل ما تفعله هو الجلوس والتحدث للناس. إن تجربة بيث هنا تعكس تجربة كثير من النساء، حيث يشعرن بأن أمهاتهن لا يقدرن أو يلاحظن إنجازاتهن المهنية. ولكن هناك شيء آخر يدور هنا. إن العمل الذي تقوم به النساء غالبًا ما يكون محجوبًا ولا يأخذ حق قدره. وهذا يدور بنفس الطريقة في العائلة تمامًا كما يدور في العالم الخارجي. الوجبات تحضر.. البيت ينظف.. ملابس الأولاد تشترى وتغسل..كله يدور في روتين وأساس لا ينتهي. إنه من النادر أن يقدم أفراد العائلة اعترافاً ذا معنى، وبرغم ذلك فهم يلاحظون عندما لا يتم عمل هذه الواجبات. كثير من الآباء في وقتنا الحالي يقومون بهذه الأعباء.. نعم.. ولكن عندما يفعلون فإن الناس من داخل العائلة وخارجها يلاحظون ويصفقون. ولكن عندما تفعله الأمهات فإنه ببساطة جزء من الصورة التي تمثل منظراً طبيعياً.

على النساء التوقع أن عليهن العطاء السخي وغير الأناني للآخرين، وأن تكون ردة فعلهن الخيبة والغضب عندما لا يحصلن على هذا العطاء. أو عندما لا تستطيع النساء إنجاز ما هو متوقع منهن. قالت لي إحدى النساء لماذا كانت أمها مهمة جدًا بالنسبة لها: «إن لديها خاصية وهي .. إرم أي شيء في يدك واركض للمساعدة». والمشكلة هي أن أفراد العائلة بما فيهم البنات يعترضون إذا لم توقف الأم ما بيدها وتهب للمساعدة. مثلاً كونك موجودة في المدينة عند زيارة فرد من العائلة..أو اللقاء في المطار.. أو مراقبة أطفالهن والاعتناء بهم، بينما يذهبن للتسوق. وكثير

من الأمهات يتوقعن من بناتهن المساعدة بطرق عدة لا يمكن أن يطلبنها من شخص آخر حتى أولادهن الذكور.

فقط اسأل مرة أخرى

كان لليا شقيق وشقيقة، وقد قامت بحجز رحلة سفر لأمها ذات السبع وثمانين عاماً من فلوريدا إلى ميلواكي لحفل لَمّ شمل العائلة. بدأت بإرسال بريد إلكتروني إلى أختها وأخيها وبنتها تسأل إذا كان يستطيع واحد منهم مرافقة الوالدة في الذهاب وأنها سترافق الوالدة في العودة. وأجاب الثلاثة بأنهم لا يستطيعون. وكان لدى كُلٍّ أسباب جيدة للرفض.

في الحقيقة كان لابنتها إيرن سببان مهمان، الأول: أنها كانت لا تستطيع أخذ أيام إجازة من عملها، والثاني: أن صديقتها كانت على وشك وضع طفلها وإيرن كانت ممرضة وقد وعدت صديقتها بالحضور وقت الولادة. أعادت ليا الطلب، وبما أنها لم تود أن تقوم برحلتين كاملتين. طلبت هذه المرة ولكن فقط من ابنتها. وبمعلومات جديدة هذه المرة فقد تطوع عمها بتعويض الدخل الذي ستفقده إذا أخذت أيام إجازة. هل سيكون هذا ملائمًا لها حتى تذهب مع الجدة في الرحلة؟ ومرة أخرى فسرت إيرن أنها لا تستطيع حتى لو عوضها عمها عن خسارة الدخل، فمازال هناك مسألة وعدها ورغبتها في الحضور في حالة دخول صديقتها في المخاض. مر أسبوع أو أكثر وقد كانت ليا تحاول جاهدة أن تمتنع عن الطيران في رحلتين مختلفتين بين فلوريدا ووسكونسون خصوصًا أنها تبلغ من العمر السادسة والستين. لذا فقط لجأت إلى إيرن مرة أخرى حريصة هذه المرة بأن تستهل طلبها بتنازل صادق فقالت: «أنا آسفة إنني أسألك مرة أخرى. أنا لا أود أن أشعرك بالذنب، أنا فقط أطلب». إيرن شرحت مرة أخرى

لماذا لا تستطيع القيام بما تطلبه أمها منها ولكنها استمرت واحتجت قائلة: «أنت تقولين لا أشعر بالذنب ولكن أليس واضحًا أنني أشعر بالذنب عندما تصرين على الطلب مني». أدركت ليا أن ابنتها على حق ولم تعد الكرة ثانية. وكررت الطلب من أختها وأخيها، وقد تقبلت رفضهم بدون نقاش. كان عقلها يعود دائمًا للتفكير بالطلب من ابنتها. لقد نظرت إلى أسباب ابنتها على أنها قابلة للتفاوض. أدركت ليا أنها كانت تتوقع من ابنتها أن تساعد بطريقة لم تكن تتوقعها من الآخرين. وكانت قد أهملت الرسالة الخفية المفهومة من إلحاحها في الطلب. وبالرغم من أن كلماتها قالت: «لا تشعري بالذنب». لكن حقيقة أنها ألحت وكررت السؤال والطلب تفهم على نحو كهذا: «هذا شيء أتوقعك أن تفعليه».

وبتساؤلنا عن سبب توقع الأمهات والبنات من بعضهن البعض أكثر مما يتوقعنه من الآباء أو الإخوة، فقد رجعت للبحث الذي أجريته لكتابي «الحديث من التاسعة للخامسة». عن كيفية تحدث الرجال والنساء، وكيف يتم التواصل بينهم. فقد لاحظت النمط الآتي في مجال العمل: مهما كان منصب المرأة عاليًا في السلسلة المهنية؛ فإنها تتلقى احتراماً أقل من الرجل الذي بمكانتها. إن الناس يجدون المرأة سهلة المنال، و أقل تهديداً من الرجل الذي يشغل الموقع نفسه. وقد جربت هذا مرات عديدة بنفسي، مثلاً: تلقيت مرة في يوم الأحد ـ وهو يوم إجازة ـ مكالمة من طالبة في جامعتنا من برنامج حملة الدكتوراه، وكان لديها أسئلة عن الأطروحة التي تكتبها. قمت بالإجابة عن أسئلتها مدة ثم قلت لها: إنه بالرغم من أن النصائح التي قدمتها لها تعكس أفضل آرائي، إلا أن عليها تقديم هذه الأسئلة للأستاذ الذي يدير أطروحتها. فقالت: «لا أريد إزعاجه في يوم الأحد في البيت!!».

وتماماً كما يحصل في حياة المرأة المهنية فإن الأم ينظر لها على أنها سكرتيرة دائمة الوجود ومتوفرة للمساعدة، ويمكن اعتراضها وإعاقة جدولها. كثير من الأمهات يأخذن هذا الدور بمحض إرادتهن. علقت امرأة لديها بنتان بالغتان، بأنها تترك هاتفها المحمول مفتوحاً دائماً في حال احتاجت واحدة من البنات إليها. ولكن الاستعداد واللهفة للمساعدة في أي وقت لا يمنع الشعور بالألم عندما يقبل فرد من العائلة هذه المساعدة على أنها واجب. وقد برز هذا بشكل جلي من الشكاوي التي أسمعها من النساء عن بناتهن الراشدات، حيث تشعر الأم بأنه يتم استغلالها، وتعامل بدون الأخذ باعتبارها. هذا من الممكن أن يكون من خلال مواقف كهذه: ألا تقوم البنت بعمل خطة مسبقة مفترضة أن أمها ستكون موجودة عند احتياجها لها، مثل: تغيير تاريخ لموعد معين في آخر لحظة وبدون أي تفسير، أو ببساطة التكلم بطريقة رفض: «أوه يا أمي ..إنك تقولين هذا دائماً». مثلا قالت امرأة: إن ابنتها قد دعتها للانضمام إلى حفلة عشاء لواحدة من الصديقات، وأنها ببساطة أرادت إكمال عدد الكراسي على طاولة العشاء. ولكن عندما غير أحد المدعوين خططه في آخر لحظة فإن ابنتها قامت ببساطة بإلغاء دعوة أمها. وبالنسبة للبنت فإن الأم كانت متوفرة و حاضرة بسهولة ومستغنى عنها براحة تامة.

لماذا لا تقولي ما بنفسك؟!

كما رأينا في الفصل السابق فإن غيظ البنات يزداد من نقد الأمهات، خصوصاً إذا كان بشكل غير صريح. والشيء نفسه ينطبق على ردة فعل البنات عندما تقوم الأم بتوقع أشياء منها بغير تحفظ. ولكن عدم

الصراحة بتلميح ما تود أن يفعله شخص آخر هو شيء شائع بين النساء الأمريكيات. (وفي كثير من الثقافات هو شيء شائع بين الرجل والمرأة) ويعمل بشكل جيد عندما يوافق المتحدث والسامع على استخدامها.

أم سلفيا كان لها مزاج خاص بالبطاطا المشوية. هي تحبها ولكن فقط إذا كانت طرية جداً، ونادراً ما كانت البطاطا طرية بالدرجة الكافية لها. وفي أي وقت كانت تطلب فيه البطاطا المشوية في المطعم كانت تجتهد في التأكيد للنادل بأنها تريدها مطبوخة إلى آخر درجة. وعندما يصل الطبق لها فإنها تقطعها بالسكين، وتسع من أصل عشر مرات تشتكي إلى من يرافقها بالعشاء. «إنها صلبة، لقد طلبتها طرية». ولكنها لا ترسلها للطباخ أبداً مفضلة أن تبقيها وتستمر في الشكوى. وعندما تكون سلفيا مع أمها فإنها تقوم بمناداة النادل بنفسها وتطلب بطاطا أطرى. لقد كانت متأكدة أن هذا ما تريده أمها وهذا ما تتوقعها أن تفعله. ولكن جاء الوقت الذي قررت فيه أنها لا تريد فعل هذا مرة أخرى. لأنها قد غضبت من أن أمها توقعت منها أن تخمن ما تريده منها. واستنتجت سلفيا أن أمها تستحق أن تأكل بطاطا قاسية لأنها ترفض أن تقول ما تريده بشكل مباشر.

سمعت من امرأة تدعى نانسي عن مدى شعورها بالإحباط لأن أمها لا تقول بصراحة ما تود أو ما تفكر به. مثلاً عادت نانسي إلى منزل والديها في الخريف حتى تساعد أمها التي كسر معصمها. ولكن عندما عرضت نانسي على أمها أن تطبخ هي طعام العشاء؛ اعترضت أمها وقالت: إنها لا تود أن يتسخ الفرن بما أنها لن تستطيع تنظيفه بمعصمها المكسور. أكدت لها نانسي أنها ستقوم بتنظيفه في حال اتساخه، وأجابت أمها: بأنها لا

تمانع في أن تنظف فرنها بنفسها. ومن هذا فهمت نانسي الرسالة وهي: أن أمها لا تريدها أن تقترب من مطبخها. يبدو وكأن الأم فهمت إيماءة نانسي بالاتصال على أنها محاول انتزاع السيطرة. وربما فكرت أنه من اللطف أن ترفض بسبب شيء خارج سيطرتها وهو معصمها المكسور.

وبالرغم من أنه في الحالتين كانت رسالة الأم واضحة ومفهومة تماماً، إلا أن نانسي وسلفيا شعرتا بالإحباط بسبب طريقة كلام الأم. نانسي تعتقد أن رفض أمها في التصريح بما تريد هو سبب في الدوامة المجنونة. وسلفيا كانت محبطة لأنها تعتقد أنه كان من الخطأ قول عكس ما تعني، آملا من الآخرين أن يستجيبوا إلى ما لم تقل. يبدو أنه من الواضح لهما بأن تقرير ما تود بوضوح ليس فقط عادة مفضلة، بل صادقة وصحيحة. ربما تكون نانسي محبطة من طريقة أمها الملتوية، وربما سلفيا تعتقد بأنها تصلح الموضوع بدلاً من أمها، لو فكرت الاثنتان بالمباشرة واللامباشرة على أنها طرق شرعية وصحيحة لتبادل الأفكار والاتصال لهان الأمر عليهما. في الحقيقة إن اللا مباشرة هي الطريقة الطبيعية في كثير من الثقافات.

«هارو يا مادا» امرأة لغوية من اليابان شرحت في كتابها «ألعاب مختلفة.. قوانين مختلفة». أن التواصل بدون وضع معان في الكلمات موضع تقدير عند اليابانيين الذين لديهم كلمة لتفسير ذلك: «هاراجي» بالمعنى الحرفي « فن المعدة أو الجوف» ووفقاً ليامادا فإن هذا التعبير يعكس العقيدة اليابانية التي تقول: إن كل الكلام مشبوه و«إن الجوف فقط هو الذي يتكلم بالحقيقة». إنه التواصل الصامت والذي يُعدُّ خياليًّا ومثلاً أعلى، وهو مهارة مفعمة بالنشاط، يجب صقلها والتدرب عليها كمثل الفن. وبنفس الروح فإن اليابانيين يقدرون بشكل بالغ «الساشي» وهي -

وفقاً لما فسرته ياmادا - «تخمين توقعي»، وهي نوع من فهم للمعاني غير المعبر عنها وهو الشيء ذاته الذي شعرت سلفيا أن أمها مخطئة بتوقعه.

كيف يمكن أن يكون لثقافة كاملة طرق خاطئة للتواصل؟ إنه من الصواب أن نحاول فهم المنطق خلف اللا مباشرة. إن الإصرار على أفضلية قول المعنى بصراحة يركز على مستوى الرسالة في الكلام، كما لو أنه هو المستوى الوحيد الموجود. ولكن التسليم بأن كل قول له مستويان ـ رسالة ورسالة خفية ـ يعني أيضاً بأن اللا مباشرة شيء معقول.

يمضي بدون رأي

وعند إدراكي وجود مستوى الرسالة الخفية في الحديث، صدمت بالتباين في حديث امرأة أخبرتني عن أمها وابنتها. تعليقات تأتي بأوقات مختلفة، ولكن عندما تفهم ككل تكشف عن المنطق وراء طريقة الأم غير المنطقية في التحدث. كتبت لي أودري في بريد إلكتروني: «بأن ابنتها ذات العشرة أعوام، كانت كما لو أنها «رفيقة روحها»، فهي تتجاوب مع كل عاطفة وتعرف ما هي، حتى عندما أحاول أن أضع قناعًا على هذه العواطف فأنا أستطيع خداع الجميع لكن ليس هي». هذه من أكثر الأشياء عجبًا وهبة غير متوقعة للأمومة: أن تحظى بشخص قريب جدًا ومتواصل معك لدرجة أن الرباط يبدو وكأنه يمشي مباشرة من قلبك إلى قلبها.

وفي سياق آخر علقت أودري بأنه بالرغم من أنها تحب أمها كثيراً وتحاول فعل كل ما تستطيع لمساعدتها، فهي تنزعج عندما تتوقع منها أمها معرفة وتوفير ما تريده بدون أن تسألها. مثلاً عندما كانت أودري

مستعدة لتوصيل أمها إلى منزلها في ولاية أخرى بعد أن زارتها، قالت أمها بفظاظة: «هل كان علي حمل حقائبي للسيارة بنفسي؟»

علمت أودري بأنها تعرضت للتوبيخ لأنها خيبت ظن أمها فقالت: «لماذا لم تخبريني بأن حقائبك كانت جاهزة؟ لكنت حملتها عنك». فردت أمها: «لقد كنت تعلمين بأني أتجهز، وقد سمعتني وأنا أقوم بإنزالها من أعلى السلم». ارتفعت درجة عواطف أودري وقالت: «لقد كنت أقوم بالاستحمام كيف لي أن أسمعك؟!». هنا قامت أمها بتغيير أساس الجدال فقالت: «أنت لم تعودي نفس الشخص الذي كنت عليه سابقاً». أصبحت الآن إدانة الأم ليست معينة فقط (بسبب فشل أودري بحمل الأمتعة) لكن أصبحت عامة وهي» عدم كون أودري الشخص الذي كانت عليه» وهذا يعني أن أودري أصبحت أسوأ مما كانت عليه. شعرت أودري بالعجز عن الدفاع عن نفسها ضد هذا الحكم القاسي وقالت منتقمة: «ولا أنت أيضاً».

وعندما يسمع أحدهم هذا التبادل فإنه يمكنه أن يستنتج كما استنتجت أودري بأن أمها غير معقولة: ذلك أنها كانت قد غضبت على ابنتها لعدم قيامها بخدمات لم تطلبها منها في الأصل. وأن ابنتها لم تكن لتستطيع معرفة ما احتاجته أمها. ثم عندما تم مجابهتها بعدم عقلانية شكواها، قامت بالتغيير إلى اتهام مبهم، ولكن مدمر، وهو اتهام ابنتها بأنها أصبحت إنسانة سيئة. كيف لنا أن نعقل هذه السلوكيات المجنونة؟ إن تعليق أودري على ابنتها يوفر لنا رؤيا داخلية للأسباب التي تقع تحت اللاعقلانية الظاهرة لأمها. إن أودري تمجد الرابط الذي تشعر به مع ابنتها، الرابط الذي هو دليل فهم ابنتها لمشاعرها غير المعبر عنها. وعلى كل حال فإن أي إنسان يستطيع معرفة عواطفك ويعبر عن احتياجاتك

إذا عـبرت عنها بصراحة ووضوح. ولكن فقـط الإنسان الذي بينك وبينه رابط خاص يستطيع أن يشعر بالعواطف التي لا تعبر عنها بالكلمات. وهذه هـي الرسالة الخفية الغالية لِلاّمباشـرة، والتي تثمنها كثير من النساء في العلاقات القريبة.

تماماً كما يحدث عند شرائك لهدية، فإن أي أحد يمكنه شراء الهدية التي تريدها إذا قلت له ماذا تريد. ولكننا نادراً ما نطلب طلباً جلياً كهذا. (إن هناك استثناءات، فقد قالت لي امرأة: إنه بعد عدة مناسبات أهداها زوجها فيها مجوهرات ثمينة لم تعجبها، فإنها أسست طريقة أرضت الطرفين. عندما يقترب عيد ميلادها فإنها تشتري لنفسها قطعة مجوهرات وتري زوجها الهدية الرائعة التي قد اشتراها لها). إن التلميح بالنسبة لمعظمنا واضح وجلي كوضوح ما نريد، لأن ما نريد هو ليس الهدية المتمثلة في «الشيء»، ولكن الهدية التي تدل على أن هذا الشخص يعرفنا حق المعرفة لدرجة أنه يستطيع اختيار هدية تعجبنا، ومهتم بنا لدرجة أخذ وقته في إحضارها. وفي كلمات أخرى فإن الهدية هي الرسالة، وهي جميلة ولكن ما نثمنه حقًا هو الرسالة الخفية للألفة والوئام عندما يفاجئنا أحدهم بالهدية المثالية.

هذا هو المنطلق خلف أسلوب اللامباشرة للتواصل وهذا هو المنطق الذي ربما يجعل شكوى أم أودري غير العقلانية غير مفهومة. لو أن أمها كانت قد سألتها أن تحمل لها الأمتعة إلى السيارة لكان تم لها ذلك، ولكنها عند ذلك لا تحصل على الرسالة الخفية: الدليل على أن ابنتها تفكر في احتياجاتها، وتهتم لدرجة أنها تنجزها بدون أن يطلبها أحد. ربما تفتقد أم أودري لقراءة مشاعرها، وهو الشيء الذي تثمنه أودري كثيرًا في ابنتها،

وربما هذا بالضبط ما ترفضه أودري الرابط القريب جدًا، والذي يصل بين أمها وبينها، والذي يذهب مباشرة من القلب إلى القلب الآخر.

كثير من النساء لا يشعرن بالراحة مع هذا الرابط عند تقدمهن في السن، لأن المرأة هنا لا تشعر أنها تستطيع أن تعوض تعاسة أمها سواء بتوفير الرفقة أو عن طريق تكييف حياتها الخاصة لتتوافق مع رضا وتوقعات أمها.

ربما يكون السبب أيضاً أن أسلوب الحديث بين أودري وأمها يختلف من واحدة لأخرى حيث إن أمها تميل إلى اللا مباشرة في الحديث - خصوصاً عندما تريد فرض طريقتها، وأسلوب أودري الاعتيادي هو المباشرة نسبيًا.

من الممكن ألا يكون الاختلاف هنا صدفة غير محظوظة. فأودري تعتقد أنها طورت أسلوبًا مباشراً على وجه الخصوص، بعدما شعرت بتحطيم أسلوب أمها اللا مباشر.

الحديث في المشكلات يعرضك للمشكلات

إنه من المكر الاعتقاد بأن التعبير عن الرغبات بطريقة غير مباشرة شيء ثانوي. وأن المباشرة والصراحة أكثر تفضيلاً وأكثر صدقاً وهو اعتقاد شائع بين أوساط الأمريكيين العاديين. ولكن للأسلوب المباشر في الحديث صفات مميزة في حديث الرجال أكثر من النساء. (هذا لا يعني أن الرجال لا يستخدمون الأسلوب اللا مباشر. إنهم يميلون فقط لأن يستخدمونه في سياق كلام مختلف، مثل الاعتراف بالذنب والجهل).

إننا جميعا نميل إلى إساءة الفهم والتخفيض من قيمة أساليب الحديث التي لا نتفق معها. إن السلوكيات التي تعكس أساليب الرجال هي

موضع احترام وتقدير بشكل واسع في المجتمع أكثر من السلوكيات التي تعكس أساليب النساء. لذا فإن ميل الأم أو البنت للأسلوب اللا مباشر عند قيامها بطلب شيء يعد طريقة ثانية لأن تجد فيها المرأة نفسها غريبة ومنعزلة في بيتها. والشيء نفسه يحدث في كثير من أساليب الحديث النموذجية للمرأة. بالإضافة إلى الطريقة الأساسية لاستخدام الحديث في خلق حلفاء أو تبادل التفاصيل التي تصف الأحداث اليومية.

قام باحثون بدراسة الحوار الذي يدور على مائدة العشاء في الطبقات الوسطى للعائلات الأمريكية، ولاحظوا طقساً من الممكن أن نسميه «الإخبار عن يومك». ووفقًا للغوية «شوشانا بلومكولكا» فإن هذه طريقة شائعة في بدء الحوار حول مائدة العشاء في الطبقات الوسطى للعائلات الأمريكية، لكنها لم تلاحظها في العائلات الإسرائيلية.

إلينور أوش وكارولين تيلير - المتخصصتان بعلم الإنسان - قامتا بتصوير وتحليل العائلات الأمريكية حول مائدة العشاء. وفيها لوحظ أن الأم عادة هي من يشجع الأولاد على «إخبار الوالد عن أحداث يومهم». وهي تخبرهم عن يومها أيضاً.

وجدت المتخصصتان أيضاً أن وصف الأمهات ليومهن ـ كما هي الحال بكل حوارات النساء مع صديقاتهن ـ عادة ما يتضمن المشكلات التي حدثت، والتي من الممكن أن تناقش وتعين وتفهم وتستكشف بواسطة أعضاء العائلة الأخرى.

قامت عالمة الاجتماع جيل جيفرسون بتسمية هذه الأنواع من الحوارات بـ «حديث المشكلات».

إن «حديث المشكلات» شائع في أوساط النساء أكثر من الرجال وبالنسبة للنساء فإن الحديث عن تجارب يومهن هو ما أطلق عليه ـ حديث الألفة ـ وهو طريقة لاستخدام الحديث في تأسيس التواصل. وحديث المشكلات هو نوع من حديث الألفة، حيث إنه يدعو الشخص الآخر إلى التعبير عن التعاطف وإبداء الفهم وسرد تجارب مشابهة. وعلى كل حال فإن كثيراً من الرجال يشعرون بأن الحديث عن المشكلات يجعلهم يبدون ضعفاء وربما هذا هو الأهم. إن كثيراً من الرجال يفضلون عدم الحديث عن المشكلات التي حدثت في العمل لأن الحديث عنها يعيد شعور القلق والتعكير الذي شعروا به سابقًا.

وكنتيجة لهذا سوف يبدو كما لو أنهم جروا أوساخ يومهم إلى المنزل، أو فشلوا في مسح أحذيتهم قبل دخولهم للبيت. إنهم يفضلوا أن يستمتعوا بالراحة في منزل خال من الخطر، حيث إنه ليس عليهم التفكير بمشكلات العمل.

اختلاف هذه العادات المتعلقة بحديث المشكلات تؤدي لعدم التوازن في العائلة. إذا كانت الأم تتكلم وحدها عن المشكلات التي تعرضت لها خلال يومها والأب في المقابل لا يتكلم فستكون النتيجة أن الأم ستعاني من مشكلات أكثر وثقة بنفسها أقل من الأب. وكثير من الرجال لا يميلون إلى الحديث بهذه الطريقة لأنهم يعتقدون أنه عندما تعيد المرأة سرد المشكلات فهي حتما تطلب المساعدة في حلها. لم إذاً تتحدث عنها؟ ولهذا يقدم الرجال عادة الحل بكرم. ومن ثم إستراتيجيتها الكونية تنتهي بأن تحدد من وجهة نظر الرجل. وهذا الفهم الخاطئ لحديث الألفة الخاص بالمرأة عادة ينتج عنه ظهور الأم بمظهر عدم الثقة بالنفس أمام عائلتها، أو أن تظهر حتى على أنها أقل كفاءة وأهلية من زوجها. وهذه النتيجة كانت

قد وصفت على لسان إحدى تلميذاتي التي قالت: إن والدا سيليا يعملان بنفس الحقل، والدها طبيب وأمها ممرضة. وكلاهما يعمل في المستشفى. وكلاهما يمر بكثير من التحديات يوميا. لكن أم سيليا تخبر عائلتها مرارًا عن الحالات التي عملت عليها والمسائل التي حدثت بين زملائها. والد سيليا والذي نفترض أنه يتصارع مع تحديات مساوية لا يتحدث في المنزل أبدًا عما يحدث في العمل. سيليا وأخاها يترجمون حديث أمها عن العمل بأنه إشارة لعدم الشعور بالأمان، ودلالة على أنها تحتاج مساعدة في مواجهة تحديات يومها في العمل أو إعادة تأكيد أنها تصرفت بشكل جيد حيال هذه التحديات. وهذه نسخة منزلية لكننا نجد نفس الأسلوب في الحكم غير العادل على مقدرة النساء في مجال العمل.

إنها طريقة مركزة للحديث تصنع التواصل مع الآخرين، إنها تؤخذ كدليل على حالة المرأة الداخلية كعدم الاستقرار أو قلة الثقة. ونتيجة لاختلاف طرق الحديث فإن كثيراً من العائلات تكرر دعاوى الظلم على طرق النساء في الحديث، وغالبًا ما يؤدي هذا إلى شعور المرأة بالوحدة في العائلة.

هذا التأثير بالتحديد مؤلم للمرأة - نظراً إلى حساسيتها تجاه أي إشارة تشير إلى كونها وحيدة، أو أنه تم التخلي عنها. وهو جزء من ميراث قديم تحاول أكثر النساء الحفاظ عليه منذ الطفولة التي أمضينها في اللعب مع مجموعات البنات.

هذه بعض طرق التواصل التي تشكل العلاقة بين الأمهات والبنات من خلال كونهن نساء وهو يتجلى في طلب صغير تمنت الأمهات طلبه من البنات الراشدات وهو: «لا تتجاهليني».

4

هي مثلي تماماً، هي ليست مثلي أبدًا.
أين تنتهين وأبدأ أنا؟

«أنا وأمي على علاقة قريبة جداً». «أتمنى لو أكون قريبة أكثر من ابنتي». «عندما بدأت الذهاب إلى نادي الرياضة مع أمي أحسست أني أقترب منها أكثر».

عند التحدث مع النساء عن الأمهات أو البنات الراشدات فإن الكلمة التي كانت دائماً تأتي في السياق باستمرار هي كلمة «القرب». سواء شعرت النساء بهذا في العلاقة أم تمنوا زيادته. فالقرب كان دائماً المقياس الذي تقاس به العلاقة. عبرت النساء كثيراً بأنهن يقدرن القرب ويفتقدنه عند نقصانه، وبالمقابل فإن القرب الزائد لا يشعرهن بالراحة.

عبرت النساء أيضًا أنها تخشى - بل وتلتمس ما هو عكس القرب أحيانًا - البعد. قالت إحدى البنات: «لقد كان علي وضع القليل من المسافة بيننا». وتعليق آخر سمعته من إحدى الأمهات: «إن البعد مؤلم لأن هناك أشياء في حياة ابنتي لا أستطيع الاستمتاع بها لأنها لا تخبرني عنها».

عندما تكون البنات في سن صغيرة فإن القرب الجسدي شيء حتمي ومطلوب بالنسبة لهن أكثر من البنين. وجد علماء النفس أن الأمهات تلامس أجسام البنات الرضع أكثر من البنين الرضع. وأثناء نمو الأطفال

لاحظت النساء أن البنات يَمِلْنَ إلى البقاء قريبات من جسد الأم أكثر من البنين. مثلاً كتبت امرأة لديها بنتان وابنان في بريد إلكتروني تقول: «تفضل البنات البقاء قريبات جداً، والملفت للنظر هو القرب الجسدي. ذهبنا أنا وابني وابنتي الصغيرة ـ ذات السبع سنوات ـ لشراء الملابس بالأمس، وقد كنت أدوس قدمها طيلة مرحلة مشينا لأنها كانت تود مسك يدي طيلة الرحلة ولم تترك مسافة بين جسدينا أبدًا. بينما اقترح ابني أن نستخدم جهاز النداء اللاسلكي بيننا حتى نستطيع أن نتجول كل على حدة بدون أن نفقد بعضنا».

وبينما تنمو الأم وابنتها وتتطور حياتهما، فإنهما تبقيان على تغيير وتعديل مسافة البعد والقرب بينهن ـ أعني القرب الجسدي والذي لا يعكس فقط بالاتصال الجسدي، ولكن أيضاً بمكان الإقامة. والقرب المجازي والذي يعكس مثلاً كم مرة يمشون فيها سوياً، أو حجم المشاعر التي يتصارحن بها، والتواصل العاطفي الذي يشعرن به. عندما تحدثت النساء عن أعظم متعة وأعظم خيبة أمل محزنة مرت بهن مع أمهاتهن وبناتهن، كُنَّ غالباً ما يستخدمن مصطلحات القرب والبعد.

تعبير آخر يستخدم دائمًا عندما تتكلم النساء عن بناتهن أو أمهاتهن هو عبارة «الشيء نفسه» إلى جانب التعبير المعاكس «مختلف». تقريباً كل النساء مرت بتجربة كهذه، حيث تفتحين فمك للحديث لكن كلمات أمك وصوتها يخرج. تأمرين بفعل شيء ثم تدركين أنك قمت بفعل أسلوب أمك نفسه. أحياناً تكون هذه تجربة لطيفة. لاحظت امرأة بعد موت أمها بمدة أنها تمسك السكينة وتقطع البصل بطريقة أمها، حتى أنها تمسح الطاولة

بنفس طريقة أمها. لقد وجدت هذا مريحًا لأنه أعطاها الشعور بقرب أمها. لكن هناك أيضًا أوقات تجد فيها المرأة نفسها تفعل أو تقول شيئًا ثم تتراجع عنه، لأنه قد أعاد إليها ذكرى تصرف أمها الذي لم يكن محببًا لها.

وزيادة على مقياس البعد والقرب هناك مقياس لا مفر منه وهو مقياس التشابه والاختلاف. وهذه جمل دائمًا ما تحوم فوق كل سؤال في كل دقيقة: أمي وأنا.. أو أنا وابنتي.. متشابهتان أو مختلفتان؟ وماذا يعني هذا التشابه أو الاختلاف لنفسي ولحياتي.

رددي من ورائي

أخذت «جانيت» ابنتها «نتالي» ذات الثلاث سنوات لزيارة أمها التي كانت تتعافى في المنزل بعد جراحة. عادت الجدة من غرفتها بعد محاولتها أخذ قسطًا من الراحة، سألت جانيت أمها بقلق: «هل استطعت أن ترتاحي يا أمي؟ لم تستطع جانيت وأمها كتم ضحكاتهن عندما سمعن نتالي ذات الثلاث سنوات تردد السؤال بالنغمة الملطفة نفسها: «جدتي.. هل استطعت أن ترتاحي؟» أم أخرى قالت إنها سمعت ابنتها الصغيرة تتحدث على هاتفها اللعبة وتقول بصوت عذب طفولي» مرحباً.. إنه لطف منك أن تتصلي». ضحكت الأم من تقليد ابنتها المطابق لصوتها على الهاتف، وكيف أنها ميزت العبارة التي تقولها عندما تكون غير مسرورة بالحديث مع الشخص المتصل.

إنه من المضحك أن يقلد طفل صغير صوت أمه لكن عندما تقلد البنت الراشدة أمها بالضبط فهذا يكون مشهدًا مسلياً ومصدر متعة للمتحدثين في بعض الأحيان.

خلال حفلة دراسية تمكنت تلميذتي جينيفير ميكفادن من التقاط الأسلوب السابق على شريط مسجل، وكجزء من مشروع بحث قامت بتسجيل حوارات هاتفية دارت بينها وبين أمها. وجدت حينيفير أن التحية التي يفتتحون بها المكالمة تبدو وكأنها آلتا عزف تعزفان اللحن نفسه. مثلاً، حدث هذا التبادل عندما قامت جينيفير بالاتصال بأمها وقالت: «هاييييي ماميييي». ناطقة بها بنغمة صوت عالية، راسمة المقاطع اللفظية الأخيرة بنغمة مميزة. أجابت أمها: «هاييييي جينيييي». بنفس درجة الصوت تمامًا، وبنفس الإيقاع والنغمة المنحرفة. «كيف حالك؟» سألت جينيفر مستخدمة نفس النغمة العالية في آخر عبارتها. ومرة أخرى كانت إجابة الأم صدى مثاليًا لأسلوب تعبير ابنتها فقالت: «أنا بخير، كيف حالك أنت؟» وأخيرًا قالت جينيفير: «أنا بخيييير». ناطقة بها بلحن متعرج وفريد. وهذا الأخير التقى بنفس الترنيمة والإيقاع.. «جيّييييد». وبعد هذا بدأ الحوار.

هناك شعور جميل يعيد الطمأنينة للنفس عندما تبدأ التحية بدون عقدة أو تشابك. ويكون سارًا للغاية عندما يتبادل الطرفان نفس طريقة الأسلوب الفريدة و نفس التكرار تمامًا كما حدث بين هذه الأم وابنتها.

كان مثال جينيفير ملفتًا للنظر، لأن صوتها وصوت أمها تطابقا تماماً كورقة كربون. وإذا بدا هذا غير طبيعيٌ فإن هناك الكثير من الأمثلة حيث تتشابه الأم وابنتها. وهذا ليس مفاجئًا، لأن الأمهات يمثلن نموذجًا للبنات في طريقة الكلام و استخدام اللغة للتفاوض في العلاقة ومع العالم. وكنتيجة فإن البنات يصبحن كالمرايا التي تعكس أسلوب ومظهر الأمهات ووجهًا آخر للطريقة التي تمثل كل منهما الأخرى. أحياناً يعجبك ما تسمع

وما ترى، وأحياناً لا يعجبك. في كلا الحالتين فإن رؤية أمك أو أختك متمثلة في نفسك، أو نفسك متمثلة بأمك يجعلك تتوقفين وتفكرين بحقيقة نفسك وتتساءلين عن حقيقة من أنت.

قامت فيفيان كورانيك بإثبات هذا في مذكراتها «الرباط الرهيب» حيث سردت الطرق التي تجعلها تشبه المرأة التي ربتها، تذكرت كيف أن الجارة قالت لها يوماً: إن صوتها يشبه صوت أمها - عندما قالت - مقلدة عبارة أمها-: «هذا سخيف». وكيف أنها كانت تمتص خصائص كلمات أمها. وزيادة على هذا فقد امتصت أيضا عادة أمها في نبذ الجميع واعتبارهم غير ناضجين. وكلا التعبيرين ـ الأسلوب والافتراض ـ بليغين. قالت فيفيان:

«ابتسم والدي عندما وصفت أمي الجيران «غير ناضجين» هل كان اعتقادها من باب الزهو والغرور أو من باب التدليل. لم أعرف أبداً. وقف أخي محدقًا بدون أي تعبير وقد اتخذ الحذر أسلوبًا له منذ كان في العاشرة. لكني امتصصت الشعور في كلمات أمي. تشربت كل إيماءة مصاحبة وكل حافز وكل نية. أمي تعتقد بأن كل الأشخاص من حولنا غير ناضجين. وأن معظم ما يقوله الجميع سخيف. انطبعت هذه الفكرة برأسي تمامًا كما تنطبع الصبغة على المواد».

كانت فيفيان متقبلة لانطباع كلمات أمها بينما لم يتقبلها الأخ. ولم تكن راضية عن اكتشاف هذا الوجه من شخصية أمها. (ومن الواضح أن تعليق الأم عن الجيران لم يكن يعني الرضا أيضاً).

إن الأم تعلم أن اكتشاف البنت لأوجه شبه من شخصية أمها فيها لا يشعرها بالراحة، وهذا ربما يفسر عدم رضا الأم عند اكتشافها بأن

ابنتها تقوم بعمل الأشياء بطريقة مختلفة عنها. إن هذا الاختلاف قد يرسل ـ رسالة خفية ـ بالنبذ تعني: «أعتقد أن الطريقة التي تقومين بها خاطئة». وبعض هذا النبذ منطقي. لطالما سمعت كثيرًا من النساء تقول إنها تقوم باتخاذ قرارات مهمة في الحياة فقط حتى تكون مختلفة عن أمها. (بالرغم من اعترافها اللاحق بأنها تحترم خبرات أمها). مثلاً سمعت تعليقات كهذه «عندما رأيت الاختلاف بين أمي وأبي أخذت عهدا على نفسي ألا أفعل هذا أبداً». أو «كل أمهات صديقاتي كن نساء يشغلن مهنًا ووظائف وأمي كانت ربة بيت، لم أرض عن وضعها وقد عزمت على أن يكون لي وظيفة».

إننا متشابهتان

كنت أتكلم مع مجموعة نساء وكان موضوعنا الأمهات والبنات، فقالت واحدة عن ابنتها المراهقة: «إننا غالباً ما نتفق على معظم الأشياء، لكن التوتر يحدث بسبب اختلاف جوانب شخصياتنا. فهي مبدعة جدًا لكنها أيضًا غير منظمة بتاتًا وفوضوية. وأنا منظمة بشكل كبير في كل شيء». قالت الأخرى: «أنا أعاني من مسألة أخرى. فان ابنتي تشبهني تمامًا.. تفعل الأشياء بنفس أسلوبي. إن هذا يصيبني بالجنون. إنه تمامًا كما قطبي المغناطيس، لن يلتقيا أبدًا». قالت ثالثة «إن أمي مثالية. وأنا أستعيد هذه المثالية».

ذكرت النساء اللاتي تحاورت معهن كيف أنهن مثل أمهاتهن وبناتهن أو «عكسهن». ولتفسير هذا التناغم أو التنافر قالت امرأة -وهي تشرح سبب اتفاق علاقتها مع ابنتها-: «ربما لأنها مثلي. لقد قيل: لي من قبل

إن مشيتنا متشابهة وأصواتنا واحدة على الهاتف، حتى أننا نلبس المقاس نفسه». امرأة أخرى شرحت لماذا لم تتفق كثيراً هي وابنتها فقالت: «إنني أبدو وابنتي أننا نتصارع ونتشابك دائماً بقروننا لأنها مثلي ـ معقدة ـ». قالت أخرى: إنها منزعجة من طرق التشابه بينها وبين ابنتها:«أنا أرى إزابيل تربي أطفالها بأسلوبي نفسه، إنها قاسية. مثلاً هي تصر على أن يأكلوا كل ما تضع في أطباقهم، بالرغم من أنني فعلت هذا معها لكني لا أطيق أن أراها تفعل هذا معهم».

إننا جميعا نقارن أنفسنا بأفراد عائلتنا، لا نقارن فقط بآبائنا ولكن بإخواننا وأولاد أعمامنا أيضاً. لكن السؤال ما زال هو: «هل نحن فعلاً متشابهتان؟» إن هذا السؤال جوهري وأساسي في حياة النساء الاجتماعية أكثر مما هو في حياة الرجال. لأن معظم طاقة البنت العاطفية مركزة على المراقبة والإرشاد وعلى مفاوضة الحلفاء (من معي ومن علي؟) بالمقابل فإن الأولاد غالباً ما يركزون على الحالة والدرجة في المجموعة (من في الأعلى ومن في الأسفل؟) وهذه الفروق واضحة في مقارنة قمنا بتسجيلها في فيلم بين أولاد وبنات يلعبون بغرض التدريب المهني. لقد سجلت الكاميرا أطفال روضة يلعبون، ومن خلال مقطعين قصيرين كانت الكاميرا قد التقطت بوضوح النمط المختلف الذي يفرق بين حديث البنين والبنات أثناء اللعب. في المقطع الأول يتحدث ثلاثة بنين عمن يستطيع أن يركل الكرة للأعلى، ومن الواضح أنهم كانوا يستمتعون بالمنافسة اللفظية. كانوا يضحكون بابتهاج كلما رفع أحدهم الكرة أعلى من الآخر. وفي مقطع مختلف تجلس بنتان على طاولة صغيرة ترسمان. عندما رفعت واحدة منهن رأسها وقالت بلغة الأطفال: «تعرفين مربيتي، اسمها آمبر، هي عندها عدسات لاصقة».

ترددت البنت الأخرى ثم قالت بنفس اللغة: «أمي عندها عدسات لاصقة، وأبي أيضاً». ثم عادوا إلى الرسم لكن بعد بضع ثوان رفعت البنت الأولى رأسها وأشرق وجهها وصرخت: «الشيء نفسه؟» وقد بدت مبتهجة لهذا التشابه تمامًا كابتهاج الأولاد بفوزهم على بعضهم. حتى البنت الثانية رددت نفس صيغة الجملة وهو نمط آخر لإظهار أنها مثلها.

قد سمعت قصصًا لا تحصى من آباء عن بناتهن وكيف أن البنات تريد من الآباء أن يكونوا تمامًا كالصديقات، وتود لو أن كل واحد من العائلة مثلها خصوصًا أمها. علقت أم بينما كانت تتحاور مع ابنتها ذات الثمان سنوات: «إننا شخصان مختلفان». فاعترضت ابنتها بقوة وقالت:كلا، إننا متشابهتان». وعندما حافظت الأم على هدوئها سألت البنت:«كيف نكون مختلفتين؟» فقالت الأم: «أنا أكبر». فألغت البنت رأي أمها ببراعة وقالت: «هذا مؤقت». فقالت الأم: «أنت دكتاتورية». وقد كانت البنت مستعدة فقالت: «عندما كنت صغيرة كنت دكتاتورية مثلي». تفادت الأم الضربة وقالت: «لكني نضجت ولم أعد كذلك». وردت البنت وقالت: «وأنا أيضاً سأنضج ولن أكون كذلك». لم تكن هذه الطفلة لتستسلم فقد كانت مصممة على أنها وأمها متشابهتان. وعندما تكون النساء بالغات فإن طرق الكلام التي يستخدمنها غالباً ما تعكس قيمة هذا التساوي أو التشابه بدون إدراك مقصود. لاحظ تلميذي مايك لال موقفًا غريبًا عندما دخل مبنى الجامعة مع أحدى زميلاته وكل منهما يحمل حاسوبه الصغير داخل حقيبه. وفي أثناء ذلك مرا بجانب صف من الطلاب ينتظرون دورهم لاستخدام حواسيب الجامعة. سلمت زميلة مايك على إحدى صديقاتها الواقفات، فقالت الصديقة: «إن علي رؤية بريدي الإلكتروني». فأجابت

زميلة مايك «إن علي رؤية بريدي الإلكتروني أيضاً. واستمر مايك وزميلته بالسير. سأل مايك لاحقًا زميلته لماذا لم تنضم إلى زميلاتها بالوقوف بالصف فأجابته أنها لم تكن حقًا تريد رؤية بريدها الإلكتروني. فسألها مايك: «لماذا إذًا قلت إنك تريدين؟» فردت: «لا أعرف».

إن السبب الذي لم تعرفه زميلة مايك هو أنها لم تفكر بشكل كامل بردها على تحية صديقتها ولم تعني ما قالته بالحرف. لكن جاء تعليقها بطريقة أوتوماتيكية وعفوية كطريقة مناسبة لإظهار النية الحسنة تجاه صديقتها بقول: «أنا مثلك أيضاً». وبالنسبة للبنات والنساء فإن التأكيد على التشابه طريقة لتعزيز وتقوية الرباط».

كثير من الحوارات التي تدور بين النساء مصممة لكي تعيد التأكيد بالتشابه والطمأنينة لبعضهن البعض. إذا قالت امرأة على سبيل المثال: «أنا دائمًا أقوم بتضييع أغراضي». فإن الأخرى على الأرجح سترد: «وأنا أيضًا». وربما تزيد وتقول: «هذا الصباح أمضيت عشر دقائق وأنا أبحث عن مفاتيحي». إن الشعور بأن شخصًا قريبًا ومحبًا يشاركك نفس التشابه يعطيك الإحساس بالرضا. ورسالة التذكير بالعادات المشتركة والإدراك الحسي ترسل رسالة خفية بأنك من المجموعة الصحيحة. ولهذا تضطرب كثير من النساء عندما ترفض إحداهن بالرد: «وأنا نفس الشيء». لنفترض أن امرأة قالت: «أنا دائمًا أقوم بتضييع أغراضي». وردت الأخرى: «لماذا لا تنتبهين بشكل أفضل إلى المكان الذي تضعين فيه أغراضك؟». ربما ترد الأولى وتقول: «لا تلقي علي النصائح». والسبب الذي أغضبها في هذا الرد هو الفشل في تلقي الطمأنينة والتأكيد بالتماثل المتوقع.

هنا مثال لامرأة انزعجت من فشل صديقتها في قول: «أنا مثلك». وهو أيضاً يوضح كيف أن البنت تتبنى أسلوب أمها في الحديث بدون وعي. كانت نورما تخبر صديقتها سوزن عن زيارة أمها لها فقالت: «كانت أمي تتذمر طيلة الوقت. خلال الخمس دقائق الأولى من نزولها من الطائرة كانت قد اشتكت من الرحلة، وكم كانت متعبة، وكم كانت الطائرة مكتظة». واستمرت نورما في السرد لصديقتها كيف أن أمها قد ضربت كل عصب ووتر، وسببت لها هستيريا. وقد توقعت أن سوزن ستقول شيئاً كهذا: «أنا أعرف طبيعة الأمهات هذه». أو حتى: «أمي فعلت الشيء نفسه عندما زارتني أيضاً». لذا فقد تفاجأت نورما عندما ردت سوزن وقالت:«إن أمي لا تتذمر أبداً، حتى عندما ينزل المطر فإن أمي تقول.. إن الشمس ستشرق غداً. وحتى وإن قامت بشيء مزعج فإني لا أستطيع أن أستخدمه ضدها لأن نيتها طيبة». وهذا جعل نورما تود الدفاع عن أمها وتسأل نفسها لماذا كانت تتكلم عنها بعدم احترام.

عندما فكرت بهذا المثال أدركت أن نورما وسوزن كانتا تتكلمان بالطريقة نفسها التي وصفن أمهاتهما بها. إن نورما كانت تحاول التواصل مع صديقتها من خلال الشكوى تماماً كما كانت أمها تحاول أن تفعل عندما كانت تشتكي لابنتها. وسوزن كانت تضع لفته إيجابية على كل فعل قامت به أمها، حتى عندما اعترفت أن هناك جوانب من تصرفات تزعجها ـ وهو تمامًا الأسلوب نفسه الذي كانت تصف أمها به».

لا تقولي إننا متشابهتان

بالرغم من أن كثيراً من النساء تتوقعن ويقدرن تجارب التشابه والتماثل، فإن التأكيد على التشابه أحياناً من الممكن أن يكون محبطاً

خصوصاً إذا أتى من الأم. اعتقدت واحدة من الأمهات أنها كانت مستمعة جيدة ومساندة لابنتها عندما أكدت لها وقالت: «أعرف ما تعنين». واستمرت في وصف تجربتها وكيف أنها تطابقت مع تجربة ابنتها. لكن في يوم من الأيام أوقفتها ابنتها وقالت: «توقفي عن القول بأنك تعرفين شعوري لأنك مررت بالتجربة نفسها، أنت لا تعرفين. إن هذه تجربتي أنا والعالم مختلف الآن». والأم تستطيع رؤية هذا بوضوح، فعندما كان العالم يتغير بصورة أبطأ كانت تجارب الآباء قريبة وشبيهه بتجارب أبنائهم أكثر من وقتنا الحاضر. لكن الجانب الآخر الذي أزعج البنت وبدون شك هو شعورها بتعدي أمها على حقوقها وحرمانها من التفرد بالتجربة بمفردها وبمعنى آخر ـ تقديم الكثير من التشابه.

وهناك حالة أخرى من الممكن أن تعترض البنت على تعبير أمها التقليدي «أنا مثلك». وهو عندما تقول المرأة شيئاً سلبياً عن نفسها، فعليها أن تتوقع ألا يوافق معها الطرف الآخر على التقييم السلبي، بل ومن الممكن أن يرفض وينكر التقييم. وفي هذه الحالات فإن التعبير «أنا مثلك» من الممكن أن يكون محبطاً. وعندما يأتي هذا النوع من العزاء من الأم يكون الألم مضاعفًا. تتذكر باربرا الملاحظة القديمة التي قالتها لأمها:» أنا تقريبًا أجيد عمل معظم الأشياء لكني لست بارعة في عمل شيء معين.» وكانت إجابة أمها ختمًا لقسمتها فقالت: «هذا تماماً مثلي، أنا أعرف كيف تشعرين. لطالما وددت أن أكون بارعة في شيء لكني لم أفعل». هذا الرد كان بالنسبة لباربرا كتأكيد على نقصها وعدم كفاءتها وإصدار حكم ضدها بالعيش في حياة غير لائقة.

هل اعتقدت أم باربرا فعلاً أنها كانت تقدم السلوى والعون لابنتها من خلال التأكيد على أنها لم تبرع في عمل شيء معين وبذلك تؤكد تقييم ابنتها السلبي لنفسها؟ باربرا والتي كان لديها حياة مهنية ناجحة شعرت أن أمها حقا تمنت لو أن ابنتها كانت مثلها ـ ربة بيت ـ بدون حياة مهنية تجعلها تتميز في شيء معين. عندما بدأت حياة باربرا بالانحراف عن حياة أمها (كدراستها في الجامعة و حصولها على درجة الدكتوراه وبروزها في مجالها). شعرت بأن أمها رأت اختياراتها كخيانة. باربرا نفسها شعرت بأنها كانت تنبذ أمها لأنها لم تكرر أسلوب حياتها كما فعلت أختها. لقد كانت حياة أختها مماثلة لحياة أمها، وقد أوضحت الأم أنها تفضل التحدث لأخت باربرا فقد قالت مرة: «أسير أنا وأختك في طريق واحد الآن، ولم تعودي أنت معنا». إنه من العجيب كيف اختارت باربرا التعبير عن قبول أو رفض أمها للإشارة للشخص الذي تفضل الحديث معه. والحديث كما هو بالنسبة لكل البنات والنساء يمثل القبول والحب.

ترفض كثير من النساء توقع أمهاتهن بأن يكن نسخة لهن. قامت تلميذتي لورا رايت بعمل مقابلة مع امرأة تدعى لين لغرض البحث وشرحت فيها علاقتها مع أمها فقالت: «إننا شخصيتان مختلفتان ولمدة طويلة اعتقدت أننا متشابهتان، والآن إنه من الصعب علي أن أعبر عن اختلافنا ومن الصعب عليها تقبل ذلك. أعتقد أنها كانت تحاول طيلة الوقت نحت شخصية مصغرة منها». من وجه نظر لين فإن تخمين أمها بأن ابنتها تشبهها جعل من الصعب على الأم رؤية شخصية البنت على حقيقتها، لأن حقيقتها تختلف عن أمها وهذا يصنع المسافات بينهن.

امرأة أخرى أخبرتني عن عبارة رائعة و زاخرة بالمعنى تعبر فيها لأمها عن نفس الموضوع وهي: «مع كل احترامي.. أنا لست أنت».

افعلي ما لم أفعل

إن رغبة الأم في أن ترى حياة ابنتها نسخة مكررة من حياتها لا يعني بالضرورة أن ترسل الرسالة التي تقول: «افعلي ما فعلت». بل ربما تجعلها ترسل رسالة مناقضة: «افعلي ما لم أفعل». عبرت كثير من النساء ذوات المهن والحياة المحترفة بأن أمهاتهن لطالما قمن بتشجيعهن وتحفيزهن على إيجاد عمل ومهنة يبرعن بها ويستمتعن بأدائها، وأن يتأكدن من قدرتهن على إعالة أنفسهن. كل هؤلاء النساء قلن إن أمهاتهن كن نساء مبدعات، موهوبات، قادرات وصغيرات في السن، تركن العمل أو الفن الذي أحببن عندما تزوجن ـ وكن محبطات لبقية حياتهن. وتماماً ككل أشكال التفاعل الاجتماعي فإن هذا يمكن ترجمته بشكل سلبي أو إيجابي. إن الجانب الإيجابي من هذا التوقع عبرت عنه إريكا جونغ والتي كتبت تقول: «إن أمي أرادت مني أن أكون الجناحين اللذين لم تحظ بهما لتطير حيث لم تملك الجرأة أبدًا لفعل ذلك. إنني أحب ما فعلت، أحب حقيقة أنها تود ولادة جناحيها». لكني أيضاً سمعت من نساء أحسسن بذنب عميق لأن أمهاتهن قمن بتضحية كبيرة في سبيل تربيتهم. وبعضهن شعرن بأن عليهن النجاح كرد الجميل لهذه التضحية. وكما عبرت إحداهن: «شعرت أنها عاشت من خلالي».

إذا كانت البنت تتصارع مع المعنى المقصود للتشابه والاختلاف مع الأمهات، فهي أيضاً تتصارع مع رغبتها في ما إذا كانت تريد أن تكون مثلها أم لا.

أم لشابين بالغين أخبرتني أنها أرادت وبشدة أن تكون مختلفة عن أمها لدرجة أنها لم تكن تريد أن تكون أماً على الإطلاق، قالت: «لم أود أبدًا أن

أكون أماً. ثم أدركت أن السبب يكمن في خوفي من أن أكون مثل أمي والتي لم تتواصل معي أبداً. ثم علمت أنه ليس علي أن أكون مثلها ـ ولم أكن أبداً». (ومن السخرية أن الأمومة قد بنت الجسور بينهما، فقد أخبرتني أنها وأمها أصبحتا قريبتين من بعضهما بعد أن بدأت الأم في مساعدة ابنتها عند ولادة طفلها الأول).

تقارن كثير من النساء بينها وبين أمها عند محاولتها اختيار أي نوع من الأمهات تريد أن تكون. إذًا كانت هذه المرأة قد شعرت بأن أمها لم تتواصل معها بالشكل الكافي فإن أخرى قد قالت: إن ابنتها تتواصل بشكل زائد. وعلقت أنها أحيانًا تشعر أن ابنتها الراشدة تفضي بمعلومات شخصية: «إنه ليس على الأم معرفة تفاصيل كثيرة كالحياة الجنسية لابنتها». وامرأة أخرى ذكرت أن كثيراً من البنات أخبروها أن الأم دائماً ما تريد معرفة الكثير من المعلومات عن حياتهن الجنسية، ولهذا قالت: «بالفعل! لقد كانت أمي تطفلية كثيراً، كانت تقرأ مذكراتي. أرادت أن تعرف كل شيء. ولهذا فقد رفعت حائطاً بيني وبينها وأصبحت شخصية خصوصية». هذا مثال لجيل يحاول القفز فوق جيل آخر، حيث تجاهد كل بنت لأن تكون مختلفة عن أمها.

لا تستطيعين أخذي معك

وباطلاعنا على كل هذه الأمثلة والتي رأينا من خلالها كيف أن البنت لديها دوافع بالرغبة على عدم التشابه مع الأم. فإن الأم ربما تكون على صواب عندما ترى خيارات ابنتها المختلفة عنها على أنها عيب ونقد. والأم ربما ترفض اختيارات ابنتها فقط لأنها لا تفهم هذه الاختيارات. وأعتقد كانت هذا الحال مع أمي.

أتت أمي لزيارتي بعد مدة بسيطة من انتقالي لواشنطن.د.سي. وعندها كنت قد بدأت بالعمل في التدريس في جامعة جورج تاون، وكنت متحمسة للغاية لكي أريها بيتي الجديد و أن أقدم لها حياتي الجديدة. لم تكن أمي راضية عن ثورتي في أيام صغري. وقد كانت شديدة الاضطراب عندما انتهى زواجي الأول الذي دام ست سنوات. وخلال هذه السنوات كنت قد درست في الجامعة وحصلت على درجة الدكتوراه. الآن أصبحت أستاذة جامعية، وبوضوح كنت قد جعلت من حياتي شيئاً أفتخر به ـ ولقد علمت أنها ستفتخر بي أيضاً. وعندما كنت أريها حرم جامعة جورج تاون ومكتبي الذي يحمل اسمي على الباب ومؤلفاتي التي على الرف بدت أمي راضية ومسرورة. ثم سألت: «هل تعتقدين أنك كنت تستطيعين تحقيق كل هذا لو أنك بقيت متزوجة؟».

«بالطبع لا». أجبتها «لو بقيت متزوجة لما كنت رجعت للجامعة وأكملت دراستي وحصلت على الدكتوراه». أجابت «حسناً.. لو أنك بقيت متزوجة لما كان عليك القيام بكل هذا». ـ ضربة مؤلمة ـ وبطريقتها الاعتيادية واللامبالية فإن أمي صورت كل إنجازاتي على أنها أشياء تافهة لم تكن لي حاجة بها.

لقد سردت هذه القصة مراراً وتكراراً متأكدة بأني أستطيع أن أعتمد على المستمعين بأن يلهثوا لهذا الدليل وهو استخفاف أمي بإنجازاتي المهنية. لكن عندما أفكر بالموضوع الآن فإن أغلب الظن أنها كانت ببساطة تعكس العالم الذي عاشت به، الذي له مقياس واحد وواحد فقط للحكم على النساء ـ هل هي ناجحة أم مثيرة للشفقة ـ و وهذا المقاس هو الزواج.

أنا أتوقع أنها كانت تحاول فهم حياتي التي كانت مختلفة جداً عن أي شيء ممكن أن تتصوره لنفسها. أنا لا أعتقد أنها قصدت تشويه ما عملت وما أصبحت لكن العدسة التي ترى بها العالم لا تستطيع أن تشمل وتطوق الطريق الذي اخترته أنا. وبالرغم من أني أؤمن بأن الحقد لم يكن دافعها ومع ذلك فقد شعرت بالحزن لأن أمي لم تدرك التقديرات المهنية التي حصلت عليها ولأنه لم يكن لديها أدنى فكرة ماذا يعني أي منها.

كثير من القصص التي تقصها النساء هي برهان على عدم تقدير أمهاتهن أو حتى اعترافهن بالنجاح الذي تثمنه البنت في حياتها، خصوصاً في دنيا العمل.

إن التعليقات أو الأسئلة والتي يكون مرحباً بها في سياق غير هذا من الممكن أن تكون مزعجة إذا بينت أن أمك تركز على شيء غير الذي تركزين عليه أنت. وهذا يفسر ردة فعل ليسلي لسؤال أمها، فقد أدارت لسيلي بعينيها وهي تقول: «عندما أخبرت أمي بأنه قد تم دعوتي لتقديم الافتتاحية حفلة نهاية السنة للشركة التي أعمل بها. وأني قمت بعمل ذلك بشكل جيد. سألتني أمي: «ماذا لبست؟» وفكرت بداخلي من يهتم بما لبست؟ في الحقيقة ليسلي اهتمت، فلقد أمضت وقتاً طويلاً في محاولة إيجاد اللباس المناسب ـ وغير الرسمي ـ حتى تستطيع أن تحضر به الحفل. لكن ليس باللباس اللامبالي والذي من شأنه أن يعطي انطباعاً غير جدي لزملائها في العمل. إن تركيز أمها على اللباس يبدو كما لو أنه يلغي شرف أنه قد تم اختيارها وأنها أنجزت عملاً جيداً. إن سؤال أمها بدا وكأنه قد قام بقطع هذه الإنجازات وقطع معه شعور ليسلي بالنجاح المهني.

«جوون» كان لها تجربة مشابهة. كانت قد شعرت بالسرور عندما علمت أن المؤتمر الأكاديمي الذي ستقدم فيه بحثها سوف يقام بالمدينة نفسها التي يعيش بها والدها. وقد قامت بدعوتهما لحضور محاضرتها. كانت قد استبقت بلهفة شعور والديها بالفخر بها، ولرؤيتها في المحاضرة تخطب في جمهور كبير ومنتبه.

حضر والدا جوون بالفعل وعند انتهاء المحاضرة تقدما نحوها بابتهاج وقال والدها: «لقد كنت رائعةً يا عزيزتي إنه لمن العجيب كم من المعلومات تعرفين». قالت أمها: «لقد كان مظهرك رائعًا باللباس الأسود». ويمكننا اعتبار كلا التعليقين مدحًا. لكن كان تعليق أمها قد خيب ظنها بطريقة ما.

إن أم ليسلي وجوون قد تكلمتا ببساطة بالطريقة التي تعودن عليها، تعودن التواصل مع بناتهن من خلال اهتمامات مشتركة بالملبس والاهتمام بالمظهر. إن ما يجعل هذه الإجابات مؤلمة هو ألفتها وعدم الكلفة في قولها، فبينما كانت ليسلي وجوون تقدمان أنفسهما لأمهاتهما بهيئة جديدة وكانت الأمهات تنظر للبنات بالهيئة القديمة. وهذا هو سبب الغضب.

وعندما يحصل المدح بالطريقة القديمة يفسر أيضًا انزعاج امرأة أخرى من أمها. فقد كانت أم إيميلي تزور ابنتها عندما علمت الابنة أن الطلب الكبير الذي قدمته لمكتب الحكومة قد اعتمد بالموافقة. كانت هذه حادثة مهمة في حياة إيميلي المهنية. وإيميلي كانت سعيدة بأنها تستطيع إبلاغ الخبر لأمها. وعند سماع الخبر قالت الأم: «هذا الخبر يستحق قبلة». بالرغم من أن أمها تجاوبت بالموافقة ـ والقبلة هنا هي جائزة لعمل تم على أفضل وجه ـ إلا أن إيميلي شعرت أن القبلة لم تكن مناسبة لأهمية

وطبيعة الخبر والفوز بجائزة تنافسية عالية. إن القبلة ربما تكون مناسبة لطفل تلقى نجمة من مدرس الفصل لكتابته الفروض الدراسية. وهي تهنئة ليست لائقة لعاملة تلقت تقديراً وتمييزاً مهنياً. غرق قلب إيميلي، وشعرت أن أمها قد قللت من أهمية الخبر. على الأرجح كانت أمها تعتقد أنها تظهر لها التقدير وتشاركها الفرحة، لكن نظرة العلم كانت قد أزيلت من خبرتها وببساطة لم تعلم الطريقة المناسبة للتجاوب. لقد تجاوبت معها كتجاوب أم مع ابنتها بأساليب كانت متبعة عندما كانت إيميلي صغيرة.

اهبطي إلى هنا هذه اللحظة

خيبة ظن امرأة أخرى تجاه ردة فعل أمها تبدو وأنها تنبع من مصدر مختلف ـ الغيرة التي تأتي مع القرب ـ أظهر عالم النفس أبراهام تيسير أنه كلما كان الناس أقرب إلينا زادت فرصة مقارنة أنفسنا بهم. وإذا شعرنا بأننا نبدو أسوأ من خلال المقارنة فإنه سينتهي بنا الأمر إلى الشعور بالسوء تجاه أنفسنا. وطريقة جيدة لتفادي هذا الشعور غير المريح هي التقليل من الاختلاف والذي يستلزم عادة التقليل من إنجازات الآخرين.

الكاتبة آنجلا مازالت تتذكر الإحباط والألم الذي شعرت به عندما نشرت قصتها القصيرة لأول مرة في مجلة صغيرة. في لحظة وصول المجلة بالبريد بدأت آنجلا بتخيل مشهد رؤية أمها للمجلة. وفي الزيارة التالية أسرعت آنجلا للمطبخ حيث وجدت أمها تغسل الأطباق. وبدون أن تنتظر أمها أن تجفف يديها من الماء حملت آنجلا المجلة أمام عيني أمها معينة الصفحة على القصة التي كتبتها والتي طبع اسمها عليها. جففت الأم يديها بالمريلة وأخذت المجلة من يدي آنجلا وتفحصتها وقالت: «كيف

يمكن لأي شخص أن يشتري مجلة كهذه؟ لن يتمكن أحد من إيجادها. من سيقرؤها؟» ومع هذه الكلمات تقاطر حماس آنجلا إلى الأعماق كما تقاطرت مياه الأطباق المغسولة إلى أعماق المغسلة.

ظنت آنجلا أن توقيتها كان سيئاً، فلم يكن عليها مفاجئة أمها في المطبخ. وفي المرة التي تليها أخذت آنجلا حذرها عند تقديم مجموعة القصص الجديدة التي نشرت لها حديثاً. كتاب حقيقي هذه المرة يحمل اسمها على الغلاف. بينما كانت آنجلا تزور والديها انتظرت اللحظة المناسبة، وقد اعتقدت أنها وجدتها عند انتقال والديها من غرفة الطعام إلى غرف المعيشة بعد تناول العشاء. والدها كان يقرأ كتابًا وأمها كانت تقرأ صحيفة. ذهبت آنجلا إلى الطابق الثاني لإحضار الكتاب وهذه المرة لم تسرع، ثم عادت ومعها الكتاب وقدمته لأمها، وعلقت الأم بعد النظر إلى الكتاب أن هناك مقالاً في الجريدة التي كانت تقرأ عن ربة بيت جنت الكثير من المال من كتابتها للقصص الرومانسية. وقالت: «لماذا لا تكتبين كتاباً كهذا؟ على الأقل سيكون عندك شيء ترينه للناس».

أنجلا تعتقد أن أمها قامت بتقليص إثارتها وحماسها بهذه الطريقة لأنها شعرت بالغيرة من إنجازات ابنتها في العالم الكبير. حتى وإن كانت أمها هي التي شجعتها على السعي وراء هذه الإنجازات. إن مذكرات فيفيان كرونيك تحمل إشارات لمعرفة السبب الذي يجعل بعض الأمهات تتجاوب بهذه الطريقة مع نجاح بناتهن.

كانت كرونيك وأمها تمشيان معًا بعد يوم فقط من استماع أمها لمحاضرة كانت قد ألقتها كرونيك بشكل فعال أدهش الجمهور الكبير والمتفتح. فكتبت كرونيك: «أنا أتوقع بالضبط ما ستقوله». إنها على وشك

أن تخبرني كم كنت رائعة في ليلة الأمس. ثم تفتح الأم فمها وتقول: «خمني من رأيت في المنام البارحة؟ صوفي شوارتزمان!»

جفلت وفقدت توازني.. إنني لم أتوقع هذا. قلت: «صوفي شوارتزمان؟» لكن تحت المفاجئة كان الشعور بالفزع والرهبة ينمو كنمو حبة القمح في يوم مشرق وساطع.

شرحت كرونيك أن صوفي الجارة المتوفاة من عشر سنوات لها أولاد قد حققوا إنجازات لا بأس بها. فابنها أصبح مؤلفاً موسيقياً مشهوراً وابنتها فرانسيس تزوجت من رجل غني. وهذا وصف الأم للحلم الذي رأت: «حلمت أني كنت في منزل صوفي ثم دخلت ابنتها - وكانت قد كتبت كتابا، وطلبت مني قراءته وفعلت ولم أتحمس كثيراً للكتاب، أغضب هذا فرانسيس كثيراً، وأخذت بالصراخ على أمها .. لا تدعيها تأتي إلى هنا أبدًا». لقد شعرت بالاستياء.

وصفت كرونيك التأثير الذي تركه كلام أمها عليها: «إنني أشعر كما لو أنني كنت أجر أثقالاً من الرصاص، إنني أعاني، حتى إنني لا أستطيع أن أضع قدمًا أمام الأخرى». لقد ازدرتها أمها واستخفت بها ليس فقط عندما أهملت مدح عملها المتألق، لكن أيضًا عندما أخبرتها عن الحلم الذي تكره فيه كتاب البنت. بالرغم من أنه في الحلم كانت البنت ليست ابنتها. إن أثقال الرصاص في أقدام كرونيك ثقيلة بخيبة الأمل في تجاوب أمها الميئوس منه. لماذا قاومت أم كرونيك (أو أم آنجيلا) إغداق ابنتها بالمدح والتعبير الحماسي عن القبول لنجاح ابنتها. من المتوقع أنه كان من الصعب عليها أن تكون سعيدة تجاه نجاح وذكاء ابنتها في المجال نفسه

الـذي تخمد فيـه طموحاتها الخائبـة. وعند معرفتنا لمدى قـرب الأمهات والبنـات وكـم هو مرجـع أن ترى الأمهـات الانعكاس والنبـذ والانحراف لحياتهـن في البنات. فإنه ليس مفاجئاً أن تشعر الأمهات بالغيرة في بعض الأوقـات لأن البنات أنجزن وحصلن على مـا كانت تود الأمهات الحصول عليه ولم يستطعن.

الوحش ذو العين الخضراء في غرفة المعيشة

علقت واحدة من النساء: «أنا مسرورة جدًا أنني أستطيع أن أوفر لابنتي أشياء لم أكن أحظى بها لكنها أحيانًا تغيظني، إنها مازالت في السابعة من العمر وقد زارت الصين وأندونيسيا. إنني مسرورة بهذا لكن أحيانًا أشعر أنها لا تقدر هذا بالقدر الكافي، لا تدرك كم هي محظوظة ـ لكني أدركه لأني أشعر بالغيرة منها. إنه لشيء فظيع أن أعترف بأني أشعر بالغيرة من ابنتي خصوصًا أنها في سن صغيرة جدًا. لكني أعترف بأن هذا ما أشعر به في بعض الأوقات». وبعض البنات يشعرن بهذه الغيرة حتى لو لم تذكرها الأم أبداً.

اتصلـت دانـا بأمها مـن جزر الباهامـا وكانت تصـف بحماس جمال الشمـس والبحر. فقالت أمها: «يبدو رائعًـا. كنت أحب أن أذهب إلى جزر الباهامـا، أعتقد أنه علـي العيش من خلالك». بالرغم من أن أمها لم تقل أي كلمـة تشـير إلى أنها تحسدها على العطلة الساحـرة، إلا أن علمها بأن أمهـا تحسدهـا على حياتها (وقد أقـرت بذلك فيما بعـد) جعل دانا غير مرتاحة. لقد كان عيش حياة أمها و محاولة عدم الشعور بأنها تحمل أمها علـى ظهرها صعبًـا بما يكفي. هنـاك سبب آخر يجعـل الأم في حيرة من

أمرهـا تجاه مغامرات ابنتهـا، فعندما ترى الأم أن ابنتها تعيش حياة أكثر روعة من الحياة التي عاشت فإنها ربما لن تشعر بلمسة من الغيرة فقط بل أيضـاً ستتأكد فكرة أنها أصبحت عجوزًا. وأن الأيام التي كانت تأخذ فيها عطلات رومانسية في جزر الباهاما قد ولت بلا رجعة.

حتى الأمهات اللاتي يشجعن بناتهن على فعل كل ما في طاقتهن للنجاح فإنهن أحيانًا يفكرن بإيقافهن. لأن الإنجازات التي حققتها الأمهات ستبدو حقيرة مقارنة بإنجازات بناتهن. وحياتهن تبدو مملة وفاترة مقارنة بحياة بناتهن الممتعة والمشوقة.

قال عدد كبير من النساء بأن فرحة أمهاتهن تجاه إنجازاتهن ليست خالصة ومحضة. كان هذا الحال مع كاتبة استمتعت بالهتاف والشهرة إلى حد ما. وقالت إنه بالرغم من أن أمها شجعتها دائمًا لأن تقوم بشيء أكبر من تربية الأطفال وأن تنهي تعليمها وتصنع شيئًا من نفسها مع ذلك لم تكن أمها مسرورة من الاهتمام الذي تتلقاه ابنتها الآن، تقول الكاتبة: «إنها دائمًا تعطيني الانطباع بأنه علي إمضاء وقتٍ أكبر في الاعتناء بزوجي وأولادي ووقتٍ أقل لتلقي الاهتمام من العالم الخارجي. أعتقد أنها تشعر بالغيرة مني لأنها كانت تستطيع أن تحقق الكثير في حياتها لو أنها لم تترك الجامعة عندما تزوجت».

إن هناك أدلة وبراهين في البحث النفسي تدل على أن نجاح البنت من المكن أن يشعر الأم بالاستياء من نفسها زيادة على ما كانت تشعر به. قامت كارول ريف وباميلا شمت ويونغ هاين لي بعمل تحقيق في

العلاقة بين نظرة وتقييم الآباء لإنجازات أبنائهم البالغين وبين تقييمهم لأنفسهم. ووفقا لمسح أجري على 114 أمًّا و101 أب (من عائلات مختلفة) والذين لديهم أولاد فوق سن الواحدة والعشرين. قامت النسوة بدراسة تأثير إنجازات الأولاد البالغين في حياة وسعادة آبائهم.

لقد فوجئت الكاتبة بأن الأثر السلبي يكون فقط في حالة الأم والبنت! وبكلمات الكاتبة: «بالنسبة للآباء فإن مقارنة المكاسب والإنجازات مع الأبناء أو البنات لم يتعارض مع تصنيفهم لأنفسهم في الوقت نفسه لم تؤثر إنجازات الأولاد بالأمهات. لكن الأمهات اللاتي أدركن أن بناتهن قد نجحن في حياتهن أكثر منهن كن أقل سعادة». لم تتوقع الكاتبة هذه النتيجة ومع ذلك فإن هذا هو التأثير الحقيقي الذي تشعر به كثير من الأمهات والبنات في الحياة. والذي يعزز الانطباع بأن من بين علاقات الآباء بأبنائهم الأربعة (الأم والبنت، الأم والابن، الأب والبنت والأب والابن) فإن علاقة الأم وابنتها هي أكثر العلاقات التي تحمل ثقلاً عاطفيًا فريدًا.

الاختلاف يساوي البعد

إن الحسد والمقارنة ليست وحدها الأسباب التي تجعل الأم تشعر بمسحة من الندم على تراجع ابنتها رغم أنها تريد حقًا لابنتها التحليق عاليًا. يمكننا أن نرى هذا في الحلم السابق لأم فيفيان كرونيك والذي رأته بعد أن رأت ابنتها تلقي محاضرة عامة يسودها النصر. وفي حلم السيدة كرونيك فإن فرانسيس شوارتزمان صرخت وقالت: «لا تجعليها تأتي إلى هنا مرة ثانية». وهذا ما جعل من الحلم كابوسًا. فإن البنت التي تنتقل إلى

عالم لا تسكنه أمها فهي ببساطة تبتعد مكونة مسافة لا يبنى عليها جسور، وهي أكبر من المسافة الحقيقة والتي ربما تكون بسبب الانتقال إلى خارج المدينة. وهنا مرة أخرى فإن مذكرات كرونيك بالغة الفصاحة. عندما بدأت دراستها الجامعية (والتي لم تدرسها أمها) كتبت كرونيك: «بمرور شهر على ارتيادي هذه الدروس تغيرت جملي وأصبحت طويلة ومعقدة، تتشكل من كلمات لم تكن أمي تعرف معناها دائمًا. لم أتكلم في حياتي بكلمة لم تعرف أمي معناها». هذا أغضب أمها وقد فوجئت كرونيك من غضب أمها فقالت: «لقد كنت أود أخذها إلى العالم الجديد وكل ما كان عليها فعله هو أن تحترم ما قد أصبحت عليه وقد رفضت هي هذا».

إن واحدًا من الأسباب التي قد تجعل الأم لا تحترم ما حققته ابنتها هو عدم مقدرتها على مرافقة ابنتها إلى العالم الجديد التي دخلته كما في القصة الآتية. فقد نشأت امرأة تدعى شيريل في أسرة من طبقة متوسطة في ولاية نيو جيرسي، حاولت شيريل أن تيسر لأمها رؤية العالم الجديد الذي أصبحت تقطن به في واشنطن دي سي، وأن تتشارك هي وأمها به. مثلاً قامت شيريل بأخذ أمها إلى حفلة موسيقية في مركز كينيدي وعندما انتهت الحفلة توقعت بحماس مديح أمها للموسيقى ولصالة العرض الفخمة التي عزفت بها الموسيقى. والشيء الذي قالته أمها كان كالآتي: «عندما كنا نذهب إلى حفلات عيد الميلاد في صالة راديو المدينة كنا نستمتع أكثر من ذلك». سمعت شيريل في هذه الملاحظة تلميح أمها بأن الحفلة في مركز كينيدي للموسيقى كانت مخيبة للظن وهذا بدوره خيب ظن شيريل بالمقابل.

وعندما حاولت شيريل أن تقدم لأمها الأشياء الفخمة والراقية والممتعة والتي باستطاعتها الآن شراؤها وتقديرها اتهمتها أمها بالتعجرف.

والحقيقــة أن أمهــا لم تشعر بالراحة في عالم شيريــل الجديد. فالبنت قد أخــذت درباً لا تستطيع الأم اجتيازه، وليس هناك أي مقدار من الإغراء أو التملــق يمكنه تغيير ذلك. لقد فتــح خليجاً – أو هاوية – بينهم بينما كانت الأم وابنتها تقفان على أرض واحدة في السابق.

لقد أحزن شيريل أن المسافة بين عالمها الجديد القديم قد أحدث مسافة بينها وبين أمها، لأنها في صغرها كانت قريبة جداً من أمها. كانت شيريل قريبة من ابنتها أيضاً لكن القرب لم يأخذ الشكل الذي توقعته: «إن صدمة حياتي كانت أن ابنتي لم تكبر لتصبح مثلي تمامًا».

أي شيء يجعل من البنت مختلفة هو مصدر لقلق الأم. تحدث الكاتب بول بريستون في كتابه «أمي وأبي أصمان»، عن طفلة تستطيع السماع لأبوين أصمين. جرى الحوار بينه وبين امرأة صماء تصف له ولادة ابنتها. تروي المرأة كم انزعجت عندما علمت أن ابنتها المولودة تستطيع السماع فقالت:

«كنت أحملها بين ذراعي قرب عربة الأكل الحديدية، رفعت ملعقة الطعام ورميت بها على العربة لم أصدق ما رأيت! لقد كان مزعجًا حقا، لقد قمت برميها مرة أخرى فقط لأني لم أكن أصدق ما أرى. رميت بالملعقة ثانية وثالثة وكان الشيء نفسه. يا إلهي إنها تسمع!! ماذا عساي أن أفعل؟ إن لدي بنتاً تسمع! دخل زوجي وقال: «يا إلهي إن ابنتنا تسمع!» لقد كان متفاجئاً مثلي، لكنه قال: «إن الأمور ستكون على ما يرام».

لقد شرحت المرأة لبريستون أنها كانت منزعجة من أن ابنتها تستطيع السماع، لأنها أرادت أن تكون قريبة من ابنتها كما كانت قريبة من والديها

الأصمين أيضاً. واستمرت فقالت:«إنني قلقة من أننا لن نتواصل أو أننا سننجرف بعيدًا عن بعضنا».

إن تفسير هذه المرأة لانزعاجها بأن ابنتها مختلفة وأنهما سوف ـ تنجرفان بعيدًا عن بعضهما ـ يفسر كيف أن حجم ومقياس «التشابه والاختلاف» يتقاطع مع «القرب والبعد» بالرغم من أن الأمور لا تنتهي بهذه الطريقة دائمًا إلا أن التشابه يبدو وأنه يضمن القرب والصلة والاختلاف يؤدي إلى البعد.

وهذه المعادلة تبعث الشبح الذي يلازم حياة البنات والنساء الاجتماعية وهو: أن يتركن وحيدات.

لمس الأجساد

لقد استخدمت عبارات «البعد والقرب» كطرق مجازية للحديث عن الحالات التي أساسها العاطفة، لكن في بعض الأحيان فإن القرب العاطفي يجسد حرفيًا بالقرب الجسدي والبعد يجسد بفقدان هذا القرب. وهنا أيضًا فإن آراء البنات والأمهات في المقدار الملائم لهذا القرب تختلف. بعض النساء تقدس الصلة أو القرب الجسدي مع أمهاتهن أو بناتهن وأخريات يتراجعن عنه. وتختلف آراء النساء حول المقدار الملائم ونوع الصلة الجسدية المناسبة. والتكيف مع هذه الاختلافات حول المقدار المناسب الذي يؤدي الدور المطلوب هو صورة واقعية وصلبة للتفاوض في علاقة مريحة مع ابنتك أو أمك.

علقت امرأة قائلة: «أحد الأشياء التي أحبها في علاقتي مع ابنتي هو أن علاقتنا حميمة وجسدية (كناية عن العناق والتقبيل بين الأم

وابنتها)، إنها في الثالثة والعشرين من العمر وما زالت تأتي وتجلس في حضني وتحتضنني.» هذه المرأة ليست وحيدة في تقديس هذه العاطفة الجسدية. تحكي رواية سو مونك كيدز «الحياة السرية للنحل» عن فتاه تدعي ليلي ماتت أمها وهي في سن الرابعة، تتخيل ليلي عناق وتقبيل جسد أمها الحي في ذكرى مؤثرة لما فقدت. هنا تصف الألم لفقدانها الأم التي بالكاد تتذكر أو ربما لفقدانها «الأم» بالمعنى المثالي المتجسد بالبدن. وهو السبب الذي جعل القراء ينسبون لهذا الألم بالرغم من أنهم لم يفقدوا أمهاتهم. قالت ليلى:

«إن أسوأ شيء كان الاستلقاء والتفكير بأمي، لطالما كان الوقت يمضي في شوقي وتحرقي لقربها. يأتي دائماً هذا الشعور في أكثر أوقاتي ضعفًا.. في الليل. أتقلب على الفراش متمنية أن أزحف إلى السرير معها وأشم رائحة جلدها. أتصور نفسي أستلقي إلى جانبها وأضع رأسي قريبًا من صدرها قريبًا من قلبها النابض وأسمع. أنادي... أميييي وتنظر إلي قائلة.. طفلتي إنني هنا».

إن الوصال الجسدي والشعور ورائحة جلدها يمثل حضور الأم في حياة البنت. (بغض النظر عن لو أن أم ليلي لم تمت لكانت ستكون مستلقية في السرير تعدد وتسجل عيوب أمها).

ذكرت امرأة توفيت أمها وهي في سن متقدمة واصفة التواصل الجسدي بينهما وأنه دليل على عمق الرابط الذي كان يربطهما: «كنا نجلس قريبتين جدًا من بعضنا ونلتصق ببعضنا لدرجة أن أبي كان يسخر منا ويقول: إنه لا يستطيع تمييز أجسادنا من بعضها لدرجة تقاربها».

كانت روشيل والتي تبلغ من العمر الخامسة والثلاثين تأخذ قسطاً من الراحة على سريرها بينما جلست أمها بالقرب تؤنسها. وفجأة رأت الأم شيئا أقلقها على وجه روشيل؛ فانحنت الأم فوقها لتتفحص العلامة بدقة أكثر حيث أصبح وجهها فوق وجه ابنتها تماماً، ومكثت على هذه الحال حتى اقتنعت بأن العلامة لم تكن خطيرة. انزعجت روشيل إلى أن بدأت تتلوى في مكانها بسبب تطفل أمها. إنها وصفة الملكية الغالبة على نظرة أمها المحدقة، لقد كانت نظرتها كما لو أنها كانت تنظر إلى وجهها تتفحصه بقرب شديد وثبات.

والحال نفسها بالنسبة لكارلا فإن أمها أحياناً تريد أن تقترب كثيرًا منها، تقول: «واحدة من الأشياء التي تزعجني كثيرًا عندما تزورني هي قولها: «عانقيني» وبالطبع فإني أقوم بعناقها حتى لا أؤذي مشاعرها لكن هذا يخلق شعوراً فظيعاً في داخلي لأني لا أريد عناقها في الحقيقة، لذا هذا يشعرني وكأني طفلة عليها القيام بأشياء لا تود القيام بها». إن هذا لا يعني أن كارلا لا تحب أمها، أو أنها لا تود عناقها، لكن النقطة التي يختلفون عليها هي تكرار هذه العميلة. تقول كارلا: «عندما أقابلها في المطار سأقوم بتقبيلها واحتضانها لكنها لا تريد التوقف. وأشعر أنه ليس علي القيام بهذا مرة أخرى إلا عند توديعها لكنها تريده في الصباح والمساء وبينهما، تكرر عبارة «عانقيني» أكثر من مرة.

ما مقياس العاطفة التي من الممكن أن نقول إنه مبالغ فيها؟ وما المقياس الذي من الممكن أن نصنفه على أنه شحيح وبخيل؟ وماذا يحدث عندما يكون للبنت والأم آراء مختلفة حول هذه المقاييس والمقادير؟ إن الحد الفاصل بين الاثنين دقيق للغاية كما رأينا في الأمثلة السابقة. فمن

الممكن أن يكون المقياس بالعاطفة الجسدية أو بحجم المعلومات المتبادلة أو ببساطة بالطريقة التي نتصرف بها في بيت الطرف الآخر.

الراحة في بيتك

كثير من الحكايات التي أسمعها من النساء عن أمهاتهن أو بناتهن لها علاقة ببيوتهن والذي يعطي الشعور بأنه امتداد أو تجسيد لأنفسهن. في الفصل الثاني تكلمت عن أم كانت تحاول تحسين وتطوير بيت ابنتها عن طريق إعادة ترتيب الأثاث ونجحت فقط في إغضاب ابنتها. وفي مثال آخر كانت الأم هي التي وجدت نفسها الهدف في محاولة شبيهة وبنتائج مماثلة. فلقد عادت من العمل يوماً لتجد أثاثها وقد أعيد ترتيبه وزود بطاولة قهوة جديدة. إن ابنتها التي تملك مفتاحاً إضافيًا للبيت كانت قد اشترتها بعد سنوات من محاولة إقناع أمها بأنها تحتاج طاولة جديدة. وقامت بكل هذا كمفاجأة لأمها في عيد ميلادها. إن أمها قد تفاجأت بالفعل لكنها مفاجأة بدون رضا. اتصلت الأم بإحدى صديقاتها وطلبت منها القدوم لمساعدتها في إعادة الأثاث كما كان عليه، ولم تتصل بابنتها لأنها كانت غاضبة، فلم تكن حتى تود الحديث إليها. في هذه الأمثلة فإن البنت أو الأم قامت بالتصرف في بيت الأخرى كما لو أنها تتصرف في بيتها. وقد سمعت أنا عنها لأن النتائج كانت تتعارض. لكن في المقابل ذكرت أمهات كيف كان موضوع البيت سبباً لاتفاقها مع ابنتها. تقول الأم: كم كانت زيارتها لابنتها رائعة وتروي كيف أن ابنتها سمحت لها بطبخ وجبة. إن السماح للأم بالسيطرة على المطبخ كان هو دليل مجازي لتقبل البنت لأمها والرغبة في التقرب منها. وفي حالة أخرى قالت: أم إن السبب في العلاقة الممتازة بينها وبين ابنتها يرجع إلى أنها تتصرف على أنها ضيفة في بيت ابنتها.

بالرغم من أن المواقف التي اتخذتها النساء هنا تجاه بيوت بناتهن كانت متعارضة إلا أن المعنى المجازي «للبيت» كان واحداً، «مكان» لإيجاد مستوى من الراحة والتواصل مع محاولة تفادي وتجنب الانطباع غير المريح للتطفل. وبمعنى آخر ـ التفاوض في مدى القرب أو البعد في العلاقة بين الأم والبنت.

نفس هذا الإرضاء والصراع يتم من خلال أنواع أخرى من الممتلكات فقد قالت إحدى الأمهات مثلاً: إنها تحب أن ترى ابنتها تستعير وترتدي ملابسها، وأم أخرى قالت: إن الشيء الوحيد الذي ترفضه هو ارتداء ابنتها لملابسها. وكلا التصرفان صحيح مادامت الاثنتان لهما نفس الموقف تجاه تبادل الملابس أو ممتلكات أخرى. إنه عندما يختلفان تكون النتائج محبطة ومقلقة.

لمن هذا؟

عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري؛ قمت بشراء قناع تزلج ملون من محل صغير في قرية جرينتش. كان قد صنع في بيرو، وقد كان يغطي الوجه تماماً ويترك فتحة للعينين والفم فقط. لم أتزلج و لم ألبسه. (لبسته مرة واحدة وكانت كارثة. لقد كان الناس يحدقون النظر في خلال ركوبي الحافلة في يوم قارس البرودة. وقد سخر مني الركاب الذين اعتقدوا أني صبي. احتفظت بالقناع الملون في رف الملابس بجانب القبعات، وفي يوم لم أجده في الرف، فسألت أمي عنه فقالت: إنها قد أعطت القناع لصديقتها لأنها اعتقدت أن ولدها سوف يحبه ويلبسه. غضبت كثيراً مع أنني لم أكن أنوي لبسه أبدًا، لكنه مازال يعجبني، وقد اشتريته بمالي الذي جنيته من

عملي في المدرسة. لكن ما أغضبني هو «أنه كان لي» وشعرت أن أمي لم يكن لديها الحق في أن تعطيه لأحد.

روى علي هذه القصة زوجان في السبعين من العمر بينما كنت أزور مدينة نيويورك، وكلاهما من سكان نيويورك الأصليين لكنهما لا يسكنان بها الآن. إن رؤية مبنى بالصدفة أثارت لهما الذكريات فقال الزوج بحنين: «إن هذا المبنى الذي أقيمت به حفلة «السي سي إن واي» أدار الزوج رأسه ملتفتًا إلى زوجته: «هل تتذكرين؟ لقد أعطيتك باقة زهور صغيرة لثوبك». فأجابت الزوجة: «ولأنها كانت أول باقة تعطيني إياها فقد قررت أن أحتفظ بها. لقد وضعتها في الثلاجة حتى لا تخرب، ثم في اليوم التالي اختفت. قد أعطتها أمي للجارة». في البداية بدا لي هذا شيء لا يصدق، ثم كيف بالله تعطي أمها باقة زهور صغيرة خاصة بثوب للجارة؟ حاولت أن تشرح أنها تتخيل أن دافع أمها كان أن تعلم الجارة أن ابنتها لديها خطيب وقد أهداها باقة جميلة ثم عرضتها هدية على الجارة لكسب بعض النقاط.

وبما أن الناس تحكم على الأمهات بنجاح أو فشل الأبناء، فإنه من الرشد إذاً معرفة أن نجاح ابنتها من الناحية الرومانسية يعزز من مقام الأم عند الجارة. إن الوقوف مع الجارة وإعطاءها شيئاً لم تعد تحتاجه يعد طريقة كريمة ومناسبة للحفاظ على العلاقة مع الجارة أو الصديقة. لذا فلماذا لا أفعل نفس الطريقة باستخدام شيء من ممتلكات ابنتي؟ من المؤكد كان هذا هو دافع أمي لإهداء قناع التزلج الذي لن ألبسه أبدًا. ونفس النموذج يتكرر مع الأم التي اعتقدت أن حفل المدرسة قد انتهى، وأن ابنتها قد استخدمت باقة الزهور الصغيرة الخاصة بفستان الحفل وأدت الباقة هدفها، ما الخطأ الآن في استخدام الباقة في هدف آخر؟ وفي الوقت نفسه

كسب رضا الجارة؟ إن الذي بدا للأم مناسب قد بدا للبنت فظيعاً وغير محتمل بسبب اختلاف بسيط في الرأي. لقد شعرت البنت أن باقة الزهور لها وحدها بينما شعرت الأم أن لها حق فيها أيضاً. إن شعور الأم بالقرب والتواصل وما يتبع هذا من ملكية اختلف عن شعور ابنتها.

وفي كل هذه الأمثلة كافحت الأمهات والبنات لمعرفة طرق التشابه والاختلاف بينهما، وما يمكن فعله تجاه هذا الاختلاف أو التشابه. إن هذا الصراع لا مفر منه في التفاوض المتواصل للقرب أو البعد في العلاقة.

هل التشابه يقربك أكثر أم يبعدك؟ وهل الاختلاف يستلزم البعد؟ وكم بالضبط تريد من القرب أو البعد في العلاقة؟ هذه الطرق الديناميكية هي من الطرق العديدة للعلاقة بين الأمهات والبنات والتي تمثل كل العلاقات لكن بحدة وإلحاح أكبر.



5

أوقفي الحوار.. أريد الخروج

تتشارك الأمهات والبنات في تاريخ طويل.. وحياة طويلة. وهذا يتضمن حوارات طويلة على مدى هذه الحياة. ربما يضحكن على دعابة.. ربما يتكلمن بنفس الطريقة والسرعة.. ويعرف كل منهما ما يعني الآخر بمجرد النطق بكلمة أو اثنتين.. إن تقاسم هذه الأحاديث الكونية من الممكن أن يكون مصدر متعة، لكن هناك وجوه أخرى لطرق هذا الحديث كالتي تغضب وتثير، وكلاهما يعرف جيدًا هذه الطرق. إنها أشبه بالاستماع إلى مذياع قديم مثبت على إذاعة واحدة وكلاهما يعلم ما الذي سيأتي على هذه الإذاعة عند سماعها ملاحظة معينة أو تميز نغمة صوت أو إيقاع معين. فلو كانت تتوقع بعد الملاحظة أو الإيقاع شيئًا لن يعجبها فإنها ستشد ظهرها متوقعة ما سيأتي قبل أن يقال. ربما سيتحول الحوار فجأة إلى مناقشة متوترة، المناقشة نفسها التي دارت بينهما مرات كثيرة. إنهما تدركان الدراما في هذا المذياع لكنهما عاجزتان عن تغيير القناة فقد ثبت مؤشر المذياع على هذه القناة للأبد.

في بعض الأوقات تبدو البنت والأم وكأنهما تتشاركان في طقوس شعائرية غامضة، حيث يلعب كل منهما الدور الخاص به. قال رجل - معبراً عن رأيه-: إنه يسمع صديقته تتحدث إلى ابنتها الراشدة على الهاتف وتفتح مواضيع يعلم أنها سوف تحول حوارهم الودي إلى منعطف خطير. ولأن الاثنتين تحبان بعضهما وعلاقتهما ممتازة فستضعان حدًا

لهذا الحوار في آخر الأمر، وتعودان إلى النغمة المتجانسة التي كانت تغلب على الحديث. لكن هذا الرجل يتعجب ويتساءل: إذا كان هو يستطيع رؤية هذا في حوارهن، لماذا لا تستطيع الأم وابنتها رؤيته؟ وأعتقد أن الإجابة هي أن شيئاً ما يحث الأم على المحاولة مرة أخرى لجعل ابنتها ترى الأشياء من منظورها، وشيئاً يحث ابنتها لتستجيب لها بالطريقة نفسها المعتاد عليها. والسبب في أن هذا الرجل يرى ما يحدث بينهما لأنه في خارج الدائرة. وإذا استطاعت الأم وابنتها الخروج من الدائرة ومراقبة ما يجري فستكون رؤيتهما أفضل، وستتضح أيضاً طرق جديدة لتغيير النص الذي يدور بينهما.

إننا نعزف أغنيتنا

إن نمط الحديث الذي سمعه الرجل بين المرأة وابنتها خلال مكالمتهما الهاتفية هو نمط يحدث ويتكرر يوميًا بين الأمهات وبناتهن في البيوت وعبر الهاتف. وهنا مثال: إن الطريق للعمل يأخذ من تريسي ساعة وربع الساعة من القيادة بينما يأخذ زوجها نصف ساعة فقط للوصول إلى عمله. وبما أن تريسي تعمل ساعات أطول وتقوم أيضًا بالاعتناء بالطفل وتنظيف المنزل؛ فإن أمها منى تعتقد أنه من المنطقي أن تنتقل ابنتها تريسي وعائلتها إلى بيت آخر قريب من عملها وليس قريباً من عمل زوجها. لكنها كلما فتحت الموضوع مع ابنتها ينتهي الأمر بمناقشة حادة. ومع ذلك فإن الأم تستمر في فتح الموضوع مع ابنتها في كل مكالمة هاتفية. إن منى تعتقد أنها بذلك تعتني بابنتها، تحاول منع ابنتها من حمل كل المسؤولية على عاتقها. وتريسي تشعر أن أمها تنتقد بظلم الخيار الذي اتخذته. والأسوأ

من هذا أنها تكره أن يقع زوجها بينها وبين أمها. إضافة إلى أن رفض ونبذ زوجها هو طريقة غير مباشرة لرفضها أيضاً.

لنرى كيف تزداد حدة هذا الصراع وتتطور، فخلال حوار منى وابنتها تريسي علقت منى: «يا إلهي يا عزيزتي.. تبدين متعبة». وتعترف تريسي: «نعم.. أنا متعبة». ثم تقول أمها: «تعرفين عزيزتي أنك منهكة بسبب التزاماتك الكثيرة. هل فكرت في البحث عن منزل قريب من عملك كما سبق وتكلمنا من قبل؟ هنا بدأ ضغط دم تريسي بالارتفاع بينما تعيد الكلام نفسه الذي تقوله عندما تفتح أمها موضوع الانتقال إلى منزل آخر: «أمي.. لقد أخبرتك من قبل لقد بحثنا ولم نجد منزلاً جميلاً قريباً من المدينة، إلى جانب أن زوجي لديه عمل إضافي في البيت وهو يحتاج هذه الساعات ولكن عملي ينتهي بخروجي من المكتب». وردت أمها: «إنني أتألم عندما أراك تضعين احتياجات زوجك فوق احتياجاتك. إن هناك أحياء كثيرة قريبة من عملك وأنا متأكدة أنك تستطيعين إيجاد منزل جيد ومناسب. لقد رأيت بيوتاً للبيع في إعلان في الجريدة....» وهنا قاطعتها تريسي وقالت: «أنا أحب الوقت الذي أقضيه في القيادة لعملي ذهاباً وإياباً. إنه يعطيني فرصة لكي استرخي. لأني أكون وحيدة مع أفكاري قبل أن أصل للبيت وضغوطاته». قالت أمها: «لو لم يكن لديك التزام في العمل والقيادة لما كان وقتك في المنزل مضغوطاً». وخلال حديثهما كان غضب الأم يزداد من رفض ابنتها لتحسين حياتها. وفي المقابل يزداد غضب تريسي بينما أمها تستمر بالنقد. تتساءل تريسي لماذا تعيد أمها فتح الموضوع نفسه دائمًا بالرغم من أنها قالت ما عندها؟

لماذا بالفعل تستمر الأم في إعادة النقطة نفسها التي تعلم أنها تغضب ابنتها؟ ولماذا تعلق تريسي بالشبك نفسه في كل مرة؟ وأنا نفسي أتعجب من ذلك بما أنه دار بيني وبين أمي حوارات مشابهة.

وعندما أنظر للموضوع من منظور الأم أجد أن درب الأم مضاء بإشعاعات الأمل، فهي لا تفقد الأمل في تنقيبها لتحسين وحماية حياة ابنتها عندما لا تنجح هي في ذلك. وعند النظر في تصرفات الأم من وجهة نظر البنت، فالبنت تعتقد أن الأم مسيرة بالعناد الأعمى، إنها متأكدة جداً من أنها على حق لدرجة أنها تعتقد أن ابنتها ستحول رأيها مئة وثمانين درجة وترى وجهة نظرها. علاوة على ذلك فإنه من المؤكد أن الأم غير واعية للألم الذي يتضمنه عدم رضاها، وتبدو أنها لا تلاحظ أو لا تهتم بأنها تجعل ابنتها تشعر بالسوء. هل من الممكن أن يكون هذا بالفعل هدفها؟

وبضم وجهات النظر هذه فإنني أرى أن الأم لا تلاحظ أنها تزعج وتؤلم ابنتها لأنها تركز على رسالة محاولة تحسين حياة ابنتها بدلاً من التركيز على ما وراء الرسالة من معنى ضمني لعدم الموافقة. وتقسو الأم بسبب شعورها بالضعف. إنه من الواضح ما يجب على البنت فعله ومع ذلك فالأم لا تستطيع إجبار البنت على فعل شيء! لقد زودت آلة الحرب بالوقود عن طريق إصرار تريسي بإخبار أمها أن خياراتها لم تكن خاطئة وأنها لن تنجح في تحطيمه. وكانت تريسي قد افترضت الإهانة المخفية داخل كلام أمها والذي اعتبرته الأم حماية.

أيضاً هناك طريقة أخرى لتزويد هذه القوة الساحقة لآلة هذا الحديث بالوقود وهو استمرار الحوار نفسه. فكلما تجاوبت واحدة منهن لتعليق

الأخرى تزايدت شرارات الغضب وزادت معها التعليقات الغاضبة. ونعود للوراء قليلا فلولا أن البنت قالت إنها كانت تحتاج الوقت الذي تمضيه في السيارة للراحة والانفراد بنفسها لما قالت الأم إن التزاماتها الكثيرة تجعلها في البيت منهكة ومتوترة. وتريسي قالت هذا حتى ترد على أمها التي قالت إن الالتزامات الطويلة صعبة، وقالت أيضاً إن زوجها يحتاج هذه الساعات للعمل في البيت. كان هذا هو التعليق الذي جعل الأم تعتقد أن ابنتها تضع احتياجات زوجها فوق احتياجاتها. والأم قد ذكرت موضوع انتقال ابنتها فقط لأنها اعتقدت أن ابنتها منهكة ومتعبة. لكن في الحقيقة لم تكن تريسي متعبة هي فقط، قالت هذا حتى لا تتعارض مع جملة أمها عندما قالت:«تبدين متعبة» كل تعليق كان إجابة لما قالت الأخرى. وتستمر الاثنتان باستفزاز بعضهما في وقت واحد في دائرة تؤيد فيها كل منهما نفسها، مضيفة إلى الشرارة التي تصبح غضبًا فيما بعد.

غضب متبادل

استخدمت تعبير «الانقسام التام» لوصف هذا الغضب اللولبي المتبادل. وقد صاغ هذا التعبير العالم المتخصص في علم الإنسان جريجوري باتيسون لوصف ماذا يمكن أن يحدث عن التقاء ثقافات مختلفة. كل منهما تتفاعل مع الأسلوب النمطي للأخرى عن طريق اللجوء للأسلوب المعاكس والمضاد له. ولتمثيل هذه العملية فإن باتيسون أشار إلى ثقافة مفترضة ومتصورة تميل إلى التوكيد والجرأة، حيث إنها تحتك مع الثقافة التي تصور أمثلة وأنماطاً للخضوع والطاعة. كتب باتيسون يقول: «على الأرجح إن الخضوع سوف ينشئ وقاحة وجرأة أكثر والتي بدورها سوف تنشئ خضوعًا وطاعة أكثر».

قام باتيسون أيضاً بابتكار تعبير «الانقسام المتماثل» لوصف ما يحدث عند التقاء ثقافات لها أنماط وأساليب متشابهه نسبيًا. إذا وجد نفس الأسلوب في كلا الثقافتين فإنه يصنف في خانة التشابه بدلا من خانة الاختلاف.

ولتوضيح هذه العملية فإن باتيسون يضع حالة فرضية لثقافتين مختلفتين تظهر وتعرض التبجح والتباهي. كل منهما يتجاوب مع أسلوب الثاني بالتباهي والتفاخر من خلال زيادة حدة أسلوبه. يصبح الأسلوب مبالغاً فيه في كلا الثقافتين لكن من خلال طرق متشابه.

لقد تبنيت تعبير ومفهوم باتيسون لوصف ما يحدث بين المتحدثين في الحوارات اليومية. إن «الانقسام المتماثل» يمكن أن يمثل في حالة شخص ينزعج من شخص آخر ويرفع صوته، والثاني يزيد من رفع صوته في المقابل. وفي النهاية يصبح كلاهما صارخاً، وكلاهما متجاوبٌ مع الآخر عن طريق تقوية نفس نمط الأسلوب وهو « رفع الصوت» وفي المقابل فإن «الانقسام التام» يصف حالة امرأة تنزعج وترفع صوتها ثم تقوم الأخرى بخفض صوتها حتى تستطيع توصيل فكرتها، وهي أن الصراخ أمر غير مقبول. وهذا يغضب المرأة الأولى، لأن خفض الصوت يدل على قلة الاشتراك العاطفي. لذا فهي تزيد من رفع صوتها مما يجعل الثانية تتكلم بصوت أنعم من الذي سبق. وفي النهاية الأولى تصرخ والثانية تهمس أو حتى أنها تراجعت وسكتت نهائياً. هذا هو «الانقسام التام» لأن تجاوب كل واحدة منهن مع الأخرى يؤدي إلى المبالغة وزيادة حدة أسلوب الأخرى.

عندما يحدث «الانقسام المتماثل» في الحوار فإن الطرفان يعرفان تماماً ما يحدث، فكلاهما يتحدث بطرق معروفة ومفهومة. لكن «الانقسام

التام» من الممكن أن يكون مربكاً حيث يكون سلوك الطرف الآخر غير معقول بالنسبة لك. وطرق الحديث التي استخدمتيها لن يكون لها التأثير نفسه الذي أردت. وبالرغم من ذلك لا تستطيع التفكير بأية طريقة أخرى للتعامل مع هذا الموقف. إنه أشبه بما لو أنك كنت تجلس على أرجوحة وزميلتك قفزت من الطرف الآخر رامية بك إلى الأرض. إنك بالطبع تعرفين أين سقطت لكنك لست متأكدة من كيفية وصولك إلى هذا المكان. عندما يسيطر «الانقسام التام» على الحوار فأنت ترين نفسك تتكلمين بطرق لم تنوي التكلم بها. وتتعجبين من طريقة كلامك ومن نوع الشخصية التي أصبحت عليها. هذه النوعيات من الحوار من الممكن أن تصيب الإنسان بالجنون خصوصًا إذا ازداد حدوثها وأصبحت شريطاً يعزف في حلقة أبدية.

ندور وندور

إن هناك طرقاً عديدة تجعل الأم وابنتها تقع في فخ «الانقسام التام». ويحدث على الأرجح عندما تتفاوض الأم وابنتها في القرب والبعد. مثلا «إيرين» تريد التقرب من ابنتها مارج عن طريق الاتصال بها كثيراً ودائماً تحاول فتح الحوار الذي تعتقد أنه مناسب، عن طريق سؤالها عن مجرى حياتها وإخبارها بالمقابل عن أمورها التي تقلقها كصحتها وشعورها بالوحدة. مارج تشعر أن أمها تتصل بها كثيراً وأن أسئلتها متطفلة. هي تتكلم كثيراً عن نفسها، والشيء الأكثر إزعاجًا لمارج هو حديث أمها عن وحدتها. لأن مارج لا تأخذ شكوى أمها من باب الحديث العابر والتي يمكنها أن تعلق عليه بقول: «أعرف ما هو شعورك» لكنها تأخذه من باب

النقد وكأن أمها تقول: «إنني وحيدة لأنك لا تقضين وقتاً كافيًا معي». وكنتيجة لهذا فإن مارج تحد من المعلومات التي تعطيها لوالدتها ولا تسأل أمها أسئلة عن نفسها أبدًا حتى لا تشجعها على الكلام لمدة أطول. تحاول إنهاء المكالمة بأسرع وقت مدعية بأنها مشغولة وهي بالفعل كذلك. وبينما تتراجع البنت فإن الأم تكثف من الجهود التي تقربها من ابنتها، كالاتصال مرات عديدة، وطرح أسئلة أكثر. والمبالغة في الحديث عن حالتها الصحية لتحسين فرصة التجاوب من ابنتها. كل هذا يدفع مارج لجمع جهودها للحفاظ على المسافة بينها وبين أمها. ولا واحدة منهما تدرك أن التصرف الذي لا تحبه من الأخرى هو في الحقيقة ردة فعل لأسلوبها نفسها. إيرين ترى ابنتها باردة وبعيدة منها، لكنها لا ترى أن هذا البعد هو ردة فعل لمحاولتها المتواصلة للقرب من ابنتها. وفي المقابل فإن مارج تعتقد أن أمها متطفلة ولا يخطر ببالها أن تطفل أمها يحدث بسبب هروبها الدائم. كل منهما ترى أنها تستجيب وتتفاعل لما بدأته الأخرى. لكن لا يشككن في المجرم المسمى «الانقسام المتماثل».

ولأن هذه العملية تدار على مستوى «ما وراء الرسالة» فإنه من الصعب رؤيتها، ولذا فمن الصعب إيجاد منفذ للخروج منها.

هذه أيضاً قوة أخرى من الممكن أن تجعل الأم والبنت تشعران بالضعف ولهذا السبب تدركان مدى قوة الطرف الآخر. إيرين تشعر بالعجز لأنها لا تعلم ما يمكنها فعله لبناء الجسر بينهما، و مارج تتصرف بهذا الشكل لأنها تشعر بأن قوة أمها غالبة على كل شيء. بالنسبة للبنت فإن قدرة أمها على حبس أو منح الرضا هي كما السيف العظيم المتوازن على رأسها. إن البنات الراشدات عادة لا يدركن تطور قوتهن، مثل القدرة على الحد من

التواصل والتحكم برؤية الأحفاد، وبالمقابل فإن هذا يكون بمثابة السيف القوي الذي يلوح دائماً بالتهديد.

أسلوب الاختلاف المتناقض

إن الحوارات المزعجة أحياناً بين أفراد العائلة «إضافة إلى الأم وابنتها» تنتج من الاختلاف في المزاج والعادات. واحدة تكون مفرطة في النظافة بينما تكون الأخرى مهملة بدون أمل بالتحسن. واحدة تستعد قبل الرحلة بأيام بينما تقوم الأخرى بإعداد حقيبتها بجنون قبل ساعة من الإقلاع. واحدة لا يمكنها أن تخطو خطوة للخارج بدون أن تسرح شعرها وتتأكد من ملابسها وزينتها، والثانية تلبس أي شيء في خزانة الملابس وتربط شعرها على شكل ذيل فرس وتذهب في سبيل الحفاظ على التزامها بالموعد. ولأنه عرف عن هذه الاختلافات في الماضي أنها تؤدي إلى الإحباط والكلمات القاسية، فستحاول واحدة منهما أن ترأس الرد غير الودي من خلال عدم المباشرة. والمثير للسخرية أن عدم المباشرة هذه تكون مثيرة. حالة مطابقة لهذا كانت قد وصفتها تلميذة لي تدعى ساندرا، والتي كتبت ورقة بحث بناءً على حوارات دارت بين أمها وجدتها. تواجه ساندرا دائمًا تحدياً مع أمها، فهي حريصة على الدقة ـ ودائمة القلق ـ وبينما تحترم عائلة ساندرا الالتزام بالوقت في المواعيد، إلا أن ساندرا تقع في المنتصف بعض الأحيان. ومن الممكن أن يتخذ الخلاف سبيله بينهم، فيكون إحباطًا كبيرًا للطرفين. عندما تقرر ساندرا وزوجها وأولادهما السفر بالسيارة إلى منزل جدتهم «أم ساندرا» لحفلة عائلية، فإن أمها تبدأ بالاضطراب والتوتر حول موعد وصولهم والذي يعتمد على موعد خروجهم من البيت. وفي إحدى المرات وبينما كانت عائلة ساندرا تستعد للخروج في الساعة الحادية عشرة صباحاً

وهو وقت كافٍ إذا ما وضعنا بالاعتبار أن المسافة تحتاج أربع ساعات قيادة وأن العشـاء سيقدم بين الساعة الخامسـة والسادسة. رن جرس الهاتف في العاشـرة صباحـا، كل العائلة تعلم بالضبط من هـو المتصل، إنها الجدة أم ساندرا. قد اتصلت حتى تتأكد من موعد خروجهم ولتشجعهم على الخروج بوقـت أبكر. ترفع سانـدرا سماعة الهاتف وتسمع: «مرحبـاً يا ساندي!» إن سانـدرا تعرف تماماً هذه النغمة المرحة المتعارضة مع القلق الذي كان سبباً في المكالمـة. قالت أمها: «إن علـي الذهاب خارجاً، وددت أن أعرف فقط إذا كنتـم قـد خرجتم أم لا». لكـن ساندرا تعـرف أن ما تود أمهـا قوله هو «ما الـذي تفعلينه في المنزل إلى الآن؟ تحركي استعملت أمها الخروج من المنزل كحجة وستـارًا للمكالمة الهاتفية». وكما لو أن خروجها في الصباح له علاقة بوصولهم في المساء.

يستمر الحوار بإحباط متبادل، تسأل الجدة: «حسنًا متى ستخرجون؟ «تجيب ساندرا»: إننا نهدف أن نخرج في الحادية عشرة». مع أن كليهما يعلمان أن عائلة ساندرا على الأرجح لن تخرج في الوقت الذي يرمون إليه. هنا يكمن جمال وفائدة كلمة «نهدف» في محاولة لاستخدام الوقت المحدد كحبل سلامة. قالت أمها: «آه..حسنًا إذًا ستكونون هنا في الساعة الثالثة تقريباً». ساندرا تعلم جيدًا أن الموافقة على ساعة معينة هي فخ للتذمر فيما بعد. لذا فهي تراوغ: «آه.. ربما.. قريبًا من هذا. متى العشاء؟» إن ساندرا هي التي تستخدم عدم المباشرة الآن، حيث إن التلميح في سؤالها يبدو مباشرًا وواضحًا.وإذا كان العشاء لن يجهز إلا عند الخامسة أو السادسة؛ فإنه ليس من الضروري وصولهم عند الثالثة. وبما أن أمها تعلم هذا أيضًا ردت قائلة:» أوه.. الرابعة أو الخامسة إذًا.»

يا لهذا الدفع والجذب الرقيق.. ساندرا تدفع وقت العشاء للسادسة أمها تجذبه للوراء إلى الرابعة. وكما ترفض ساندرا تحديد الوقت الذي ستصل فيه فإن أمها ترفض تحديد وقتاً للعشاء، خوفًا من أن العائلة ستصل متأخرة، والذي بدوره سيفسد كل شيء، ولهذا فهي قلقة طيلة اليوم. زد على هذا القلق خوفها من حدوث حادث للعائلة خلال رحلتهم، وهو خوف لا يهدأ حتى تصل عائلتها الحبيبة والتي وصلت في آخر الأمر.

بينما تتحدث ساندرا وأمها عن الوقت أصبح كل منهما غير صريح تجاه الآخر. إذا كانت أم ساندرا قد اتصلت لتحدد وقت الوصول بالضبط فلقد انتهى الأمر إلى عدم تأكدها. وكلما سألت الأم ابنتها لتعدها بوقت محدد راوغت البنت أكثر. إن محاولة الأم في أن تبدو أسئلتها غير مقصودة أثبتت أنها مزعجة، وزادت من دفع ساندرا إلى تحديد وقت العشاء. مع أن ساندرا شعرت أنها ملزمة بالدفاع عن زوجها وأطفالها من خلال توضيح أنه ليس من الضروري عليهم الوصول مبكراً. في النهاية طريقة كل منهما دفعت الأخرى لتبالغ في صيغة الأسلوب المعاكس.

ليس هناك طريقة على الأرجح تستطيع فيها ساندرا تفادي الاحتكاك مع قضية الوقت. وبمعرفتها أن أمها وعائلتها لديها آراء ومواقف مختلفة تجاه الدقة في الوقت، فإنها على الأرجح لن تستطيع أبدًا تحديد موعد للوصول، أو أن تلزم عائلتها بهذا الوقت. وأمها في المقابل لن تخفف من شدتها ونظامها. أخيرًا قليل من المباشرة والصراحة والاعتراف بوجهة نظر الطرف الآخر قد يكون مفيدا فلو أن الأم قالت مثلاً: «أنا أعرف أنك لا تستطيعين التحكم الكامل بعائلتك وأنهم لا يهتمون بالوقت مثلي. أنا آسفة لأني أضغط عليك لتحديد الوقت، لكن سيكون من المفيد لي كثيراً لو

أخبرتيني بمجرى الأمور». وأن تكون إجابة ساندرا الآتي: «أنا أعرف أننا نقلقك يا أمي بطريقتنا، وأننا لا نستطيع تحديد وقت لوصولنا. أنا آسفة فعلاً لكني لا أستطيع جعلهم يتحركون بسرعة. سنتصل بك عندما نخرج من البيت وعندما نقترب منكم أيضاً».

طبقة أخرى: الانحياز

إن الأمثلة التي ضربتها في هذا الفصل قد أسست من حوارات دارت أمامي أو سمعتها من أشخاص، لكن الحوارات المحددة التي عرضتها كانت من صنعي، وفي حالة ساندرا كانت من ذكريات الابنة. ولنر صورة أدق لكيفية زحف الانقسام التام وتحكمه بالحوار فإنه من المفيد أخذ نظرة قريبة على الحوارات التي قد سجلت وترجمت. وفي بقية هذا الفصل فإني سأكشف عن تقدم الانقسام التام من خلال النظر في تفاصيل الحوارات الحقيقية، وبتغيير الأسماء بالطبع. هذه الحوارات قد سجلت وترجمت بواسطة تلاميذي حتى يعتادوا على تحليل الحوارات. ودارت هذه الحوارات الحقيقية بينهم وبين أمهاتهم. لم يكن هناك أي تجهيز لهذه الحوارات أو التعمد بتوجيه الحوار لزاوية معينة. إن التفسير الذي عرضته يبنى على ما كان يحدث في الحقيقة (وبالطبع لقد رأت العائلات تحليلاتي وسمحوا لي باستعمال حواراتهم بهذه الطريقة).

قام عدد من التلاميذ بتسجيل حوارات لا تتضمن أمهاتهم فقط، ولكن أخواتهم أيضا. ففي أي وقت يكون هناك ثلاثة أشخاص في الحوار فإن الأمور تكون أكثر تعقيدًا من أن يكون هناك اثنان فقط. وزيادة على ما يدور في الحوار فهناك التغير الدائم للطبقات والتي تؤثر في كلام المتحدث

والطريقة التي يتفاعل بها مع ما يقوله الطرف الآخر. وبكلمة «طبقات» أعني تركيز الاهتمام على الشخصين في الحوار واستبعاد الثالث. أو التواصل الظاهر، والذي يجعل أي اثنين في الحوار يبدوان كفريق واحد ضد الثالث. وكما هي الحال في الانقسام التام فإن هذه الطبقات تنشأ وتعمل على مستوى «ما وراء الرسالة»، لذا فإن تأثيرها ربما يكون محسوسًا لكن بالرغم من ذلك من الصعب وضع اليد عليه. لنرى كيف يعمل الانقسام التام وتغير الطبقات معًا في حوار يضم الأم والأب والبنت. سجلت تلميذتي هذا الحوار في إحدى الأمسيات بينما هي ووالداها وأختها الصغيرة «جوسي» يأكلون طعام العشاء. وفي تلك الأيام الماضية من حياتهم كان من الصعب أن يكون هناك حوار بين الأم والبنت ذات السابعة عشر ربيعًا بدون أن ينتهي بجدال عنيف. (كحال كل البنات المراهقات مع أمهاتهن في هذا السن). لم تشارك الأخت الكبرى في هذا الحوار واكتفت بالملاحظة. إن سنوات المراهقة تكون بيئة رقيقة للغاية، وسريعة التلف، ويمكنها أن تجبر بذور الخلاف على النمو والانتشار. وبالرغم من أن هذا الجدال أو المناقشات بصفة أو بأخرى محدودة بسنوات المراهقة فإنها تعطينا الفرصة لرؤية تأثير النقاط الصغيرة من الخلاف في تحويل الحوارات الحميدة إلى نقاش وجدال في أية مرحلة من الحياة. راقب هذا المقداح الرقيق، وكيف أن التجاوب المتنبأ به بينهم يثار ويتفاقم بشكل متبادل.

هناك نقطة خلاف مستمرة ودائمة في هذه العائلة، وهي اعتقاد أم جوسي أن جوسي تنفق الكثير من المال على الملابس والزينات. وأنها تتعمد شراءها من محلات أنيقة وغالية بدلاً من المحلات التجارية الرخيصة مثل «وال مارت». لذا فعندما يقول الوالد الذي يتفحص الجريدة: «أرى

أن وال مارت حقق مبيعات قياسية بالأمس». فإن بذرة الخلاف قد زرعت لتنمو بسرعة. فكلما زاد في ذكر هذا المتجر تذكرت زوجته أن ابنتها ترفض التسوق به. قالت الزوجة: «إننا لا نتبضع من هناك، فما الفائدة؟» أجاب الزوج «حسناً». هذا الجواب هو ملاحظة حيادية لمجرد عمل حوار، إنه حوار أشبه بالتقارير. (ربما يفاجئها هذا الجواب لأن هذا الحوار المخادع ليس شائعًا بين النساء).

لكن جوسي ذات السبعة عشر عامًا تتحدى أمها وتقول: «ما علاقة هذا بكل ما نقول؟». في حين أن الوالد لم يتحد الزوجة، وأنهى الحوار بكلمة «حسنًا» والتي ليس لها معنىً محدد، زادت الفتاة من هجومها على الأم:

الأم: إنني أقول فقط....

قاطعتها جوسي: تقولين ماذا؟

الأم: حسنًا. ما الموضوع هنا؟

جوسي: أي موضوع يا أمي؟

إن تغير مستويات الحديث وتأثيرها على الحوار بدأ بالظهور. عند تحديها لجواب زوجها فإن الزوجة تضع تركيزها عليه محدثة طبقات بينهما. لكن جوسي شعرت بأن أي تلميح عن التسوق في «وال مارت» يرسل رسالة خفية حرجة، وعلى أية حال فعند تحديها لتحدي أمها فإنها بهذا تقف وقفة حماية مع أبيها، منحازة له ضد أمها. وهذا يجهز المسرح لكل ما يأتي تبعًا.

يستمر الحوار وكلمات جوسي وأمها تحمل في طياتها رسائل خفية أقوى من المعاني الحرفية. وعندما تقول الأم: «إننا لا نتسوق في «وال مارت». فإن

الأب يظهر عجبه ويقول: «لا تتسوقين في وال مارت! كنت أظن أن لديهم كل شيء». ثم تلف الزوجة السؤال عليه ضاحكةً: «هل تتسوق أنت في وال مارت؟» فيجيب الزوج: «في الحقيقة أنا لا أتسوق في أي مكان». خلال هذا كانت نغمة صوت الأب خفيفة، لكن لم تكن نغمة جوسي كذلك. وبسرعة وجهت جوسي التعليق لأمها: «أنت أيضاً لا تتسوقين هناك يا أمي». وترد الأم: «بل إنني أفعل، يمكنك شراء صابون زينة معطر من هناك». استمرت جوسي باتهام أمها بأنها لا تفعل ما تقول: «بل تشترين الملابس من هناك يا أمي». لكن أمها ترفض وتأخذ جوسي رفضها كتبرير وتقول: «حسنًا.. لماذا إذاً علينا أن نشتري الصابون من هناك؟» وتزيد «ليس علي شراء الصابون لأنك تفعلين هذا عني». لم تشعر الأم بالهزيمة فقالت: «لكنك تشترين المكياج من هناك». ويستمر الحوار على هذا الوتر حيث تتبادل الأم والبنت الاتهامات والدفاع عن النفس في موضوع يبدو أنه تافه، لكنه استطاع تعكير صفو العائلة بوضوح. وفي النهاية يعطل الوالد قنبلة الجدال ويختم قائلاً: «حسناً إننا في هذه السنة سنقوم بشراء كل مشترياتنا من والمارت».

كانت النغمة التي قيلت بها الكلمات وليس الكلمات بعينها هي التي صنفت هذه التفاعلات على أنها جدال، وفي الحقيقة كان الجدال حول كون جوسي مجرد مراهقة وكل ما يتبع ذلك كنتائج: كعين النقد تجاه أمها والتي تنشأ في هذا السن. وشعور الأم بالإحباط بسبب تصرفات ابنتها، وأيضاً ألمها من أن ابنتها قد وقفت ضدها. لو أن جوسي لم تكسب غضب أمها بسبب تسوقها في أسواق غالية الثمن لربما فعلت شيئاً آخر سبب عدم رضاها. وبغض النظر عما أثار هذا النقاش فإنه من المدهش رؤية

ولادة هذا الجدال من كلمات الأب المرتجلة والتي قرأها في الجريدة. فإن موضوع وال مارت ذكر البنت والأم بالنزاع المستمر، وكلما تقدم الحوار وجدت الاثنتان طرقاً لجعل الأخرى تبدو خاطئة: حيث تحدت جوسي سؤال أمها لأبيها ثم انتقدت الأم البنت لعدم تسوقها في وال مارت ثم حاولت جوسي إثبات أن أمها لا تتسوق هناك أيضاً.

وتماماً كما الحال مع ساندرا وأمها واختلاف الآراء تجاه الدقة في المواعيد، فإن أصل هذا الخلاف كان في اختلاف الرأي والموقف تجاه التسوق. لكن تعليق الأب كان الشرارة في هذا الحريق الهائل، وبسبب نشاط جوسي في الدفاع عن أبيها ومعارضة أمها، وكان هذا هو العامل الحقيقي. وقد اشتد هذا النقاش بسبب رغبة الأم الشديدة في الدفاع عن نفسها وتذكير ابنتها بسلوكها الجارح. وبينما كان كل منهما يتجاوب ويرد على للآخر كان الانقسام التام يتسلل. بالرغم من أن التركيز كان في المعاداة الانحيازية بين الأم وابنتها، فإن مشاركة الأب بدون شعور أحدثت هذا النقاش ووفر الحكم النهائي عن طريق توزيع المعاداة الانحيازية بين الأم وابنتها وتوفير قليل من روح الدعابة والفكاهة.

إن هناك رسالة خفية دقيقة أيضاً تفسر تحدي الأم لتعليق زوجها منذ البداية وتوفير الفرصة لجوسي لأن تقف في صفه وتعاديها. فعندما كانت تلميذتي «الابنة الكبرى» تسجل هذه الشرائط - وبالرغم من أنها لم تتكلم خلال تسجيل الجزء الذي كانت تحلله - فقد فسرت أنها كانت هي ووالدها يضعان شريط التسجيل بشكل عفوي على مائدة الطعام في وقت العشاء أو الفطور آملين باصطياد أي تفاعل بين الأم وابنتها، هذا التعاون بحد ذاته بين الأب والبنت الكبرى هو انحياز قد أدركته الأم، وإذا صح هذا فإنه يكون قد شكل المسرح والخلفية لكل هذا النقاش.

كيف وصلنا إلى هنا؟

إن الحوار الآتي كان قد سجل أيضاً بواسطة الابنة الكبرى وقد تضمن أيضاً فتاةً مراهقة تدعى ميشيل. ميشيل في هذه المرحلة من عمرها تعتقد أن كل ما تفعله أمها خاطئ. ولكن في هذه الحادثة كانت البنت الكبرى بيتريشا هي التي تدافع عن أمها في مقابل هجوم أختها والذي زاد من غضب الصغيرة أكثر وأكثر. إن المعركة اللفظية دارت حول ذوق الأم في اختيار ملابسها، لكن هذا على مستوى الرسالة الصريحة فقط، لكن على مستوى الرسالة الخفية أو ما وراء الرسالة كانت المعركة حول نبذ ميشيل لأمها، ومحاولة الأم استرجاع رضا ابنتها عنها، وزد على هذا الانحياز بين الأم والبنت الكبرى. وتمامًا كما في المثال السابق فإن المعركة تبدأ بملاحظة عادية ثم تتصاعد بينما تزيد كل إجابة من حدة إجابة الطرف الآخر بالمقابل. إنها بطريقة أو أخرى معركة سخرية تتخللها ضحكات صغيرة واتهامات شديدة وبعيدة عن الخيال. ومع ذلك فإن المقايضة هي عبارة عن نقاط تنافس جدية ومقلقة. وبالنظر إلى كيفية نمو وتطور هذا الحوار يتضح لنا كيف يستطيع الانقسام التام تحويل الملاحظة الصغيرة إلى جدال كبير. سجلت باتريشا هذا الحوار بينما كانت عائلتها تتناول العشاء في أحد المطاعم. وبينما كانت الابنة الكبرى صامتة في المثال السابق كان الأب صامتاً في هذا المثال، لذا فإننا ننتهي بحوار ذي ثلاثة أطراف بالرغم من أننا بدأنا بأربعة أطراف ـ الأم والأب والبنتان.

وباقتراب نهاية الوجبة لفتت الأم نظر الجميع إلى الملابس التي كانت تلبسها – وهي طريقة عادية للنساء لإنشاء حديث الألفة. إن التجاوب العادي والمتوقع من المرأة الأخرى سيكون ملاحظة، وحكماً قريباً لموضوع

الملابس أو عن شيء من الملابس هي تملكه، وهي طريقة لبناء اتصال من خلال التشارك في حوار ودي. وبالفعل فإن كثيراً من النساء اللاتي ذكرن لي أنهن يشعرن بالقرب من بناتهن أو أمهاتهن ذكرن أن موضوع الملابس هو مصدر للمتعة المتشاركة بينهن. لكن في هذه الحالة فإن التعليق كان نقطة الانطلاق لميشيل لانتقاد أمها. وخلال الانقسام التام ازدادت ميشيل بالانتقاد، مما جعل الأم تزيد في الدفاع عن ذوقها؛ الذي بدوره جعل انتقادات البنت أكثر ألماً.

بدأ الحوار كالآتي:

الأم: هل يعجبك هذا المعطف؟

باتريشا: نعم، هل هو جديد؟

الأم: لا.

باتريشا: إنه جميل.

لو كانت باتريشا الابنة الوحيدة في ذلك الوقت لربما انتهى الحوار على ذلك، أو استمر الحوار حول الملابس مثل المكان الذي اشترت منه الأم، وكيف أن لون المعطف جميل ومناسب لبقية الملابس التي تقتنيها، أو كيف أنه يشبه معطفاً جميلاً رأته باتريشا في أحد الأسواق وهكذا.. لكن باتريشا لم تكن الابنة الوحيدة، فقد كانت هناك ميشيل أيضًا، ويفهم من ردة فعل أمها وأختها أنها قد قالت شيئاً على الشريط لا ينم عن الذكاء ولم يكن مدحًا:

باتريشا لأختها ميشيل: ماذا.. لا يعجبك؟

الأم: ميشيل لا يعجبها أي شيء من ملابسي.

ميشيل: (تلفظت البنت هنا بألفاظ غير لائقة بالنقل)

الأم: كل ما تفعله هو التعليق دائماً. أنا لا أصدق هذا. أنا أعتقد أن ملابسي جميلة وأنيقة.

عندما قالت الأم: «إن ميشيل لا يعجبها أيٌّ من ملابسي». كان هذا التعبير هو الرسالة، لكن ما وراء الرسالة كان الشكوى: لمْ تنتقد ميشيل معطف أمها الذي كانت ترتدي فقط؛ لكنها كانت دائمًا تنتقد ملابسها. وبالرد على عادة الانتقاد هذه فإن الأم دافعت عن نفسها: «أنا أعتقد أن ملابسي جميلة وأنيقة»، ووافقت باتريشا بالقول: بالفعل أنت أُمٌّ أنيقة.

لو كانت الأم قد قالت: «أنت دائما تنتقدين ملابسي». بدلاً من «أنت تنتقدين هذا المعطف». فإن رد ميشيل سيزيد في النقد والعدوان. قالت ميشيل بشكل لافت للنظر: «هل فقدت عقلك؟» إن هذا التلميح واضح للغاية.. يعني إن ادعاءك بأنك أنيقة خاطئ للغاية، وهو دليل على أنك فقدت عقلك حتى تقولي شيئاً كهذا. ومرة أخرى فإن الأم تحاول رفض اتهام ابنتها:

الأم: من التي أكثر أناقة مني؟

ميشيل: كلهن.

الأم: منْ؟ أخبريني أُمٌّ مَنْ مِنْ صديقاتك؟

قالت ميشيل اسم إحداهن، ثم استمرت في الانتقاد متحدثة إلى أختها هذه المرة:

ميشيل: أمي تلبس معاطف بأكتاف مبطنة.

باتريشا: أمي لا تلبس ملابس كهذه.

الأم: هذا المعطف ليس له أكتاف مبطنة.

هنا دافعت باتريشا عن أمها التي دافعت عن نفسها أيضا في صورة تحدٍ لاتهام ابنتها. سألت الأم عن أسماء إضافية: «انتظري دقيقة. مَنْ أيضاً؟» وكان جواب ميشيل واضح: «كلهن يا أمي». وحتى تدعم اتهامها ذكرت ميشيل أسماء امرأتين وقالت: «إنهما ترتديان ملابس طبيعية، ولا يلبسن أشياء غريبة مثلك».

وبمواجهة هذا الهجوم المتصاعد أخذت باتريشا صف أمها وقالت: «أمي أعتقد أنك أنيقة وجميلة». وبهذا الرد التفت ميشيل لأختها وقالت: «توقفي عن التملق لأمي، من المؤكد أنك تريدين منها شيئاً». إن الاتهام بالتملق هو احتجاج وشكوى ضد الانحياز وضد الفريق الذي شكلته باتريشا وأمها. إن عداء الفتاة المراهقة ناتج من شعورها بأنها ليست على مستوى أمها وأختها، ورؤية انحياز أمها وأختها ضدها يعزز من هذا الشعور. إن الأخوات الصغيرات عادة ما يشعرن بأنهن مبعدات ومنبوذات من خلال ما يرونه من انحياز بين الأم والابنة الكبرى ـ انحياز غالبًا ما يعزز بطريقة الجلوس، مثلاً في السيارة فإن الأخت الكبرى تجلس في الأمام بينما تجلس الصغيرة في الخلف. ربما يكون هناك خلاف بين الابنة الكبرى والأم لكن الصغرى لا ترى هذا.

استمرت الأم في الدفاع عن نفسها مستمدة الدعم من ابنتها الكبرى فقالت: «باتريشا لا تعتقد هذا ـ أنا لا أعرف لما تعتقدين أنني ألبس ملابس

غريبة؟» استمرت باتريشا في محاولة إصلاح الحوار وقالت: «أنا أحب طريقة تصفيف شعرك». وأيضاً حاولت ميشيل هنا تفريق الفريق فقالت: «أمي إن باتريشا فقط تقول هذا لأنها تريدك أن تفضليها علي». فقالت الأم – وهي مازالت مركزه اهتمامها على اتهام ميشيل السابق –: «هل فعلاً تعتقدين أنني غريبة الأطوار؟ بصدق؟» ثم أدارت السؤال على أختها وقالت: «هل تعتقدين أنها تلبس ملابس طبيعية؟» لكن باتريشا خيبت ظنها عندما أجابت: «نعم». ثم بعد ذلك غادرت العائلة المطعم لكن الموضوع عاد إلى الحياة في السيارة. قالت باتريشا إنها تفكر بالعودة للعيش بالمنزل بعد تخرجها من الجامعة، واتهمتها ميشيل أنها تقول هذا فقط حتى تحبها أمها أكثر.

هنا سألت الأم سؤالاً منطقياً: «لماذا تهتمين بما أحب أو أفضل إذا كان كل ما أفعل أو أقول مزعج بالنسبة لك؟» ساندتها باتريشا وقالت: «صحيح..صحيح». فقالت ميشيل: «لأني أنزعج منك عندما تفضلينها علي وتظهرين ذلك بوضوح». تراجعت الأم: «لكن لماذا؟ أنت تقولين إنني أفعل أشياء كثيرة غبية ومزعجة إذاً لماذا تهتمين؟» وهنا دارت الطاولة، فعندما تحدث ميشيل إصرار أمها على أنها تجدها «غبية ومزعجة» وبتقديم التفاصيل لدعم ادعائها فإن الأم أعدت لائحة انتقادات من ابنتها منها: «عدم معرفة الأشياء وكونها أم سيئة (كما تدعي البنت) وأيضاً كونها لا تستطيع شراء الملابس الأنيقة مثل أمهات صديقاتها، وأيضًا لأنها لا تستطيع عمل عصير من الفاكهة والحليب كأم صديقتها». وهنا في الانتقاد الأخير نكشف عن مدى الطبيعة السخيفة التي تتخذها الحوارات في العادة. إننا نادرًا ما نرى هذه السخافة في وقتها لكنها تتضح لنا عندما نرجع خطوة للوراء ونخرج خارج إطار الخلاف.

وبالمقابل ردت ميشيل سريعًا على لائحة الانتقادات مشيرة إلى إحدى صديقاتها: «أنت تعلقين على ابنة كريستا وكيف أنها أفضل مني». وهذا التعليق ضرب على الوتر الحساس فقالت الأم: «هذا افتراء وكذب. إن كلامك مثير للسخرية وكذب وأنت تعرفين ذلك. لم أقل هذا في حياتي أبدًا أبدًا. هذا بالفعل خطأ يا ميشيل لأنه كذب، أنت تكذبين». ومرة أخرى ساندتها باتريشا: «يا لك من كاذبة يا ميشيل. أنت أوقح كاذبة على الإطلاق. سوف تقعين يومًا ما في فضيحة كبيرة لأنك تكذبين دائمًا. ستقعين في التزوير لأن كل كلمة تخرج من فمك كذب».

يا إلهي... كانت هناك ضحكات صغيرة بين الأم والبنات بينما كن يتراشقن بهذه الاتهامات الفظيعة وغير المحتملة. بالطبع فإن باتريشا لا تظن بأن أختها الصغيرة سترتكب التزوير فعليا ومع ذلك فإنه من العجيب والمثير للفضول أن نعرف كيف وصل الحوار من جملة الأم الأولى: «هل تحبون هذا المعطف؟». إلى هذا الانفجار. والإجابة تنطبق على معظم النقاش الجدي الذي يدور بين الأم وابنتها، حيث انضمام الانحياز والانقسام التام. ونلاحظ أيضًا تطرف البنت بانتقاد أمها خصوصًا انتقادها للبسها (وهو واحد من الميادين الثلاثة الكبيرة التي غالبًا ما تستخدمها الأم في انتقاد بناتها إلى جانب الشعر والوزن). عندما جذبت الأم الانتباه للمعطف الذي ترتدي، فإن المعطف أصبح كما لو أنه رداء أحمر يعرض بتباه أمام ثور متمثل بابنتها المندفعة.

ومــا إن بدأت الابنة نغمة الخلاف حتى أصبح كل ما يتفوهون به مثيرًا للمزيـد مــن النقاش والخـلاف. أولاً عممـت الأم أن ابنتهـا لا تحب كل ملابسهـا، وبما أنها لا تحصل على المديح مــن ميشيل فإنها تمدح نفسها.

وبالمقابل فإن ميشيل تزيد من رفضها لتقبل ملابس أمها عن طريق وصفها بالمجنونة. ثم تتحدى الأم ابنتها ـ وسيلة للدفاع عن النفس ـ بأن تقدم الأدلة التي تبين لماذا لم تكن الأم أنيقة، الشيء الذي حث ميشيل على المنافسة بزيادة. ثم استخدمت الأم أجوبة ميشيل كدليل على أن ميشيل تعتقد أن أمها غبية ومزعجة. وهكذا استمرت... كل إهانة جديدة من الابنة حثت الأم على الدفاع عن نفسها، و كل حركة دفاعية من الأم حثت البنت على زيادة حدة هجومها.

يغطي هذه المجابهة اللولبية غضب ميشيل الكبير تجاه أختها باتريشا التي أخذت صف أمها وكونت فريقًا معها ضدها. ولم تغفل الأم عن سخرية ميشيل التي تريد حب أمها، بينما كانت تتصرف بطريقة تبتعد عن أي معنى للحب. وعندما حددت الأم كيف أن ميشيل أظهرت عدم حبها فإن ميشيل ردت بسرعة وبطريقة معاكسة ومنطقية للجدال: «ربما تكوني على صواب بأني لا أحبك لكنك لا تحبينني أيضاً». إن الاتهام المماثل طريقة اعتيادية في الجدال، لكن قول الأم بأنها لا تحب ابنتها هو من أسوأ الاتهامات ولهذا وصل تجاوب الأم إلى أعلى مستويات الغضب. لأن الضربة الأخيرة كانت قد أثيرت بسبب سؤال ميشيل لأمها عن قولها بأن ابنة كريستا أفضل منها، نقطة الخلاف هذه تستحق الاكتشاف. سأكون على استعداد للرهان بأن الرسائل الخفية أو ما وراء الرسالة هي قلب وأساس هذا النزاع. على الأرجح إن الأم على صواب برفضها لاتهام ابنتها بأن ابنة كريستا أفضل من منها. لكني متأكدة من أنها مدحت سابقا ابنة كريستا بطريقة أو بأخرى. وبما أن البنات المراهقات ألطف مع أمهات صديقاتهن أكثر من أمهاتهن، وبافتراض أنها فعلت فإن ميشيل ربما التقطت الرسالة الخفية في كلمات الأم: «أنت لا

تستحقين المدح الذي أقوله لابنة كريستا». إن نزعة الإنسان بالشعور بالنبذ عندما يمدح أحدهم الشخص الثالث هو شعور عادي، وربما يكون تجاوبًا كونيًا. هناك تعبير خاص في اللغة التركية يستخدمه المتحدث عندما مدح شخصًا غائبًا «طرفًا ثالثًا» وهو «زيزتين ايي اولمازين» والترجمة القريبة هي «أرجو أو أدعو ألا يكون هو أو هي أفضل منك». وفي معنى آخر «لا تعتقد أني عندما أمدح هذا الشخص أعني أنك لست بنفس المستوى والمقدار». لذا فإن ميشيل على الأرجح سمعت في كلمات أمها أنها ترى ابنة كريستا أفضل منها بالرغم من أن الأم لم تقل هذا.

وعند العلم بأن كل خطوة في الجدال قد ترتبت بشكل منطقي على الخطوة التي سبقتها، فكيف كان من الممكن تفادي هذا التصاعد؟ وبما أن ميشيل مراهقة، فسأركز على الأفعال التي كان باستطاعة الأم فعلها. ليس هناك أي شيء يمكن أن تفعله الأم لتفادي الانتقاد من البنت المراهقة، لكن التحدي هنا أن نتأكد من عدم تصاعد الخلاف وخروجه عن السيطرة. وإنه من الأفضل أن تترك الأم الموضوع إذا استطاعت، بدلاً من تكبير مسرح المعركة. وللأسف فإن أم المراهقة عليها التخلي عن الأمل في سماع أي شيء إيجابي من ابنتها المراهقة. وأية حركة تتطلب تجاوباً إيجابياً تترك الأم عرضة للنبذ والتألم.

مع أن ميشيل في هذا الحوار قالت: «هل فقدت عقلك؟» فإنها كانت تعني المزاح والسخرية بلا شك. ومن الطبيعي سماع اتهامات كهذه من الفتيات المراهقات، بل وأسوأ منها أيضاً. وعند تصرف المراهقة بهذا الشكل فإنه من الأفضل على الأم إنهاء الحوار بطريقة كهذه: «لا يمكنك التحدث إلي بهذه الطريقة». أو حتى يمكنها قول: «ليس عليك أن تحبيني لكن عليك أن

تعامليني باحترام». هناك خيار آخر للأم وهو إعادة تشكيل الحوار، أن تقول مثلاً: «هذا الحوار يجعلني أشعر بعدم الراحة وبالحزن لنغيره إلى حوار آخر». وإذا لم تهدأ الأزمة أو يتغير مزاج الحوار فيمكن الأم الطلب من الأخت الكبرى بأن تتوقف عن أخذ صفها ومساندتها بالحوار بالرغم من صعوبة ذلك. وفي الحقيقة ليس هناك ما يمنع من أن تنعم الأم بهذا الدعم بشكل سري. أي شيء يمكنها أن تفعله لقيادة الانقسام التام في الحوار والحذر من الانحياز سيعطيها قوة تحكم أكبر في الحوار، ويضعف فرصة تحول التعارض والنزاع اللولبي إلى خلاف كبير.

كيف لنا الخروج؟

بالرغم من أن الحوار بين ميشيل وباتريشا وأمهما هو خاص بالعائلات التي لها فتيات مراهقات، إلا أن هذا الحوار يشترك بصفات كثيرة مع النقاشات التي نجد أنفسنا عالقين بها. أعتقد أننا نعلق بنفس الحوار مرات عديدة لأنها الحوارات الوحيدة التي نستطيع أن نتشارك بها. إذا جربنا أنواعاً مختلفة من الحوارات فربما نكتشف أننا نستطيع المشاركة بها أيضاً أو أننا على الأقل يمكننا أن نتعلم.

ولنر كيف يمكن لهذا أن يحدث. لنرجع إلى الحوار الذي في بداية هذا الفصل حيث تشجع منى ابنتها على الانتقال إلى منزل قريب من عملها حتى تخفف من الأعباء و الالتزامات. منى «الأم» يمكنها أخذ القرار بعقد لسانها، فقد وضحت وجهة نظرها لابنتها مرات عديدة، وليس هناك ما يمكنها فعله. وهذا لا يعني فقط مقاومة الرغبة في قول أي شيء عن هذا الموضوع، بل أيضًا محاولة منع رأيك من التسرب. وقد دهشت حقًا عندما

قالت أكثر من أم عن أشياء في بناتهن لا يوافقن عليها، لكنهن لا يتفوهن بكلمة للبنات وفي الوقت نفسه ذكرت البنات في مقابلة مختلفة أن أمهاتهن لا يتوقفن عن الكلام في الموضوع نفسه. ومن المحتمل أن الأم لم تقل شيئاً على مستوى «الرسالة الصريحة»، لكن البنت سمعت المعنى عاليًا وواضحًا على مستوى «ما وراء الرسالة.»

إذا شعرت منى بالإحباط لعدم مقدرتها على عرض قضيتها بالشكل الكامل، أو شعرت أنها ملزمة بتذكير ابنتها بالخيارات المتوفرة بين يديها فيمكنها إيجاد الوقت المناسب للحديث في الموضوع، والبنت تشعر دائمًا بما تريد أمها الحديث عنه. ولو أن تريسي شعرت بأنها تتحدث مع أمها في حوار هادئ فإنها لن تصاب بالعمى ولن يتحول الحوار العادي إلى حوار متوتر بالرغم من توقع ذلك.

وبالنسبة لما يمكن لتريسي فعله هو اتخاذ القرار بأنها لن تدخل في هذا الحوار، وإذا فتحت أمها الموضوع فإنها تقاوم الرد. يمكنها صراحة قول: «دعينا لا نتكلم عن هذا الموضوع». أو يمكنها الوصول للنتيجة نفسها عن طريق تغيير الموضوع. يمكنها أيضًا اقتراح النقاش في هذا الموضوع في وقت آخر بغض النظر لو كانت فعلاً تود ذلك. عندما لا تسير أمورنا بالطريقة التي نريد فإن تجاوبنا غالبًا هو فعل العمل نفسه لكن بشكل أقوى. والشخص المقابل على الأرجح سيقوم بفعل ما فعله سابقًا للرد علينا لكن بشكل أقوى أيضًا، والنتيجة كما رأينا الانقسام التام. وأي شيء تفعله الأم (أو البنت لو كانت راشدة) لإيقاف هذه الدورة سيكون نعمة. وعادة ما يعني هذا التخلي عن أعمال تبدو لنا مناسبة.

تأمل تلك الحالة التي تلتمس فيها الأم القرب من ابنتها بينما تعتقد البنت أن أمها متطفلة أو كثيرة الاحتياجات. الحل من الممكن أن يكون مثيراً للسخرية. فلو أن الأم لم تبد يائسة للقرب والتواصل مع ابنتها ربما لاجتهدت البنت في التواصل مع أمها. ولو أن البنت أظهرت اهتماماً أكبر بصحة والدتها لربما توقفت الأم عن الشكوى عن صحتها بشكل دائم. والعكس صحيح أيضاً، فلو أن الأم لم تتبرع بمعلومات عن صحتها كان على البنت أن تسألها. ولو أن البنت تبرعت بمعلومات أكثر عن نفسها أو حياتها فإن الأم ستقلل أسئلتها وهكذا.

من الممكن للبنت أن تدعو أمها إلى داخل حياتها بشكل غير محسوس، مثل الذهاب معها في رحلة حول المدينة، أو أن تسأل أمها النصيحة عن أفضل هدية يمكنها شراؤها لزواج صديقتها حتى ولو أنها لن تأخذ برأيها، (مع ذلك من يدري ربما وجدت إحدى نصائح أمها مفيدة). هذا سيجعل الأم تشعر أنها مرتبطة بحياة ابنتها مما سيقلل من محاولاتها لإيجاد طرق للتقرب والترابط والتي عادة ما تكون مزعجة للبنت. وبهذا فإن الانقسام من «الانقسام التام» يتحسن، وبدلاً من تطور العلاقة بالبعد تصبح الأم والبنت أكثر قربًا وهذا يقلل من التصرفات المؤذية والجارحة.

بغض النظر عن نقطة الخلاف فإن حال الأم والبنت سيكون أفضل لو استطاعتا تجنب الحفر الصغيرة التي تسرب الإحباط والنبذ. لنعد قليلاً للأم آيرين التي تشعر بالألم لأن ابنتها لا تود مشاركتها بحديث ودي تقدره الأم على أنه علامة قرب وتواصل. ولنفترض أنهما تتحدثان على الهاتف في حوار قصير للتخطيط لزيارة البنت لأمها . تقول مارج لأمها آيرين: إن آخر شهر مايو سيكون جيدًا، ثم تقول آيرين: «كنت أفكر في تحديد موعد جراحة ركبتي في هذا الوقت».

تعـبر مارج عـن مفاجأتها قائلة: «أمـي.. لم أكن أعلـم أنك ستقومين بعمل جراحة لركبتك. لماذا لم تخبريني؟»

حسنًا.. سيكون من المغري جدًا لآيرين أن تقول لابنتها: «كنت سأخبرك لو أنك تتكلمين معي على الهاتف أكثر من دقيقتين». ربما تجد آيرين هذا التعبير مرض للغاية لتوضيح ما تعانيه، لقد عثرت أخيرًا على دلائل لوجهة نظرها، لذا لماذا لا تلفت نظر ابنتها إلى هذه الدلائل؟ والسبب في عدم فعل هذا هو الانقسام التام. مثل هذا التعبير سيلمح وينتقد الابنة لأنها لا تمضي مدة كافية مع والدتها على الهاتف، والنقد جارح دائمًا. فإذا كانت علاقتك قريبة من شخص فربما تراه يهاجمك فجأة أثناء الحديث ويسدد إليك الضربات اللفظية. لذا فإن النتيجة ستكون بالضبط عكس ما تود آيرين، وهي تصميم ابنتها على جعل المكالمات قصيرة وقليلة. والطريقة الفعالة لإبطال مفعول أي خلاف هي تغيير حالة أو صيغة الحوار إلى الفكاهة. وقد رأينا كيف فعل هذا الأب في الحوار الذي دار حول «وال مارت». يبدو أن الرجال يستخدمون أسلوب الفكاهة أكثر من النساء في هذه الحالات.

تلقيت بريداً إلكترونياً من رجل يدعى مايكل إيكينرود وصف فيه نمطاً قريباً من هذا في عائلته. فبعدما ذكر كل الطرق التي تنتقد بها الأم أخته ـ وكل شخص أيضاً ـ قال: «لو كنا نتابع برنامجاً فكاهياً مثل «الجميع يحب ريموند» فإن الأمهات في البرنامج مضحكات، لكن الأمر في الحياة الحقيقية غير مضحك. فلقد وجدت ـ على الأقل في عائلتي ـ أن النساء دائماً تجاوزت سنوات عمرهن الرجال بكثير. فبموت آخر عجوز منهن قبل عدة سنين لم يعد هناك أحد ليفرغ حدة التوتر بفكاهة بذيئة وفظة».

الفكاهة بالفعل مثلها كأي إستراتيجية لفظية من الممكن أن تنجح في بعض الحالات لكن ليس دائماً. وعند قراءتي لهذا البريد تذكرت أن والدي كان يطلق النكات دائمًا مبهجًا الجميع، لكن أيضًا تذكرت إحباط أمي عندما حصلت نكات زوجها على اهتمام الحاضرين بدلاً من اهتمامهم بما قالت: «خذ راحتك واضحك.. كل شيء بالنسبة لك مزاحٌ!».

تستخدم النساء الفكاهة أحياناً لتحريف النزاع أيضاً ونصيحتي أن تزيد النساء من استخدام هذا الأسلوب وإن كان جديدًا عليها، فلعلها تتجرأ وتبدأ باستخدامه.

هنا مثال لكيفية عمل الفكاهة في تحريف وتغيير مسار خلاف مستمر بين أم وابنتها. الأم أحبت أن تعرف مبكراً كيف سيكون برنامج مواعيدها خصوصًا إذا كان هناك خطة للسفر، حتى يتسنى لها أن تستغل موسم تخفيضات التذاكر. والبنت دائمًا تميل إلى إهمال ترتيب جدولها حتى اللحظة الأخيرة، وفي العادة تقوم بالحجز قبل بضعة أيام لا تمكن الشخص من استرجاع نقوده في حال التغيير. وفي سنة من السنوات وبعد عيد الشكر قالت الأم: «لقد أمضيت عيداً سعيداً مع أصدقائي هذه السنة لكني كنت أفكر أنه من الجميل قضاء العيد القادم مع العائلة. ما رأيك لو طبخت العشاء في العيد القادم لك ولزوجك ووالديه؟» أجابت الابنة: «تعرفين... أنا لا أقوم بعمل تخطيط بعيد المدى كهذا يا أمي. لماذا لا تكلميني قبل العيد بأسبوع وسوف نتحدث وقتها؟» بدلاً من أن تقول مباشرة أن التخطيط للعشاء الذي سيتم بعد سنة من الآن هو شيء سخيف ومناف للعقل فإن الابنة استخدمت طريقتها بترك القرارات للحظة الأخيرة كعذر. والفرق بين السنة والأسبوع كان مضحكًا جدًا لدرجة أن الاثنتين بدأتا بالضحك ـ وفهمت الأم ما كانت البنت تحاول إيصاله.

إن الفكاهة كما رأينا سابقاً هي واحدة من الطرق العديدة التي يمكنها إيقاف تحكم الانقسام التام بالحوار. ببساطة فإن فهم كيفية عمله، وكيف يمكن للانحياز أن يلعب دوراً في الحوار هو الخطوة الأولى تجاه الحوار البهيج أو البائس، والذي يمكنه أن يحول الحوار اللطيف إلى حوار شيطاني بين الأم وابنتها الراشدة. إذا كنت لا تفهمين ما الدافع داخل حواراتك المسببة لألمك إذا فمن الصعب عليك تغيير الحوار إلى اتجاه آخر. إنه من السهل اتهام الطرف الآخر، أو أن نشعر أننا نتصرف بشكل مبرر وواضح. لكني أستمر بالإعجاب بتلك النساء اللاتي أخبرنني بأنهن ما إن بدأن بفهم طريقة نمو وعمل الحوار حتى فهمن وجهة الطرف الآخر. وأدركن أن لديهن القوة في التجاوب بطريقة مختلفة. إن تغييراً بسيطاً في أسلوب الرد والتجاوب يمكنه تفادي الحريق الهائل وتحسين الحوار ومن ثم تحسين العلاقة بين الأمهات والبنات.



6

مطلوب: أم

الوصف الوظيفي

اشتركت تقريباً كل أم تحدثت إليها بنقطة القلق نفسها وهي خوفها وقلقها من عدم كونها أماً جيدة. إن الطلاق الذي كان مناسبًا لها لم يكن جيدًا لأطفالها. أو أن متطلبات الصغار قد غمرتها لدرجة أنها كانت تفقد أعصابها وتخيف الصغار بغضبها. إن الساعات الطويلة التي أمضتها في العمل تعني أنها لم تكن في المنزل في الوقت الذي يحتاجون إليها. ولأنها ندمت على ترك العمل في سبيل البقاء في المنزل مع الأطفال، فإنها قد شجعت ابنتها لأن تسعى خلف بناء مستقبلها المهني. لكنها الآن ترى ابنتها تواجه الصعوبات في تربية أطفالها وإدارة المنزل ورعاية زوجها والعمل في وقت واحد. وتخشى من أنها قد أسدت لابنتها النصيحة الخاطئة. ولأن تقدير النساء لأنفسهن يعتمد بقدر كبير على تقدير العالم لنجاحهن أو فشلهن كأمهات. تعيش كثير من النساء حياة منغصة بسبب هذا الشك: «هل قمت بدوري كأم؟» هذه الشكوك لا تسكن أبدًا، لأن هذا العمل يتضمن رقمًا غير محدد من الأعمال والتوقعات والمتطلبات. ولا يمكن إنجاز كل هذا بطريقة ترضي الجميع، حيث إن كل ما تفعل أو تقول الأم من الممكن أن يحسب ضدها.

من الذي يمكنه أن يستجيب لطلب وظيفة «كأم» لو كان وصف الوظيفة دقيقاً وكاملاً؟ لنفكر في الأعمال التي يمكن أن تكون في إعلان وظيفة بعنوان «مطلوب أم».

مركز الاتصالات

كنت أتحدث إلى والدتي على الهاتف، وبعد مكالمة طويلة قلت لها إنني أود الحديث مع والدي. قالت والدتي وابتسامة في صوتها: «لو كنت فتاة جيدة». وبالطبع كانت تمزح وقامت بتمرير الهاتف إلى والدي. لكن صدى تعليقها الساخر ارتد بقوة من حياتي كطفلة. كانت أمي كما لو أنها موظفة اتصالات بلوحة مفاتيح توجه الاتصال وتختار مَنْ يتحدث إلى مَنْ.

كثير من الأمهات تأخذ دور «المختص بالاتصالات العائلية». وغالبًا ما تبدأ هذه الوظيفة بدور الوسيط بين الأبناء وأبيهم. تسأل إحدى البنات أمها: «ما رأي والدي في انفصالي عن بول؟» فتجيب الأم: «إن والدك سعيد أنك في البيت معنا الآن». والأمهات عادة ما ينقلن آراء ومشاعر الآباء للبنات والأبناء أيضا.

هنا مثال لافت للنظر من خلال مقابلتي بجون ريتشارد الذي كتب كتابًا عن حياة والده كجاسوس في مخابرات السي آي آيه. وفسر كيف أن والده كشف تدريجيًا عن ماضيه. قال ريتشارد: «عندما فتحت موضوع كتابة كتاب مع والدي في البداية غضب كثيراً، لكنه لم يظهر هذا ولم يخبرني بل أخبرتني أمي لاحقا بأنه غضب لأيام عديدة». إن لعب دور الوسيط غالبًا يستلزم توزيع المعلومات. وبمقارنة عدد الساعات التي تقضيها النساء في الحديث عن العلاقات فإن الرجال مبتدئين نسبيًا في هذا المجال. وربما كان هذا هو سبب تخلي الرجال عن قسم الاتصالات لزوجاتهم.

إن الأغلبية العظمى من تلاميذي والذين مازال آباؤهم يعيشون معًا يقولون: إنهم عندما يتصلون بالمنزل فإنهم على الغالب يتحدثون لأمهاتهم، وأحياناً لا يتحدثون لآبائهم نهائيًا. وغالبًا ما تكون هذه الحوارات قصيرة تدور حول العمل. مثلاً كتبت أليسون كيليهير: «عندما أتحدث إلى أمي في الليل فإن والدي يأخذ السماعة لخمس دقائق ويتحدث عن شيء حصل في البنك أو عن مشكلة في جهاز الحاسب، وينهي المكالمة قائلاً: «أتمنى أن تسير كل أمورك بشكل جيد، أنا أحبك». والشيء نفسه كان بالنسبة لي. فطيلة مرحلة حياتي البالغة كنت أتصل بمنزلي أسبوعيًا، وبمرور الوقت أدركت أنني بالرغم من أني كنت أعتقد أني أتصل بوالدي، كنت في الحقيقة أكلم أمي فقط. وإذا صادفت أن رد أبي على الهاتف فإنه يقول على الفور: «انتظري.. سأنادي أمك، ستكون سعيدة جدًا لسماع صوتك». وأسمعه ينادي: «دورررثي... ارفعي سماعة الهاتف!» في البداية كان والدي يتكلم من إحدى سماعات الهاتف وأمي تتكلم من السماعة الأخرى، لكن بعد مدة ليست بالطويلة لاحظت بأن سماعته صامتة وأدركت أنه اختفى، تاركًا الحوار لي ولأمي. لطالما جعلني هذا أشعر بخيبة الأمل، وعندما أدركت أنه لم يعد موجوداً على سماعة الهاتف شعرت بأنه هجرني. وفي يوم صدف أني اتصلت ولم تكن أمي موجودة بالبيت، وقد دهشت أن والدي كان متحمساً للحديث معي طويلاً على الهاتف. كنت أعتقد في الماضي أنه غير مرتاح للمكالمات الطويلة، لكنه في الحقيقة كان يحاول التكييف مع ما تعتبره زوجته حقاً لها في هذا الميدان. وبعد ذلك تعمدت الاتصال من وقت لآخر عند تأكدي من وجود والدي وحيداً في المنزل.

تأخذ الأمهات دور الوسيط في كثير من العائلات، تقوم بترجمة الردود والتعبير بين الأب والأبناء. من الممكن لهذا الدور أن ينجح في حالات كثيرة

لكن أحياناً يصبح دور الوسيط كدور الدخيل. فمن خلال واجب كان يقوم به تلاميذي قامت تلميذه تدعى فارينا ويندير بمقارنة رسائل تلقتها من والديها. ومن خلال تحليلها لهذه الرسائل كتبت فارينا: «أنا وأمي نتحدث على الهاتف كثيراً، لكن إلى هذه اللحظة لم نتحدث أنا وأبي على الهاتف أبداً». وقد ظهرت عدم سعادة أبيها عن هذا الوضع في رسالته التي قال فيها: «أحصل على نسخة من أخبار حياتك عن طريق أمك. وكنت أفضل أن أسمع هذا بنفسي منك». وكما اكتشفت أنا مع والدي، ففتح خط الاتصال مع الأب يتطلب جهداً وسعياً، لكن الاتصال بين الأم وابنتها غالبًا ما ينشأ بدون تحضير، لأن ميدان الاتصال هو من ملكيات الأم.

مديرة قسم العلاقات العامة

لا يخضع الاتصال الداخلي فقط تحت سيطرة الأم، بل الاتصال الخارجي أيضاً. ما المعلومات التي تخرج للعالم عن العائلة؟ وكيفية تقديم هذه المعلومات. وجزء من وصف وظيفة الأم أن على المتقدمة أن تكون مديرة علاقات عامة جيدة.

سجلت دينا هال وكريستين لانجيلير حوارات مع خمسة أزواج من البنات وأمهاتهن. وطلبت منهن ذكر قصص عن أوقات تناول الطعام في عائلاتهن. ومن بين ما نقلن هو سعادة واحدة من البنات في نقل صورة سيئة عن عائلتها لا تضعهم في وضع جيد. وبينما حاولت الأم إيقافها بلا جدوى كانت البنت تقول لأمها: كيف أنها كانت تصف عشاءً طبيعياً في منزل العائلة عندما كانت صغيرة فقالت: «كنت أخبر دينا كيف أننا كنا نبدأ عشاءنا ثم تقولين: «لا أستطيع أن أجلس هنا وآكل، ثم تذهبين

إلى غرفتك». وبدون أن تنتظر أن تنهي ابنتها الجملة تقاطعها وتقول: «لا تخبريهم عن هذا، هذا لم يحدث دائماً». أكملت البنت حديثها بدون أن يثنيها شيء: «ثم يقول توم أنا لا أستطيع أن آكل فبطني يؤلمني. ثم يذهب لغرفته ويقفل الباب». وبما أن السر قد خرج الآن فإن الأم تحاول تحسين الطابع السلبي الذي من الممكن أن يظهر في المقابلة فقالت: «حدث هذا فقط في حالات قليلة. إننا نخبرك عن أسوأ الحالات التي تعرضنا لها. إننا بالفعل ليس علينا الحديث عن هذه القصص».

وكمديرة لقسم العلاقات العامة، فقد حاولت هذه الأم أن تدير الطابع الذي كانت تتركه عائلتها على العالم الخارجي، أولاً: عن طريق منع تسرب المعلومات للخارج، ومن ثم عن طريق إعادة تشكيلها وكيفية تقديمها. وعندما يصبح هذا من المستحيل فإن الأم ربما تحاول التحكم بوقت التصريح بهذه المعلومات للعامة.

منذ ثلاثين سنة انفصلت أنا وأختي عن أزواجنا تقريبا في الوقت نفسه، وبعد هذا بمدة قصيرة أخبرتنا أختي الثالثة أن زواجها أيضًا كان على وشك الانتهاء. وقد توسلت لها أمي أن تبقي هذه الأخبار سرًا فقالت: «لقد أخبرت للتو كل من أعرف عن طلاق أخواتك. من المستحيل أن أستطيع أن أخبرهم عنك أيضًا بهذه السرعة». إن والدي اللذين ولدا في أوروبا شعرا بالمسؤولية تجاه طلاق البنات. أستطيع أن أتخيل الصدمة التي عاشوها بسبب تحول البنات الثلاث من متزوجات إلى مطلقات في مدة بسيطة. لكني لم أفكر بهذا في تلك المرحلة كنت منزعجة من تركيز أمي و اهتمامها بنقل خبر الطلاق للآخرين بدلاً من اهتمامها بشعور أخواتي.

تغضب كثير من النساء من اهتمام أمهاتهن بطريقة ظهورهن أمام الناس. إننا نود أن نظهر كأفراد مستقلين وليس كمندوبات عن أمهاتنا. لكن كيف للأم أن لا تقلق وهي تعلم أن ما يدور في حياة ابنتها هو أساس للحكم عليها.

وفي القصيدة «لآن جريجوري» فإن «ييتس» كتبت: «فقط الله عز وجل يحبك لما أنت عليه وليس لشعرك الأشقر». وهنا الشعر الأشقر يحتل مكانًا أي: مظهرًا يحكم علينا العالم من خلاله. ومن الممكن أن نتبني مجرى التفكير هذا ليعكس استحالة تلبية متطلبات البنات، وتجاهل الانطباع الذي تتركه البنات على العالم. لأن «فقط الله عز وجل يحبك لما أنت عليه وليس كما يظهر أبناؤك». لهذا تحاول كثير من الأمهات إدارة كيفية ظهور أبنائهن أمام الأصدقاء والعائلة والخليط غير المنظم من الجيران.

في المسرحية الغنائية «تحت حليب الخشب». صور ديلان توماس كيفية تشابك حياة الأفراد في مدينة صغيرة في ويلز. ومن الأشياء التي لازمت وتكررت طيلة عرض المسرحية هو صوت امرأة يكرر العبارة الآتية: «ماذا سيقول الجيران كلهم، ماذا سيقول الجيران كلهم» وتوماس لا ينهي هذه الجملة بعلامة استفهام لأنها في الحقيقة ليست سؤالا على الإطلاق. والإجابة هنا ضمنية، فليس هناك حاجة للتأمل لأن الجيران سيتكلمون على أية حال وهذا يعني أنهم لن يرضون أبداً.

إن ثرثرة الجيران تلعب دورًا في الثقافة البورتوركية كما بينت إيسمير الدا سانتيجو التي انتقلت هي وعائلتها من موطنهم الأصلي بورتوريكو إلى مدينة نيويورك في سن الثالثة عشرة. كتبت تقول: إنها

عندمـا كانت مراهقة كانـت محاطة بالمعايـير الاجتماعية التـي فرضتها أمها، وقد أصرت أمها وباستمرار على القول بأن ابنتها عليها أن تكون «فتاة بوتوروكيـة محتشمة» والذي يعني أن عليها أن تكـون واعية في كل الأوقات، وأن عليها التصرف وفق الطريقة المتبعة وليس عكسها ـ وإن لم تفعل ـ ماذا سيقولون؟ إن أم سانتيجو لم تكن المتحدث الرسمي لهذا النظام فقط ولكن أيضـاً المحرضة عليه، أو كأنها الاستخبـارات المنزلية. عندما كنت أتحدث إلى زملائـي الأولاد في الفصل كنت أتخيلهـا تظهر لي وتذكرني بأن الفتاة المحتشمة لا تفعل هذا. معظم الثرثرة التي تصفها سانتيجو كان لها علاقة بالحفـاظ علـى السلـوك المنضبط و الابتعـاد عن الجنس. فطهـارة المرأة وعفتها جنسياً كما في كثير من الثقافات تعتبر من شرف العائلة.

لقد كانت تجربة سانتيجو محبطة بالذات لأن أمها توقعت من ابنتها التي كانت تعيش في نيويورك أن تلتزم بالمعايير التي تطبق في القرية الصغيرة في بورتوريكو. لكن كل أم تواجه تحديًا مرعبًا عندما تصل ابنتها سن البلوغ.

الصديقة العزيزة

كتبت آن هولبيرت في كتابها «تربية أمريكا» أن النصيحة الموجهة للطفل قد تغيرت خلال القرن الماضي بين التشديد على الصداقة والعاطفة وبين التأديب والسلطة. وهذه طريقة أخرى للحديث عن المفارقة بين التواصل والتحكم. فإن التعامل مع حياة البنت الجنسية التي في طور النمو يجعل الأم تتربع فوق هذه المفارقة والمعضلة. فهي على الأرجح ستكون أكثر نجاحاً لو أنها أخذت دور الصديقة، وبالفعل فإن الكثير من الأمهات الأمريكيات

والبنات يتكلمن عن بعضهن كصديقات عزيزات. لكن الأم التي تأخذ هذا الدور كجزء من وصف وظيفتها تواجه خلافاً في الاهتمامات لا مفر منه. إن الصديقة لا تحمل عبء حمايتك كأمك، إن دور الصديقة العزيزة يتصادم مع دور السلطة الذي يأتي مع كونك أماً.

كتبت آنا توفاريز خلال دراستها لحوارات بين الأمهات والبنات عن مثال من مقطع برنامج تلفازي. في المشهد تلاقي الأم ابنتها وصديقاتها في السوق وتحاول جاهدة أن تمثل على أنها واحدة من البنات وأن ترفع ما بينهما من حواجز. ثم بعد عودتهما للمنزل عاتبت الابنة أمها وقالت إنها قد أحرجتها أمام صديقاتها: «لا تتصرفي كما لو أنك صديقتي! أنت أمي». «حسناً» قالت الأم، ثم أكملت الأم: «اذهبي إلى غرفتك». ثم غيرت البنت هجومها وقالت: «كنت أعتقد أننا صديقات». هذا المقطع يصور بطريقة موجزة المفارقة التي تتفاعل بين الحب والسلطة بين البنات وأمهاتهن. عندما تكون البنات في سن صغيرة فإن لعب الأم لدور الصديقة العزيزة ينجح بطريقة واحدة: عندما يخبر البنات أمهاتهن عن مشكلاتهن لكن الأمهات لا تخبر البنات بالمقابل عن المشكلات التي يواجهنها. كثير من النساء التي عاملتهن أمهاتهن على أنهن صديقات مؤتمنات على الأسرار أدركن أن هذا عبء وحمل ثقيل على أكتافهن. لكن عندما تصبح البنت راشدة فإن تقايض إشارات الثقة المتبادلة تشير إلى الصداقة. وإذا لم يحدث هذا فإن واحدة منهن ستشعر بخيبة الأمل كما وصفت امرأة في السبعينيات من عمرها، قالت: إنها قد توقعت أنه سيكون باستطاعتها اللجوء إلى ابنتها عندما تشعر بالوحدة أو بالقلق على صحتها أو أمورها المادية. لكن رفض ابنتها لأخذ هذا الدور يشعرها بالألم الشديد. يبدو أن

الابنــة لا تود لعب دور الصديقة العزيزة، لأنهــا لا تود أن تشعر بالمسؤولية ومــن ثم الالتزام بتبديــد أسى وحزن أمها. وبمعنى آخر فإن الابنة في هذه المرحلــة من العلاقــة تناضل في محاولــة التسوية بين الحــب والمودة وبين التزاماتها ومسؤولياتها التي تأتي تبعاً للتواصل.

ولكل هذه الأسباب فإن دور الصديقة العزيزة الذي هو مصدر الكثير من الرضا والراحة بين الأمهات والبنات لكنه من الممكن أيضاً أن يسبب التشويش والنزاع.

الأستاذة الأم

مرحلة أخرى تمر فيها الأم والبنت وتضعهما في منتصف طريق المفارقة بين الحب والسلطة، وهي المرحلة التي ترزق فيها الابنة بطفل. فإن الابنة التي تمر في حالة الولادة تكون قد تشاركت مع والدتها بشيء جديد. لكن هذا لا يضعهما في مرتبة واحدة، فالأم لها خبرة أكبر في هذا المجال، لذا ففي حالات كثيرة تتوقع الاثنتان أن الأم ستقوم بتعليم الابنة كيف تكون أماً.

أتت أم شيري لتساعدها بعد ولادتها لمولودها الجديد، وقد أخبرتني شيري أنها نظرت لأمها على أنها «المشرفة الكبيرة» فقالت: «إن كلينا يعرف أنني جاهلة في هذا المجال». لذا فإنها غالباً ما كانت تسأل أمها: «ماذا أفعل الآن؟»

امرأة أخرى تدعى رينيه قالت: إنها عندما وضعت مولودها فإن أمها أتت لمساعدتها، وبقيت معها مدة ثلاثة شهور. قالت أم رينيه لابنتها: «لن أتركك

على الأقل مدة ثلاثة شهور لأنك لا تعرفين كيف تتصرفين مع الطفل». «كنت أماً تحت التدريب». وصفت رينيه كيف أن أمها علمتها فعل الأشياء بالطريقة الصحيحة مثل تنظيف الطفل وإطعامه وغيره، لكن كان من الواضح من طريقة كلام رينيه أنها كانت ممتنة لمساعدة أمها ودروسها.

تساعد كثير من الأمهات بناتهن بهذه الطريقة، لكن هناك طرق أيضًا يفشلون بها، مثلاً عندما وضعت تيريسا مولودها الأول حضرت أمها للمساعدة. وقد كانت تيريسا ممتنة لمساعدة أمها لكنها شعرت أيضاً بأن أمها كانت تسيطر على كل شيء. عندما كان يبكي الطفل كانت أم تيريسا تهرع لحمله وتصل للطفل قبل وصول تيريسا لطفلها. شعرت تيريسا هنا كما لو أنها كانت تتبارى في سباق، وقد شعرت بأن نصائح أمها الدائمة عن كيفية الاعتناء بالطفل جعلتها تشعر بعدم الراحة فقد كان كل شيء تفعله متقن للغاية.

فإذا كانت تريسا قد غضبت من أمها لأنها كانت تملي عليها كيف تعتني بطفلها فإن «بيني» في القصة الآتية قد غضبت من أمها لأنها لم تفعل. عندما وضعت بيني طفلها الأول وحضرت أمها للمساعدة، شعرت بيني أن أمها كانت تملي عليها فعل أشياء لم تعرف بيني كيف تقوم بها، فقد كان لبيني في صغرها مربية تساعدها. مثلاً أصرت أمها وبشدة أن الأطفال يجب إعطاؤهم حمامًا كل يوم وفي الوقت نفسه، لكنها في الحقيقة لم تقوم بإعطاء طفل حمامًا في حياتها. وأيضًا أصرت على أن البيت يجب إبقاؤه نظيفًا ومنظمًا وهذا سهل عندما يكون عندك من يخدمك ويقوم بهذا عنك. لكن هذا غير واقعي لبيني التي تقوم بكل هذه الوظائف بنفسها. ومن الممكن هنا القول بأن بيني شعرت بأن أمها لم تقف إلى جانبها لأنها لم تملأ دور الأستاذة الأم.

من المؤكد أن تفشل الأمهات أحيانا في دور الأستاذة الأم لأن افتراضية معرفة العناية بالطفل من المؤكد أنها تتغير مع السنين عما قد اعتادت الأمهات عليه، ومنذ اكتسبن خبرتهن.

حتى شيري التي بالفعل قدرت مساعدة أمها وحكمتها تخبرنا عن نصيحة أسدتها لها أمها وقد كانت سعيدة أنها لم تعمل بهذه النصيحة. كانت حرارة طفلها مرتفعة وقالت أمها: «قومي بلفه جيدًا واجعليه يشعر بالدفء والحرارة، إن عليه أن يعرق كثيرًا حتى يتخلص من هذه الحرارة». فقمنا بلفه ببطانيات كثيرة وقد بدا وكأنه حبة طماطم صغيرة. ثم قلت سأقوم بالاتصال بالطبيب وبالفعل اتصلت فقال الطبيب: «أوه .. لا! هذا من شأنه أن يقتل الطفل. قومي بإعطائه حمامًا وبغمره بالماء حتى تبرد حرارة جسمه». ثم قالت أمي: «حسنًا هذا ليس ما فعلناه في أيامنا». فأجبتها: «نعم.. ولكننا نحاول ألا نقتل هذا الطفل، إنه وحيدي».

التلميذة الكسلانة

بالرغم من أن أم شيري قد وفّت بإحدى متطلبات وصف الوظيفة من خلال تعليم ابنتها الراشدة كيفية العناية بالأطفال، فإن النصيحة التي قدمتها لابنتها حول حرارة الطفل كانت خاطئة. إن المعالجة الطبية وجه من وجوه العناية بالطفل والتي تتغير من جيل لآخر. إن وصف الوظيفة الخاص بالأم الصغيرة يتطلب في بعض الأوقات أن نتراجع خطوة إلى الخلف لمن نعتقد أنهم أكثر خبرة ومعرفة. لكن هذا التوقع مصاحب للفكرة المناقضة والتي تقول إن علينا معرفة ما نفعل بالغريزة. في كتاب «قناع الأمومة» علقت سوزن موشارت على هذا بسخرية وقالت: «بدأ الخبيران الدكتور

سبوك وبينيلوب ليش بالقول إن على الأم أن تثق بغريزتها، ثم استمرا وقاما بتقديم كتب مليئة بالنصائح للأمهات، وهذا تلميح بأن قراءهم من الأمهات لا يستطعن أن يثقن بأنفسهن».

ولزيادة حجم المشكلة فإن نصائح الخبراء دائمة التغير، لذا فإن الالتزام بما يقول الخبراء بالضبط يعني أنك ستكتشفين قريباً أن تصرفك في الماضي كان خاطئاً. لم يمضِ وقت طويل منذ أن حذر الخبراء الآباء في أمريكا من إظهار أي عاطفة أو مشاعر جسدية للأطفال. ومن ثم كان هذا تزويد جيل كامل بالأدلة السيئة والتي تؤكد فشل آبائهم بإظهار الحب. قال الخبراء أيضاً: إن على الأمهات اتباع جدول صارم في الأوقات التي يأكل فيها الطفل بغض النظر عن بكائه. حتى أتى جيل جديد من الخبراء اخترعوا طريقة جديدة ثائرة للإطعام تدعى «الإطعام وقت الطلب». وهذه الطريقة الجديدة علمت الأم أن تتأقلم مع السماح لأطفالها بالأكل في أي وقت يشعرون به بالجوع. الأطباء هذه الأيام يشجعون الأمهات على إرضاع أطفالهن رضاعة طبيعية، لأنهن يعلمون الآن أن حليب الأم يوفر المضادات الحيوية، والتي لا يمكن الحصول عليه من الحليب الصناعي. وبالرغم من هذا كانت طبيبة أمي قد سألتها عندما علمت أنها تنوي إرضاع طفلها الأول من ثديها: «ماذا؟ ماذا تعتقدين نفسك... بقرة؟»

ليس على الأمهات أن ينتظرن جيلاً بعد جيل حتى يعلمن أن محاولاتهن لفعل كل ما هو جيد لأطفالهن قد يضعهن في وضع خطر. قالت امرأة لها أطفال صغار: إنها اتبعت نصيحة الخبراء في تعويد طفلها الرضيع على النوم على بطنه. وفقط بعد ثلاث سنين وعند ولادة طفلها الثاني قد أخبروها أن هذا خطير على حياة الرضيع، وأن الخبراء الآن يجمعون على وضع الطفل على جنبه وقت النوم.

إن وجود كل هذه الكتب الكثيرة والمقالات والمجلات وبرامج المذياع والتلفاز لإعطاء الآباء النصيحة حول العناية الصحيحة بأطفالهم ترسل للأمهات رسالة خفية مضمونها: «إنك تقومين بعمل أنت غير مؤهلة له». والرسالة بحد ذاتها مزعجة أكثر من المعنى الخفي داخلها.

فسر عالم الاجتماع فرانك فيوريدي في كتاب «الأمومة المشبوهة». إن نصيحة الخبراء الأمريكيين مصممة على إعطاء الأمهات شعوراً غامراً ومبالغاً فيه للخطر الموجود والذي يهدد أبناءهم. لذا فإن الشيء نفسه الذي يفعلنه لتأكيد على أنهن يقمن بهذه الوظيفة على أكمل وجهه ـ باتباع نصيحة الخبراء ـ هو بالتأكيد الذي سيزيد من عدم ثقتهن في أدائهن لهذه الوظيفة.

الزعيمة المرشدة ـ في كل شيء

عندما كنت في الصف الثالث الابتدائي كنت متأخرة ذات صباح وفجأة أدركت وأنا مذعورة بأنني لم أحضر أي شيء لعرضه على زملائي في الفصل أثناء فقرة «أرينا وأخبرنا» ـ وهي فقرة يقوم الطالب أو الطالبة بها بعرض شيء على الطلاب وإخبارهم بقصة أو خبر ـ وقد ساعدتني أمي في هذا حيث أخبرتني عن بعض الأخبار التي سمعتها من المذياع: فقد توفي نات كنج كول. ثم وقفت في الفصل ذاك اليوم وعرضت معلوماتي على زملائي واكتشفت أن أمي كانت على خطأ. فقد كان نات كنج كول مازال حياً، وقد كانت مدرستي لطيفة. فمازلت أتذكر ذراعها يلتف حول كتفي عندما رأت الذعر في عيني بسبب تصحيحها معلوماتي. أتذكر عمق الإحراج الذي شعرت به والذي جعلني بالطبع ألوم أمي بمرارة.

في ذكرى أخرى كنت في الصف السادس في سنّ الثانية عشرة. وبسبب قانون تقسيم المقاطعات كنت أنا الوحيدة من بين زملائي التي على الانتقال إلى مدرسة جديدة. كنت وقتها غير واثقة من صداقاتي، لكني كنت متحمسة وقلقة فقد دعيت إلى حفلة عيد ميلاد روزيلين. أردت شراء لعبة لروزيلين فأخذتني أمي إلى محل للتخفيضات أشبه بمستودع قمنا بتفحص المعروضات بحثًا عن شيء تستطيع أمي شراءه. وبناءً على نصيحة أمي فقد اشتريت دبًا صغيرًا. وبعدها بأيام وفي الحفلة كانت روزيلين تفتح الهدايا بحضور جميع البنات حولها. وعندما فتحت هديتي رأيت على الفور أني قد ارتكبت مصيبة، لاحقًا اعترفت روزيلين لي أن الهدية كانت أصغر من سنها، ومرة أخرى فقدت الثقة في أمي قد سببت لي إحراجاً عاماً، وشعرت وقتها بالخيانة وعدم الغفران.

في ذاك الوقت سببت لي هذه الأحداث وعدد لا يحصى مثلها الكثير من المعاناة، وبدا هذا على أنه دليل على فشل أمي.

وبنظري إلى الوراء الآن فإن المضايقات التي قامت بها أمي كانت في الحقيقة صغيرة وأستطيع أن أتفهمها الآن. فكم مرة شرد ذهني وأنا راشدة ولم أسمع نشرة الأخبار بالكامل على المذياع. أو قمت بشراء هدية غير لائقة؟ أنا أستطيع رؤية هذا الآن لكن عندما كنت طفلة كنت أتوقع أن تعرف أمي كل شيء وتعطي كل شيء وأن تكون بدون أخطاء. ومن وجهة نظري في ذلك الوقت فإن هذا لم يكن توقعًا غير عقلاني بالكامل، لأن أمي كانت معتدلة وصائبة في كل شيء في عالمي تقريبًا. (أبي كان ككل الآباء يعمل ساعات طويلة وكان نادرًا ما يجلس في المنزل).

تستمر كثير من النساء الراشدات في النظر لأمهاتهن كخبيرات في كل شيء. فقد كان زوجي يقوم بالتسوق استعدادًا لعشاء عيد الشكر، وكان يبحث عن بهارات معينة ويتحدث إلى زبونة أخرى تبحث عن نوع البهارات نفسها وقد تساءل ما إذا كانت بهارات الدجاج العادية تفي بالغرض. فقالت الزبونة: «لا» بشكل قاطع، وقد كان الهاتف الجوال في يدها وأكملت: «لقد تكلمت مع أمي للتو، يجب علينا إيجاد البهار المناسب».

كثيرٌ منا يعتمد على أمه في الطبخ أيضاً. هنا مثال لبنت تعتمد على حكم أمها في مجال مختلف نهائيًا. ففي سنة 2003م نظرت بولي يورك إلى الوقت الذي وجدت فيه نفسها متورطة في العلاقات الخارجية. كتبت «سالي» بنت بولي ذات العشر سنوات رسالة إلى مانيوال نوريجا في عام 1988م، مانيوال هذا كان حاكم باناما في وقتها، وقائداً بلا رحمة. لم يُجب هذا القائد على رسالة البنت الصغيرة فقط، ولكن قام بدعوتها وأمها لزيارته في باناما متكفلاً بتكاليف الرحلة. بولي لم تكن متأكدة مما إذا كان تقبل هذه الدعوة تصرف حكيم. اعتقد أخاها أن هذا سيكون تصرفاً خاطئاً فقال: «إن هذا الرجل سيئ، ليس عليك أن تقتربي منه أبداً». لكن بولي لم تكن متأكدة. لهذا قامت باستشارة أمها ـ وليس إدارة الولاية ـ وبعد التفكير بالموضوع، قالت لها أمها: «لا أعتقد أنه سيكون هناك أي مشكلة من ذهاب سالي، أعتقد أنها ستكون تجربة عظيمة». بولي قررت الذهاب مع ابنتها إلى باناما كضيوف عند نورويجا، لأنها وكما فسرت بعد سنوات عبر برنامج راديو: «لقد كانت أمي راضية عن ذهابي.. وكما تعرفون كان هذا كل ما أحتاج إليه».

لم يكن تصرف بولي غريباً في تثمين حكم ورأي أمها لهذه الدرجة، فرينيه التي قدرت دروس أمها في الأمومة أيضاً ثمنت نصيحة أمها في هذا المجال. وعندما ترى أم رينيه أن ابنتها تتصرف بطريقة ليست في مصلحتها فإنها تنادي رينيه وتقول لها: «تعالي إلى هنا.. دعيني أركب رأسك على كتفيك بالطريقة السليمة». مثلاً خلال زيارتها لها لاحظت أم رينيه أن ابنتها تهرع مسرعة فور وصولها للمنزل إلى إعفاء زوجها من العناية بالطفل. وبالطبع بما أنها في صف ابنتها قالت لها يومًا: «دعيني أركب رأسك على كتفيك بطريقة سليمة.. أنت تعملين تماماً كما يعمل هو، وعدد ساعات عملك طويلة. اعتني بنفسك أولاً.. غيري ملابسك وخذي حمامًا. هو يستطيع أن يراقب الطفل لدقائق زائدة». وفي مواقف كهذه تكون رينيه ممتنة لوجود أمها ونصائحها.

لكن قالت امرأة أخرى إنها بالرغم من أنها تقدر نصيحة أمها فإنها تسأم منها عندما تغمرها أنواع أخرى من الاتصال. معظم النصائح التي قدمتها أم روبي كانت جيدة، وقد أخذتها: «يجب عليك أن تكوني القوة المالية في المنزل.. أنت تسيطرين على المال». قالت روبي ضاحكة: «مسكين ..زوجي» و نصائح كهذه: أرسلي رسائل الدعوات مبكرًا إذا كنت تودين إقامة حفلة، ولا تبدئي بالأكل أبدًا قبل أن تصل صحون الطعام لكل الموجودين معك، أو القانون المهم وهو عند ترتيبك لطاولة الطعام فإن الملاعق والشوك يجب أن تبعد أنشًا عن زاوية الطاولة. لكن أحياناً كانت أمها تردد نصائح حتى بعد أن تعلمتها روبي، فكم مرة عليها أن تسألها: «هل أنت متأكدة من أنك أطفأت أنوار شجرة عيد الميلاد حتى لا تحرقي المنزل». وليست كل نصائح الأمهات سليمة. فأم روبي مقتنعة من أنك

لو وضعــت السكاكين الفضية في غسالة الصحون فــإن مقابض السكاكين ستنفصــل عن الشفرة. علقت روبي: لقد أمضيت عشرين عاماً وأنا أجري التجارب على هذه النظرية والمقابض مازالت عالقة بالسكاكين. في النهاية تشعــر روبي بأن النهر الجاري مــن النصائح يزحم أنواع الحديث الأخرى بينهمــا فتقــول: «إن حواراتنــا خــلال زيارتها كانــت غالباً ما تــدور حول النصائح». ثم تابعت: أنا لا أعتني بنفسي وأضع زوجي وأطفالي أولاً، نادرًا ما أذهب للتسوق وكما رأينا فإن النصيحة تتحول بسهولة إلى انتقاد.

ترفض كثير من النساء أخذ نصيحة الأم حتى عندما تتأكد بالفعل من خبرة أمها. ذكرت خبيرة تصميم مشهورة أن ابنتها رفضت أخذ أفكار تصميم منها، بالرغم من أن كل من في المدينة يحاول أن يفعل ذلك. هذه الابنة الشابة لا تود لأحد أن يعتقد أن منزلها جميل بسبب لمسات أمها بل هي لمساتها. وقد كان هذا محبطاً للأم ليس فقط لأن البنت أخطأت في التصميم والترتيب ولكن لأن السبيل الذي كانت تستطيع مساعدة ابنتها من خلاله قد أقفل في وجهها. وبمعنى آخر فإن الزعيمة المرشدة ليست فقط جزءاً من وصف الوظيفة التي من الصعب إتمامها، ولكن حتى وإن أديت الوظيفة على أكمل وجهة فباختصار ربما سيأتي اليوم الذي تجدين نفسك فيه مطرودة من العمل.

سنارة المشاعر المشتعلة

كنت في الأربعين من العمر، وكنت وقتها في وسط نقاش حاد مع والديّ. وكنت أشرح لهما لماذا كنت مجروحة من ملاحظة كنت سمعتها من والدي. وأمي كانت تدافع عن والدي و تحاول تبرير ما قاله سابقاً. وجدت نفسي

بعدها أعنفها بقوة وتوقفت في وسط النقاش وسألتها: «لماذا أصرخ عليك بينما أنا غاضبة من أبي؟» فقالت أمي: «بالفعل. لماذا تصرخين علي؟» وعند أخذ أمي مكان والدي في النقاش فقد أصبحت كالنائبة الرمزية عنه. لكن لماذا انتقل غضبي إليها؟ أدركت أني لم أصرخ على والدي أبدًا ولا على أي أحد آخر إلا أمي. كنت أعتقد أن السبب في هذا لأنها كانت تغضبني أكثر من أي شخص آخر، لكني أتساءل الآن ما لو كان هناك أسباب أخرى. هل كنت معتادة على أن أكون غاضبة منها ومعتادة على عدم الغضب منه؟ ربما لأني كنت أعلم أنها ستسامحني وتحبني مهما بدر مني من كلام. بينما من المحتمل أن يحقد والدي علي للأبد. وهذا التفسير هو أكثر تفسير أشعر بالذنب تجاهه، فهل رأيتها هدفاً أسهل من والدي.

أنا لست الوحيدة هنا في جعل أمي الهدف الرئيس لغضبي، فقد كتبت تلميذة في فصلي الآتي:

«قبل أربع ساعات من حفلة عشاء الشكر جلست لتقشير البطاطا الحلوة لعمل طبق البطاطا الحلوة الخاص بي، ومع أول قشرة بطاطا تقع في مغسلة المطبخ لاحظت أن الجذور كان لونها أصفر فاتحاً بدلا من برتقالي مائل للحمرة: لقد اشترت أمي النوع الخاطئ من البطاطا. غضبت كثيرًا لأن طبقي لن ينجح وكانت ردة فعلي الفورية هي: «كيف تفعلين هذا؟ أعتقد أنني لن أستطيع عمل الطبق الآن». وبعد جدال طويل قال لي أخي الأكبر: «أنت لئيمة مع أمي أكثر من أي شخص آخر». وقد ندمت عندما فكرت بهذه الملاحظة فقد كانت صحيحة تماماً. إنني أتردد قبل أن أتكلم بطريقة غير محترمة مع شخص لكن مع أمي فالحال مختلفة».

ووفقاً لباحث علم الاجتماع ساميوويل فيشينيش فإنني وتلميذتي طبيعيتان. قام فيشينيش بتسجيل وتصوير أربعة وستين حوارًا دار حول مأدبات العشاء لاثنتين وخمسين عائلة. في محاولة لاستكشاف نشأة الخلاف ونهايته. وقد لاحظ أن الأطفال هم عرضة أكثر لبدء النزاع مع الأم أكثر من الأب. إن الأمهات هنا كما لو أنهن سنارة تصطاد المشاعر المشتعلة، تمتص وتطحن المشاعر السلبية والإيجابية التي تدور حول العائلة. وهذا صحيح إلى حد ما لأن الأمهات موجودات حول الأولاد أكثر، الشيء الذي يخلق مشاحنات واستفزازات أكثر. وربما لأنه من المتوقع من النساء أن يكن أكثر تعبيراً وأكثر راحة مع المشاعر. لكني أتوقع أن السبب يعود كما وجدت أنا مع نفسي ومع احترامي لأمي أن النساء أهداف سهلة، إما لأن النساء تبدو أكثر عرضة للجرح، أو لأن فرصة انتقامهن من الآخرين قليلة.

اللعبة العادلة للحكم

وكما أنه لا يكفي أن تكون الأم هي الهدف المنزلي لغضب العائلة، فإن الأمهات في أغلب الأوقات تقوم بامتصاص عدم الرضا والحقد والعدوان من العالم خارج العائلة. وتعبر كثير من النساء بحرية عن عدم الرضا لامرأة أخرى لا تعرفها أكثر بكثير من تعبيرها لرجل.

مازالت تتذكر امرأة لها أولاد في الثلاثين من العمر الموقف الذي حدث مع ابنتها عندما كانت في الخامسة من العمر. تقص الأم وبذكاء كيف أن ابنتها تسببت بخروج أمها وإخوانها من قاعة التزلج بسبب سوء أدبها. وفي الطريق إلى الخروج التفتت الفتاة وضربت أخاها احتجاجًا على ذلك.

في النهاية فقدت الأم صوابها وقامت بصفع البنت مما جعل الأم هدفاً سهلاً لخطبة شخص غريب. قال لها: «توقفي عن إساءة معاملة طفلك! لقد جربت الإساءة وأنا صغير، ولا أتحمل أن أرى هذا».

أم أخرى تمت معاقبتها من قبل غريب في إحدى الأسواق. فقد كان يتحدث طفلها الصغير مع امرأة في السوق عن الكلب الصغير الذي ينتظرهم في السيارة. فالتفتت المرأة وبدأت بإعطاء الأم خطبة فقالت: «لا يجب عليك ترك الكلب في السيارة فالحيوانات تختنق من الحرارة بهذا الشكل». أكدت الأم للمرأة الغريبة بأنه ليس هناك خطر، فالكلب الذي تركوه بالسيارة كان في الحقيقة عبارة عن لعبة محشوة. ضحكت الأم بعد ذلك من هذا الموقف لأن المرأة الغريبة هي التي بدت كالمغفلة في نهاية الأمر. لكن الأم التي تعاني من سوء أدب أطفالها أمام الناس بسبب حالة نفسية أو جسدية، أو خروج طفلها عن السيطرة فهي لا ترى أي شيء مضحك في توبيخ الغرباء لها بسبب سلوك أولادها غير الاجتماعي.

أم لطفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات ونصف ويعاني من مرض التوحد. عانت الكثير ليس فقط من العناية بطفلها الصغير وحالته المرضية في أماكن مزدحمة بالناس، ولكن أيضاً من تعبيرات الغرباء غير المرضية. فسرت الأم ماري لي أن قدرة طفلها على الكلام محدودة كحال كل الأطفال المصابين بالتوحد، وهو ومفرط الحساسية تجاه الأشياء الحسية والمنبه. لذا فهو يتدرج بالنزول إلى ما تسميه الأم «نقطة اللاعودة» حيث يدور دماغه إلى أن يصل إلى الانفجار المحتوم. نوبات من الغضب غير محتملة، والتي من السهل عليه الوقوع بها لكن إخراجه منها قصة ثانية. في مرة من المرات كانت تحاول الأم جاهدة رفع ابنها وهو يصرخ حتى

تستطيع حماية رأسه من الإصابة عندما سمعت رجلاً يناديها ويقول: «هاتي الطفل إلى هنا». وقد كان مقتنعًا أنها قد فشلت في تأديب طفلها فكان قد عرض عليها أن يؤدبه نيابة عنها.

أنا لا أشك في أن الناس غالبًا ما ينتقدون طريقة معاملة الأب مع أولاده أمام الناس. لكنهم على الأرجح لن يقوموا بتوبيخ رجل مخافة من أن يتسببوا في رد عنيف وغاضب. لذا فإن الآباء غالبًا لا يتعرضون لهذا التوبيخ كما أنهم غالبًا لا يظهرون بالأماكن العامة وهم يعتنون بالأطفال. لكن بالنسبة للأم فإن الهجوم المتصيد من غريب هو رسالة تذكير خالدة بأن أمومتها تحت التدقيق الدائم.

القدوة المثالية

إن الغرباء الذين ينتقدون طريقة تربية هؤلاء النساء يتوقعون أن تكون هذه النساء قدوة مثالية لأبنائهن في كل دقيقة من اليوم. وكما رأينا فإن التوقع نفسه موضوع من أبنائهن. إنه شيء مؤلم أن يحكم عليك أحدهم ويفند أخطاءك. لكن حتى وإن كان قد حكم عليك وكنت الفائز فشعور أنه عليك لبس هذا التاج على رأسك طيلة اليوم وكل يوم شيء مزعج أيضاً. إن كونك الهدف المثالي بالتأكيد أفضل من كونك العكس، لكن هذا أيضاً قد يصبح حملاً على الأم والتي هي بعد كل هذا مجرد إنسانة تحاول أداء وظيفتها.

إذا كانت البنت تنظر لأمها وتقول لنفسها أنا لا أود أن أكون مثلها فإنها ربما تنظر إليها وتقول أنا أود أن أكون مثلها تمامًا ولكن لا أدري إذا كنت أستطيع ذلك. وهذا يضع الاثنتين في موقف حرج. تتذكر بيتي أمها

وتقول: «إن الأمر بدا كما لو أنها كانت تسيطر على كل شيء وكل شيء يدور في مكانه. أنت تعلم ما أعنيه.. بدت وكأنها ربة البيت الكاملة والأم الكاملة وصاحبة المهنة، وكل شيء بدا نظيفاً طيلة الوقت». لكن أدركت بيتي بتدرج أنها وأمها شخصيتان مختلفتان. قالت: «وكان المنادي الذي نبهني في النهاية هو بيتي: أنت تحاولين أن تكوني أمك. أنت لست أمك. يجب عليك إيجاد نفسك. لذا كان علي إيجاد نفسي».

وصفت امرأة أخرى منظراً مشابهاً لهذا فقالت: «أتذكر مراقبة طريقة لبس أمي خصوصاً في مرحلة المراهقة. وأتساءل بحيرة لماذا لا تعرق أمي أبدًا؟ هي دائماً تبدو جميلة. وأنت تعلم كيف يشعر المراهق في مرحلة المراهقة وكأن كل جسدك في مرحلة عصيان. ووجهك مليء بالحبوب وتفوح من فمك رائحة كريهة. وأمي بدت دائمًا مرتبة وجميلة وكنت أراها وأقول.. يا إلهي لا أستطيع الانتظار حتى أكون مثلها». وقوف الأم على منصة المثالية بهذا الشكل يجعلها تواجه المصاعب في الحفاظ على توازنها في الطريق الطويل، والمكافحة في عدم إظهار هذه الأخطاء أمام ابنتها.

إن النظر للأم على أنها في مرتبة مثالية هو توقع غير عقلاني، حتى ولو كان من البنت. قالت ألما: «إن رأي أمي مهم جدًا بالنسبة لي. لو أنها لم ترض عن شيء فعلته أو أنها رفعت صوتها في وجهي فسأشعر بالتحطيم. لذا كنت دائمًا متأكدة من أنني أتصرف بالطريقة التي تحب. وأي تعليق تمرره لي ربما يجعلني أغير وأصلح حياتي وموقفي».

أدركت ألما بعد سنين أنها كانت قد أخطأت في فهم بعض تعليقات أمها وقد كانت غيرت من أسلوبها بناءً على تعليقات أمها. اعتقدت ألما

أن أمهـا ستبقــى في المنزل مــع الأطفــال الصغار لبضع سنــين لتربيتهم، فأجابتهــا أمها: «يا إلهــي هذا ممل». وبالنظر إلى الــوراء فإن ألما متأكدة جــدًا مــن أن هذا التعليــق لعب دورًا كبــيرًا في قرارها لتأخــير حملها لمدة طويلة. وبعد ذلك بسنين وعندما ذكرت لأمها كيف أنها فسرت تعليق أمها ونفــذت المعنى الذي يتضمنه أجابــت أمها: «أوه.. لم أعنيه بهذه الطريقة، كان مجــرد تعليق عابر، وليــس سببًا لتجنب البقاء في المنزل مع أطفالك». إنه لحمل كبير أن تعرفي أن كلمة منك ربما تغير مجرى حياة ابنتك، أو أن هناك شخصًا يراقب كل حركة تقومين بها، وربما يحاول تقليدها.

أهم عمل في حياتك

إن معظم تقييم المرأة لنفسها كإنسانة يتم بناءً على نجاحها كأم، وهذا يجعل الكثير من النساء تتنافس مع أمهات أخريات. قام شخص بالاتصال ببرنامج مذياع يشكو من «الأمومة التنافسية» واتفقت معه ضيفة البرنامج سوزن دوغلاس وأطلقت عليها اسم: «الأولومبية الأنثوية العظمى». فمثلاً: الطفل الذي يبيع علب بسكويت أكثر في مقصف الفصل لجمع المال للفصل هو الرابح، وفي حفلة الفصل، فالطفل الذي يلبس الزي التنكري المصنوع في البيت هو الفائز، أما المسكين الذي ابتاع زيه من السوق يخسر. وهكذا. وقد لاحظت أُمٌّ هذا الاندفاع المضحك في نفسها، فقالت: كنت أكتب إلى ابنتي الرسائل يوميًا أثناء غيابها في المخيم الصيفي؛ لأنني كنت أتنافس مع الأمهات الأخريات على لقب «الأم الأفضل لهذا العام»، وبفكاهة ذكرتها ابنتها بأن هذا اللقب لا يمكن الفوز به، وزادت ساخرة: «إن أم ستيسي تكتب لها كل يوم أيضاً، وبأبيات شعرية».

قامت الطبيبة النفسية جانا مالامود سميث في كتابها «السحر القوي» بمقابلة الكثير من النساء ولم تجد واحدة متأكدة من أنها قد فعلت كل شيء على أكمل وجه. وبكلمات سميث: «فإن الأمهات اليوم يواجهن الكثير من النقد والمتطلبات المتنوعة والمتناقضة، حيث انتهى الأمر إلى الشعور بعدم الاتزان وعدم اليقين وعدم الاطمئنان تجاه أنفسهن وتجاه تصرفاتهن».

كتبت الشاعرة آندرينا ريتش في كتابها «ولادة امرأة» أنها لم تدرك حجم شعور الذنب الذي يأتي مع دور الأم إلا عندما أصبحت أماً:

«أصبحت بسرعة أفهم حجم حمل ذنب الأمومة، في النهار والليل وفي كل ساعة، هل أنا أفعل ما هو صحيح؟ هل أنا أقدم المقدار الكافي؟ هل أنا أزيد من عطائي؟ إن قانون الأمومة يجد كل الأمهات مذنبات بطريقة أو بأخرى في الفشل مع أبنائهن».

ووفقًا لريتش فإن شعور أمها بالحمل لم يأت فقط من المجتمع الذي حولها ولكن أيضًا من والدها، الذي كان يتوقع من زوجته أن تربي أطفالاً مثاليين. لكن عندما لا يرمي الآباء على الأمهات هذا الحمل فإن الأمهات أحيانًا يحملنه بأنفسهن وفي الوقت نفسه يحملنه لأطفالهن. وإذا كان نجاح الأم يقاس بكمالية الأطفال إذاً فالأطفال يحملون نفس العبء الذي تحمله الأم. ومتى كان الطفل أقل من كامل فإنه بذلك يخيب أمل أمه.

إذا كانت الأمهات يسألن أنفسهن في كل يوم وليل وساعة ما إذا كان ما يفعلنه صحيحًا، إذًا فإن مراقبة النفس تتصاعد عندما يحدث خطأ في حياة الطفل. ترسم لنا ماري جوردن صورة لمراقبة النفس الداخلية في روايتها «اللؤلؤ». في بداية الرواية تكتشف الأم ماريا بأن ابنتها التي

كانت تعتقد أنها تدرس اللغة الأيرلندية في دبلن قد قامت بتقييد نفسها بسارية العلم خارج السفارة الأمريكية بدبلن وأنها على وشك الموت بسبب الإضراب عن الطعام. تصاب ماريا بتشنج من لوم نفسها وبدون السبب الذي دفع البنت لتدمير نفسها بهذا الشكل:

«ما الخطأ الذي فعلته يا ترى؟ هل كانت متساهلة كثيرًا؟ أو لم تكن متساهلة بالمرة؟ هل كانت كأم الدب الصغير التي تعتقد أن كل ما يحتاجه صغيرها هو الدفء والطعام ومكان تحت ذراعها قريبًا من دفئها. وأن قربها منه واحتضانها له سيأخذ مكان أشياء أخرى. ربما احتاجت شيئاً آخر. نوع من المعرفة نوع من التميز والاهتمام. هل اعتقدت بأن هذا الحب الغامر الذي هو كالتنفس والنوم سيكون هو الذي سيعبر بابنتها خلال هذا. أو أنها لم تقدم الذي قدمته أم الدب الصغير؟ هل كانت تصدر الأحكام الكثيرة على ابنتها؟ أو أنها لم تكن تتقبلها كما هي؟ هل فشلت في الطبخ بشكل كاف؟ هل كانت تفرض رأيها بعنف وبكثرة؟ هل قضت وقتاً طويلاً في العمل؟ هل كان عليها تقليل ساعات العمل؟ هل كان عليها الوجود في المنزل أكثر؟ أو أنها كانت كثيرة التطفل ولم تعط ابنتها المساحة الكافية؟ ما الخطأ الذي اقترفته؟ ما الخطأ الذي اقترفته؟»

بينما كانت ماريا متأكدة من أنها المذنبة لصنيع ابنتها لم يكن لديها أدنى فكرة عن الاتجاه الذي أخطأت فيه. وبالرغم من أن هذه الحالة التي عرضت في مقدمة الرواية هي حالة شاذة، فإن كل الأمهات يواجهن ورطات مشابهة خلال تربيتهن لأولادهن. وكما رأينا من قبل فإنه ينسب اللوم والذنب للأم عند خطأ أطفالها. ما الخليط الصحيح للتواصل والتحكم؟ كم المقدار الكافي للاهتمام والرعاية والاستقلال والعاطفة الجسدية بين الأمهات والبنات؟ حتى في ثقافتها التي تعتمد على رأي

الخـبراء ـ وخصوصًا ـ في ثقافتنا ـ فإنه ليس هناك إجابة. فإن أي مقدار مـن الممكن أن يحكم عليه بأنه مقدار كثـير أو قليل، والحكم يأتي من قبل الخبراء والعائلة والأصدقاء والأبناء أنفسهم، بل وحتى من نفسها هي.

إن عنوان هذا الكتاب يتضمن سخرية، حيث أن عبارة «الأم» تلمح إلى أن العلاقة بين الأم والطفل، لكن في الحقيقة فإن الكتاب عن الأمهات والأطفال الذين أصبحوا راشدين. ومن الصفات الغريبة لهذه الوظيفة أنه في اللحظة التي يتم فيها تعيينك كأم فإنه من المستحيل طردك من الوظيفة. إنك ملتصقة بهذه الوظيفة لبقية حياتك، إن أحببت هذا أو لم تحبيه (بالرغم من أن الأكثرية تحبه). فسرت امرأة لديها ابنتان على أبواب منتصف العمر كيف أن هذا الجانب من الوظيفة قد فاجأها: «معظم الأمهات الصغيرات يعتقدن أن هناك وقتاً معيناً لوظيفة الأمومة. إننا نعتقد أنه في سن معين سينطلق الأولاد إلى الخارج. غالباً ما ضحكت أنا وصديقتي على هذا، لقد كان اعتقادًا ساذَجا بالفعل. إن علاقتك بأطفالك متشابكة لبقية الحياة». لكننا بقول هذا لا نعني أن أشكال هذا التواصل دائمة. وربما أن أصعب ما في هذه الوظيفة الغامرة استمراريتها بالتغير. مثلاً كتبت آنا كويندل عن حزنها عند رؤيتها لولديها يتركان المنزل للجامعة وقد كانت على علم بأن الثالث سيلحقهما. لقد كانت حزينة بسبب عدم وجود الولدين في المنزل، وبسبب فقدانها للشخصية التي كانت عليها عندما كان الأولاد حولها. «قائدة الكتيبة ورئيسة المجلس». وبإقلاع أبنائها الكبار فإنه سيتم إنزال رتبتها ولم تعد تحتاج ساعات العمل التي كانت تعمل. ووصفت هذا بأنه «شعور بغيض». بالرغم من أن الأم لا تفقد عملها أبدًا، فإن مجالات عملها تتغير باستمرار. والتكيف مع هذه التغيرات هو تحدٍ مستمر في العلاقة المعقدة والأبدية بين الأم والبنت.

7

أعـز الأصدقـاء، ألـد الأعداء

مسيـرة في الجانب المظلم

كنت أتحدث إلى اثنتين من صديقاتي عندما تذكرت واحدة منهن أنها قد تعرضت للظلم من قبل أمها. بدأت بالاقتراح عليها أن الصورة الخبيثة التي في ذهنها عن أمها ربما لا تكون صحيحة. فقاطعتني الصديقة الثانية وقالت: «ربما هناك جانب من شخصية أمها لا يتمنى لها الخير». هنا توقف مسار كلامي، لقد كانت على صواب. كثير منا لا يفضل التفكير في أنه من الممكن للأمهات أذية بناتهن بالعمد. أو أنهن ربما لا يتمنون لبناتهن الخير. إن هناك جانباً مظلماً في العلاقة بين الأمهات والبنات. بالرغم من أنني حاولت طيلة كتابتي لهذا الكتاب أن أتفادى الوقوع في فخ وصف الأم بصفات خبث شيطانية، فأنا لا أود أن أقع في فخ وصفها بالرومانسية أيضاً. وإن فعلت هذا سيكون بمثابة إنكار تجارب حقيقة لكثير من النساء.

ولدت الممثلة لورا ديرن لأبوين ممثلين أيضاً، طلب منها في إحدى المقابلات وصف شعورها حول ظهورها مع أمها دايان لاد على شاشة التلفاز. أجابت ديرن بأن هذا يمنحهم الفرصة لتمثيل الجانبين من العلاقة. ففي فيلم «الوردة الهائمة» تلعب دايان دورا يدعى ببساطة «الأم» وقد كانت هي الوحيدة في الفيلم التي تفهمت الدور الذي لعبته لورا. هذه

الأم رأت أفضل الميزات في ابنتها وتقبلت نقاط ضعفها. لقد كانت الأم المثالية التي تتشوق لها الكثير من النساء بغض النظر إن كانت أمهاتهن الحقيقيات قد أشبعن هذا الشعور أم لا.

في فيلم آخر «القلب العاصف» فإن هناك مشهد تنظر فيه ديرن من خلال النافذة وترى ابنتها في دور ساحره تمتطي عصا سحرية. وهذا أيضاً شيءٌ تفهمه كثير من النساء. وكما عبرت عنه المذيعة دايان ريم في كتابها «البحث عن صوتي» قالت: «عندما كنت صغيرة كان صوت أمي يستطيع أن يملأني بالسعادة أو يجعلني أنكمش خوفاً». أهي الساحرة أم الحنونة؟ أهي التي تخفف من آلامنا أم هي المسببة لها؟ أم هي التي تسبب الاثنين معاً؟

إننا دائماً نميل إلى رؤية الخير والشر وكأنهما منفصلان بالأساس. وهذا غير صحيح، ولا تستطيع الأم أن تكون في خانة الخير دائمًا، هذا لا يحدث في الحياة الحقيقة. من خلال تعليق ماريا تاتار على حكاية «بياض الثلج» المقيتة قالت: «إنه بالرغم من أن تفاصيل هذه الحكاية اختلفت من جراء تناقل هذه التفاصيل لفظيًا عبر الثقافات المختلفة، فإن «اللب الراسخ» للقصة كان «الخلاف بين الأم وابنتها» وفي القصة كلنا نعرف أن بياض الثلج كانت قد تعرضت للتعذيب على يدي زوجة أبيها. لكن في نسخ كثيرة لهذه القصة كانت الملكة الشريرة هي الأم الحقيقية للبنت وليس زوجة الأب.

ولإعادة الروح الأصلية لهذه الحكاية وللتفكير في خبرات حياة البنات والأمهات الحقيقيات نحتاج أن نأخذ جولة قصيرة في الجانب المظلم.

«تثب من فوقنا وتلتهمنا»

في أيامنا هذه يستخدم الناس كلمة ساحرة لوصف امرأة ذات شخصية كريهة ـ أو شخصية غير محبوبة. لكن في التاريخ لم يكن استخدام كلمة ساحرة في الحوار استخداماً عادياً. فعندما كانت توصف امرأة بهذه العبارة كان هذا يعني التعذيب والشنق في الأيام القديمة. ذكرت إيفيلين فوكس كيلير في كتابها «الانعكاس بين الجنس والعلم». كلمات شخصية في مسرحية عرضت عام 1659م، ذكرت بالضبط السطور من المسرحية حتى توضح الخوف والهاجس من الساحرات والذي كان في وقتها مألوفًا: «أنت تمامًا كما الضبع تغوينا بجلدك الأشقر، ثم تقفزين من فوقنا وتلتهمينا».

هذا الاتهام هو الذي حدد بالضبط الدافع وراء الإيمان بالساحرات: خوف الرجال وتهويلهم لقوة النساء. وسأعيد صياغة المعنى: عندما يشعر الرجل بأنه منجذب جنسيًا لامرأة، فإنه يشعر بأن هذه المرأة تتحكم به. إنها تستطيع أن تجبره على عمل ما تأمره به. تستطيع أن تتسبب في تعاسته وتستطيع أن تستخدم هذه القوة لتدميره. وبالرغم من أن القوة الجنسية تختلف كثيراً عن قوة الأمومة، وعند فهمنا أن الخوف من الساحرات هو خوف من قوة المرأة يجعلنا نفهم غضبنا من أمهاتنا. إن التحكم الذي كن يملكنه في صغرنا كان ساحقًا، وما زلنا نشعر أننا مقيدون بقوتهن حتى بعدما كبرنا.قربنا الشديد من أمهاتنا يجعلنا نخشى من افتراسها لنا.

في بعض الأحيان يؤدي الحقد بين الأم وابنتها إلى الأذية والإساءة. وعندما تكبر البنت وتكون أمها ضعيفة جسديًا فإن هذا ممكن أن يتحول إلى إساءة معاملة الكبار. والإساءة الأكثر شهرة والتي تحدث كثيراً هي

تحكم الأم بعالم الطفلة الصغيرة. وكثير من النساء يقمن بتدوين هذه الإساءة في مذكراتهن، وربما أكثرها شهرة هي «العزيزة أمي» والتي كتبتها كريستينا كروفورد. إنه من السهل على أي شخص فهم أن الغضب الدائم ينتج من الهجوم الجسدي. لكن في كثير من الحالات فإن شخصًا من خارج العائلة لا يستطيع فهم عمق غضب البنت على أمها وهنا مثال من حياتي: لقد اعتقدت أمي أنه هناك مناسبة مهمة على وشك الحدوث، وأن عليها شراء فستان جديد. وقد كان من المستحيل بالنسبة لها أن يراها النسوة تحضر احتفالاً كهذا مرتدية فستاناً قديماً. وقد كنت مختلفة تمامًا عنها: فأنا لا أحب السوق وليس لدي الاهتمام الكبير بالملابس مثل أمي. أنا غالبًا مشغولة ولا أجد الوقت للتسوق. ولا أرى أي أذى في ارتداء الفستان نفسه أكثر من مرة إذا كان مناسبًا و في حالة جيدة. اختلاف وجهات النظر كان مصدر الخلاف الدائم بيننا. وكان هو أيضًا سبب الخلاف في السنة الأولى لوجودي في كاليفورنيا، حيث خططت أنا وأخواتي لعمل حفلة للاحتفال بعيد ذكرى زواج والديّ الستين. وقد شعرت بأني أقدر هذه الحفلة من خلال الترتيب لها والسفر لحضورها. لكن أمي كان لها رأي آخر، وقد بدأت أسئلتها قبل موعد الحفلة بأسبوع وما كنت قد اشتريت شيئاً جديداً لألبسه في الحفلة. وفي كل مرة كنت أعترف بأني إن لم أفعل كان يزداد غضبها. وقد امتصصت غضبها حتى وإن كنت لا أوافق على السبب. وفي يوم قمت بزيارة مجنونة لعدة أسواق كبيرة، وجربت عدداً لا يحصى من الفساتين، والفستان الوحيد الذي كان مقاسه مضبوط لم يعجبني. والذي أعجبني كان مقاسه غير مضبوط. وفي اليوم التالي وصلت للمنزل وبحوزتي فساتين كثيرة وقد أردت أن أجربها أمام زوجي.

والذي أكد لي أن جميعها لا تناسبني، فخسرت وقتًا إضافيًا في محاولة إرجاعها. بدأت أشعر بالإحباط، وكنت قد التزمت بمواعيد للكتابة وكان علي إنجازها في وقتها. ولم أستطع إضاعة وقت إضافي في التجول في الأسواق. وكلما أمضيت وقتاً إضافياً في السوق أو في القلق من تخييب ظن أمي زاد غضبي. وقد كنت مقتنعة بأن طلبها غير منطقي، لكني لم أستطع إغضابها وإزعاجها. وقد شعرت تقريباً أن مجرى دمي سينقطع لو أني تخطيتها وهذه الورطة جعلتني أشعر كما لو كنت حيواناً مقيداً في زاوية. وأتذكر أني شعرت بأنه لن يكون هناك مفر إلا عند موت أمي واستعادة حريتي.

إن قول هذا الآن يجعلني أشعر بالعار والخجل. كنت قد تمنيت موت أمي لأنها أرادتني أن ألبس فستاناً جديداً في حفلتها!! إنه جنون. كيف لي أن أشعر بهذه الرغبة غير المفسرة؟ أعتقد الآن أن السبب كان في شعوري بأني مقيدة تماماً برغباتها، ولأني شعرت بأن هذه الرغبات لا معنى لها. كنت أيضاً ساخطة وتحت السخط كنت متألمة من أن أمي قد تجاهلت كل ترتيباتي وتعبي لحفل ذكرى زواجها، وركزت كل اهتمامها على الشيء الذي تود، والذي لم أفعل. (قد سمعت هذه الشكوى من الأمهات أيضاً، حيث تتجاهل البنات كل ما تفعله الأمهات وتركز على ما تريد فقط). وقد ناقشت هذه المشكلة مع صديقاتي (هذا النقاش هو من أنواع الحوارات التي تفتعل المشكلات لكنه يلقى التقدير من النساء رغم أنه محير بعض الشيء). وبمساعدة صديقاتي قررت أن أكون قوية وثابتة وأرفض طلبات أمي، وسأقوم بلبس فستان مناسب من خزانة ملابسي. وإذا كان هذا سيزعجها فهو ليس خطأي. واتخاذي لهذا القرار جعلني أشعر بالراحة. وفي آخر الأمر ذهبت لمحل ملابس قريب واشتريت فستاناً جديداً.

في هذا المثال استجبت تماماً لطلب أمي من أجل رضاها وتجنب غضبها، وفي النهاية إنها حفلتها ورضاها كان هو جوهر الموضوع. في موقف آخر لم استجب لطلبها وسأذكر هنا الموقف الذي تذكرته خلال كتابتي لهذا الكتاب.

بينما كنت أبحث في جهاز الحاسوب عن إحدى الملفات وجدت ملفا بعنوان؟ «أمي» وتوقعت أنه يحوي ملاحظات عن الموضوع ففتحته، وقد تفاجأت عندما وجدت رسالة كنت قد كتبتها لأمي في عام 1991م لكني لم أقم بإرسالها أبدًا. وبينما كنت أقرأ الرسالة وجدت أنني قمت بحفظها في الساعة الخامسة والنصف صباحًا، كان غضبي قد أبقاني مستيقظة. وقد استرجعت الحادثة لكن بدون استعادة المشاعر المشحونة. وكما هي الحال في الفستان فإنني لا أعرف السر واللغز الذي جعلني أغضب من موضوع صغير للغاية.

كنت قد أخذت إجازة لسنة من جامعة جورج تاون لقبولي عمل في جامعة برينستون. كان والداي في فلوريدا يقضيان فصل الشتاء. وقد أخبرتني أمي بحماس شديد أن صديقتها سوزان براون لديها ابن طبيب يعمل في جامعة برينستون، وأنها قد أخبرت صديقتها أنني سأقوم بمكالمة ولدها. وبينما كان الوقت يمضي على وجودي في برينستون لم أقم بعمل هذه المكالمة. لقد كان وقتي مشغولاً تماماً مع الأشخاص والجامعة، وقد كنت أنا وزوجي في زيارات ومقابلات مستمرة في قسمين من الجامعة. وزيادة كنت قد اعتبرت برينستون مكاناً أود الاختباء به لهذه السنة، وفي النهاية والسبب الأهم قد شعرت بالغباء من مكالمة شخص لا أعرفه. لم أشعر بأن هناك أي نقاط اهتمام مشتركة أو أن مكالمتي سيكون مرحبًا بها.

وفي كل مرة تحدثت مع أمي على الهاتف كانت تسألني ما إذا كنت قد اتصلت بابن صديقتها. وفي كل مرة كنت أجيبها بالنفي كانت تصر على اتصالي: «إن سوزان تستمر في سؤالي ما إذا كنت قد اتصلت بابنها أم لا. وإنه من المخجل أن أستمر في الإجابة بلا». وفي يوم قامت أمي بالإلحاح في طلبها وتذكيري بأنها لا تكثر من طلباتها علي ونصحتني بأن علي عمل هذه المكالمة من أجلها كمعروف. لم أستطع النوم تلك الليلة وفي صباح اليوم التالي قمت بكتابة هذه السطور: «لقد فتحت موضوع اتصالي بابن صديقتك على الأقل ست مرات. في أول مرة كان كلامك عبارة عن اقتراح، وفي المرة الثانية كان تذكيرًا، وفي الثالثة كان كالوكزة. وعندما تصلين للرابعة والخامسة فهذا يصبح إزعاجاً مستمراً. لقد وصلت البارحة إلى مستوى جديد من الابتزاز العاطفي وأنت تطلبين هذا كمعروف. مفسرة بأن هذا سوف يعني لك الكثير، وأنك لا تكثري الطلبات مني. إنه لشيء صاعق بالنسبة لي أنك تفضلين أن تتسببي لي بالألم من أن تخيبي ظن صديقتك سوزان. أنا لا أعرف من سوزان براون؟ ولماذا ومتى أصبحت بهذه الأهمية بالنسبة لك؟ لكني أعرف بأني ابنتك وأني قد تعديت مسافات طويلة من أجل رضاك».

إن الشيء المحير هنا وأنا أقرأ هذه الرسالة بعد أكثر من اثنتي عشرة سنة هو لماذا سبب طلب أمي لي هذا المقدار من الأسى. لماذا لم أصرف طلب أمي بدلاً من أن يجعله يقطعني؟ ربما تختلف الحال مع أم أخرى، ربما ستتوقف عن طلبها بعد إعادة الطلب أكثر من مرة، وربما لو كانت ابنة أخرى لاستجابت بكل بساطة لأمها. إن السبب في رفضي لفعل هذا كان بالضبط عكس ما ظنت أمي، فقد أخذت رفضي على أنه عدم اهتمام بمطالبها، لكن في الحقيقة فقد كنت اهتم للغاية.

إنه من الواضح من الرسالة التي كتبتها مبكراً ذاك الصباح أن أكثر ما أزعجني من طلب أمي هو توقعها من أنها تستطيع أن تقرر ما أفعل وتجبرني على فعله. واستخدامي للتعبير «الابتزاز العاطفي» في الرسالة غريب. فمعنى الابتزاز أنك تخشين من أن أحداً سيقوم بإيذائك إذا لم تلبي طلبه. لكن أمي لم تكن تهدد أي أحد، فلماذا استخدمت هذا التعبير إذاً؟ لأني شعرت بشعور بغيض جداً عندما علمت أني كنت السبب في قلق أمي، وأني فشلت في إرضائها.

بعد مدة علمت أن سوزان براون كانت أهم شخص في مجموعة أصدقاء جديدة، وكانت أمي تتمنى الانضمام إليهم.

تماماً كما كنت متلهفة لإرضاء صديقتي روزيلين التي دعتني إلى حفلة عيد ميلادها وأنا في الفصل السادس الابتدائي. ربما إنها المعرفة التي جعلتني الآن أعتقد أنه كان علي عمل المكالمة لإرضاء أمي. لكني في وقتها شعرت أنني لو خضعت لضغطها كنت سأفقد قطعة مني، أو كما لو أنها كانت تحاول ـ كما في كلمات والتر شارلتون ـ أن تثب من فوقي وتفترسني.

إذا اعتبرت إصرار أمي على أنه ابتزاز عاطفي فذلك لأن لطلباتها قوه كبير، فقد ظننت أن عنادي كان قد تسبب في جنون أمي لأنها تعتقد أن من حقها امتلاك القوة لإجباري على الاتصال بابن صديقتها. ومن الواضح أن صديقتها اعتقدت الاعتقاد نفسه. أو ربما أمي اعتقدت أنه من خلال التواصل الذي بيننا، فبما أنها هي تريد للمكالمة أن تتم فبالتأكيد أنا أريد الشيء نفسه. إنه من الصعب معرفة السبب، لأن التواصل والتحكم متشابكان بشكل كثير ويتبع بعضهم الآخر.

في كتاب «عدم إنسانية المرأة تجاه المرأة» كتبت فيليس شيسلير - وهي عالمة نفسية ورائدة في الدفاع عن النساء - أن التواصل يتحول إلى تحكم ويقوم بالتهام الغنيمة. ترجع العالمة الإحباط الذي بينها وبين أمها إلى رغبة أمها للتحكم بها فقالت: «مهما قدمت وفعلت حتى أحصل على حبها، فإنه دائماً غير كاف. لأنها كانت تريدني لنفسها، أنا، أن ألتحم معها، أن أكون كظلها، وأن تفترسني أيضاً». إن صفة التتابع تعكس الطريقة التي يهدد بها القرب: في «تريدني لنفسها» واستخدام أمها لها في: «ألتحم معها». إن هناك شخصيتين مختلفتين، ومع ذلك فإنهم يصبحون شخصية واحدة في: «أن أكون ظلها». تتلاشى شيسلير ووحدها أمها تستعيد القوة وفي: «أن تفترسني أيضاً» فإنها تتوقف لتحيي.

بالرغم من أن وصف شيسلير يبدو مبالغاً فيه وتقريباً خياليًا إلا أنه يعكس الخطر الكبير الذي تراه الكثير من النساء. عالمة نفسية أخرى جانيت ويتير قالت إنها صادفت نساءً يتعمدن وجود مسافة بينهن وبين أمهاتهن بالرغم من رغبتهن الشديدة في التقرب من أمهاتهن. لأنهن أيضاً يشعرن بأنه سيتم افتراسهن. نقلت الدكتورة ويتير جملة سمعتها من امرأة: «إن أمي تملك باباً خلفيا لرأسي.. يجب علي البقاء بعيدة لأنها تستطيع الدخول منه والتحكم بي».

حب الأم: من الجانبين

إذا كانت البنات تخشى في بعض الأحيان من افتراس أمهاتهن لهن فإن الأمهات يخشين أحياناً من الشيء نفسه. وهذا يؤدي بالأم إلى الخوف من أن تصبح وحشاً ورؤية أبنائها لذلك. تصف أدريني ريتش

بعض النزوات والمخاوف في كتابها، فهي تحدد «الأزمة النفسية لإنجاب الطفل الأول». والتي تنتج من «الشعور بالسلطة المضطربة والعجز، الشعور الغامر بفقدان السلطة في جهة ولمس الإمكانات النفسية والجسدية من جهة أخرى». ولتوضيح هذا التناقض نقلت ريتش كلمات من دفتر يوميات كتبته عندما كان أولادها صغاراً:

«إن أولادي يسببون لي أشد أنواع المعاناة التي لا خبرة لي فيها، إنها معاناة التناقض: التناوب القاتل بين الغيظ المرير والأعصاب المدمرة وبين الرضا المبارك والعطاء الحنون. وأحيانًا أبدو إلى نفسي كما لو أنني وحش أناني وغير محتمل. أصواتهم تنهكني، رغباتهم المتواصلة، وفوق كل هذا حاجتهم إلى الصبر والبساطة. كل هذا يملؤني باليأس بسبب فشلي ونصيبي، مصيري بأن أخدم في وظيفة لست أهلاً لها. وأحياناً كثيرة أشعر بالتعب من كبت الغيظ الشديد. وأشعر بأن الموت وحده يستطيع تفريقنا عن بعضنا البعض».

وبقراءتي لهذا شعرت كما لو أنني قد برئت من أفكاري المخجلة وغير العاقلة بأن الموت وحده قادر على تحريري من أمي. وبعد خمس سنوات وفي دفتر يوميات مختلف تماماً وصفت ريتش مرة أخرى المعاناة «مع الطفل وضده».

قالت: «إن التعلق في موج من الحب والكره والغيرة حتى من طفولة الطفل، الأمل والخوف من نضجه ووصوله مرحلة الرشد. الشوق إلى الحرية من كل المسؤوليات العالقة بكل خيط من روحك».

فسرت ريتش بأن هذا الشعور الغامر والمتناقض هو نتيجة لكون الطفل جزءاً من النفس. وبمعنى آخر فإن الأم مدركة تماماً للتعبير «أنا أندمج» الذي أشارت له تشيسلير سابقًا.

إن التناقض الذي وصفته ريتش يتوازى مع التناقض الذي تشعر به البنات أيضًا، كلاهما تدركان بأنه أساس ومهدد للحياة. هو ملاك حارس وساحر شرير في الوقت نفسه.

تكتب ريتش عن غضبها المكبوت تجاه أطفالها الصغار. لكن هناك أمهات لا تكبت هذا الغضب. كانت الشاعرة آن سيكستون واحدة من هؤلاء، كانت امرأة غير متزنة نفسيًا لكن شاعرة بارعة في الوقت نفسه. وجدت أن العناية الشيطانية بأطفالها شيء لا تستطيع تحمله. ووفقًا للكاتبة دينا ميديلبروك والتي كتبت عن حياة آن الشاعرة فعندما كانت ابنة آن رضيعة كانت أمها تشعر بالشلل والقهر، وتدخل في نوبات من الغضب الأعمى حيث تمسكها «وتخنقها أو تصفعها»، حتى أنها حملتها في مرة من المرات ورمت بها إلى الجانب الآخر من الغرفة. تعتقد الكاتبتان سوزان موشارت وكارول ديكس بأن كثيراً من الأمهات الجديدات إن لم يكن جميعهن يشعرن بهذه النزوات، و نسبة بسيطة منهن تقوم بهذه التصرفات الشاذة فعلاً.

سنوات المراهقة: الوحوش الكاسرة

وصفت ريتش خوفها ببلاغة وصراحة نادرة من النزوات القاتلة والرحيمة في الوقت نفسه والتي جعلتها تشعر كالوحش. وكثير من البنات ترى الأمهات فجأة على أنهن متوحشات، وتصبح الأمهات متوحشات في أعين البنات عند الدخول في مرحلة المراهقة. صورت لنا المغنية والكاتبة

بيكي سيجير هذا الألم في أغنية «نغمات مختلفة» والتي كانت بصوت أم وابنتها جانباً إلى جنب. تعبر الأم في الأغنية عن ألمها النفسي من جراء تغير ابنتها المفاجئ وصدودها عنها. تقول: «تنظر إلي بنظرة باردة وخالية من التعبير تقطع قلبي من الداخل. نظرة يتخللها مسحة من الحسد. أتمنى لو كنت بجمالك، أتمنى لو كان لدي أسلوبك». وبإعجاب تقول المراهقة في الأغنية: «تتعامل مع العالم أفضل مني بكثير، إنها تعرف أشياء لن أتعلمها في حياتي». وبالنسبة للبنت أيضاً فإن الأغنية تبين إلحاح البنت وطلبها بأن تتوقف أمها عن معاملتها على أنها طفلة، وشوقها بأن تتحرر من أمها التي (تريد الإمساك بها والإبقاء عليها والتحكم بحياتها). ويظهر إعجاب الأم من خلال تذكرها لأمها: «أحياناً أتمنى أن تكون أمي مازالت موجودة، كانت بغاية الرقة اللطف».

تكلمت مع بيكي سيجير عن القصة وراء الأغنية فقالت بأنها كتبت الأغنية عندما كانت ابنتها في سن المراهقة. ولم تؤسس الأغنية بناءً على علاقتهما فقط ولكن أيضاً بناء على مقابلات أجرتها مع أربعة من صديقات ابنتها وأمهاتهن. ووجدت سيجير بأن المقابلات كانت منيرة ومأساوية. من الواضح بأن كل واحدة كانت تحب الأخرى لكن لم تعرف أي منهما كيفية التواصل بهذا الحب. وبالفعل فإن كل البنات التي أجرت معهن الحوار استخدمن الكلمات نفسها: «أمي بقرة» «أمي سيئة». علقت سيجير بأن كل البنات استخدمن الكلمات نفسها لأن شعور معاناتهن واحد.

وقد عززت هذه الفكرة من خلال حوار دار بينها وبين ابنتها خلال ذاك الوقت المؤلم فقد سألت سيجير ابنتها كيتي مباشرة: «كيتي، هل تحبيني؟» فأجابت ابنتها: «من غير المفروض أن أحب أمي». فسألت سيجير: «هل

تحبين أم شارلوت؟» فأجابت كيتي بنعم. «هل تحبين أم سارة؟» فأجابت البنت بنعم. ومرت سيجير بالسؤال على كل أسماء صديقاتها، وأحبت كيتي كل أمهات صديقاتها. وفي النهاية قالت كيتي: «لكن كل صديقاتي يحبوك». لم تكن المشكلة بسبب شخصية الأم ولكن بسبب العلاقة مع ابنتها المراهقة.

نهاية القصة خلف هذه الأغنية حادة ومؤثرة. فبعد ما ألفت سيجير كلمات هذه الأغنية طلبت من ابنتها تسجيل الأغنية معها. وذهلت عندما قالت ابنتها: «لن أقوم بغناء هذه الأغنية». فقالت سيجير: «لكني كتبتها من أجلي وأجلك». فقالت كيتي:«لكنك لم تسأليني أبداً». أدركت الأم أن ابنتها على صواب، وأن مقاومتها عكست التحول في العلاقة التي تم تصويرها في الأغنية. قد سجلت سيجير الكثير من الأغاني في الماضي بدون سؤال ابنتها. وكتابتها لهذه الأغنية لم يَعْنِ فقط أنها حاولت أن تعكس وجهة نظر ابنتها بل أنها ألفت أغنية عما يدور في دماغ ابنتها أيضاً. لكن كيتي أصرت على رأيها، واضطرت سيجير أن تبحث عن فتاة أخرى لتغني الجزء الخاص بكيتي في الأغنية. قد كان على سيجير العمل بكثافة حتى استطاعت أن تصل إلى النتيجة التي أرادتها. وعندما انتهت من تسجيل الأغنية تتذكر سيجير بأن كيتي كانت في الأستوديو لغناء أغنيات أخرى. فقال واحد من إخوة كيتي لسيجير بأنه عندما سمع تسجيل أغنية «نغمات مختلفة» من قبل الفتاة البديلة، اقترب من كيتي وقال لها «كان يمكنك غناء هذه الأغنية بشكل أفضل». وأن كيتي تبسمت له وقالت: «أدري».

كم هي واضحة هذه النهاية. ولو أن كيتي كانت قد غضبت من قوة وسيطرة أمها عليها فإن رفضها لتسجيل الأغنية أعطاها قوة فوق قوة

أمها، لتسبب لها خيبة الأمل وتجعلها مضطرة للعمل لساعات أطول. لكن كان هناك أيضاً نداء واضحٌ في رفضها، فقد كان يعني ضمنياً: «لا تستطيعين إجباري على عمل كل ما تريدينه. أنا لست امتداداً لك». وهذه الرسالة لم تكن خفية على أمها. وتمامًا كما كتبت لي الكثير من النساء عن أمهاتهن:«أنا أبكي وأنا أكتب هذه الرسالة». فإن سيجير قالت عندما كانت تخبرني عن تاريخ هذه الأغنية بأن هذه الأغنية تجعلها تبكي كل ما سمعتها. وبعد سبعة عشر عامًا غنت كيتي وأمها في ألبوم قمن بتسجيله باسم «أيها الحب نادني». تقول سيجير: «أنا أحب الغناء مع كيتي، يا لها من متعة عندما تجتمع أصواتنا».

وهنا مصدر آخر لتشجيع الأم التي تتعرض للنقد المتطرف من قبل ابنتها. علقت امرأة عن سبب علاقتها الجيدة مع أمها من خلال بريد إلكتروني فقالت: «سبب من الأسباب الذي يجعل من علاقتي مع أمي سهلة للغاية هو أنه لم تضع نفسها على منصة فوقي. بل بالعكس فقط كنت أستهزئ بها عندما كنت صغيرة. (إنني أندم على ما فعلت وأشعر بالسوء تجاه تصرفاتي). لم يكن علي إدراك أن أمي لم تكن مثالية أو أن معرفتها ليس لها حد. لكن مع أبي كانت الحال مختلفة. وباللحظة التي أدركت أن أبي كان غير معصوم غضبت كثيرًا منه لعدة سنين. لذا فإن علاقتك ستتحسن مع ابنتك كلما تقدمت في السن والانتقاد الذي تتلقيه الآن منها ربما سيكون الأساس لهذا التحسن.

عندما ترقصين

من بين الشكاوى التي غنتها كيتي في أغنية سيجير «نغمات مختلفة» هي «أن أمها تريد التحكم في حياتها» تسأل: «لماذا لا تستطيع أمي تركي وشأني؟»

والسبب في عدم ترك الأم لابنتها المراهقة هو السبب نفسه في مقاومة الفتاة المراهقة لأمها. إنه منع الأم للبنت من فعل ما تريد. وفي كثير من الحالات فإن ما تود البنت فعله يكون غير حكيم ـ إذا لم يكن خطيراً ـ من وجهة نظر أمها. لكن أحياناً تشعر البنت بأن أمها تود الإمساك بها بطريقة غير ضرورية. قالت امرأة إنها لما وصلت إلى المرحلة الثانوية وأصبحت أطول من معظم الأولاد في فصلها أعطتها أمها نصيحة فقالت: «اثني ركبتيك قليلا يا عزيزتي عندما ترقصين بجانب ولد». وهذا قد يبدو معقولا من وجهة نظر الأم إذا وضعنا في الاعتبار بأن على البنت الزواج بمن هو أطول منها. إن على البنت الطويلة إخفاء طولها وإلا فإنها لن تحظ بالرجل المناسب. لكن من الصعب إخفاء الطول بعض الشيء. إن صورة البنت الطويلة التي تحاول ثني ركبتيها حتى تبدو أقصر هو مماثل جسديًا للطرق التي حاولت بها بعض البنات القطع من أنفسهن حتى يصبحن بالحجم المناسب بناءً على وصية أو رغبة الأم.

قال الشاعر اللبناني خليل جبران في كتاب «النبي» إن الحب يكون «للنمو» ويكون أيضاً «للجز والتقليم من النفس» وبمعنى آخر فإن الحب يعطي ويأخذ. إنه يجعلك أغنى مما كنت عليه في السابق، لكنه أيضاً يجعلك أفقر. كان شعر جبران يعكس حباً رومانسياً، لكن الشيء نفسه ينطبق على الحب بين الأم وابنتها. وبمثالية عالية فإن الأم تختار التبادل وتؤمن بأن ما تمنحه (متمثل بالجز من نفسها) سيفوق ما سوف تجنيه (نموها). إن البنت مثلاً لا تمتلك أي ذاكرة لمرحلة ما قبل ولادتها لذا فهي لا تقدر كيفية ولادتها وعطاء أمها أو (الجز والتقليم) من نفسها. وبالمقابل فإن الأطفال لا يختارون الخسارة أو الكسب في حياتهم، لذا فإنه

من المحتمل جداً أن يشعروا أن وجود أمهاتهم فقط يخدم نموهم ـ أن تعطيهم الأشياء وتشجعهم ـ وليس لأن تقلم منهم وأن تمسك بقبضتها عليهم. وبالرغم من ذلك فإنه مهما شجعت الأم ابنتها لتحلق عاليًا فإنها ستجد طريقة لتسحبها للأسفل.. إلى الأرض.

كومة من: «ماذا لو»

كتبت الطبيبة النفسية جانا مالاميد سميث في كتابها «السحر القوي» عن أساليب جوهرية يقوم بها الأطفال بالجز والتقليم من أمهم: فعندما يكون للمرأة طفل صغير فهي محكوم عليها للأبد بالقلق المضاعف على سلامة طفلها. توضح سميث أنه بسبب الخوف الدائم من فقدان الطفل أو حصول أي مكروه له فإن الأم تصبح رهينة للنصيب. كما تصبح أيضًا رهينة للرجل إذا كانت تعتمد عليه في الدعم المالي.

إنه عرض لا ينتهي من نصائح الخبراء الذين يخبرونها بصراحة وعلى نحو خفي بأنها سوف تؤذي هذا الطفل ما لم تتبع نصائحهم المتغيرة. وللبائعين الذين يقولون لها إنه ليس عليها فقط شراء كل هذه الكتب بل أيضًا عدد لا يحصى من كراسي الأطفال الخاصة بالسيارة وأجهزة مراقبة الطفل حتى تبقيه آمنا.

إن هذه المخاوف المطبوعة في أذهاننا هي نتيجة لحياتنا العصرية، لكن الخوف ليس جديدًا. صادفت وصفًا لهذا في رواية كتبت بقلم كاتبة يونانية عصرية تدعى ليليكا في العشرينات. وهنا ترجمتي لتعبير ليليكا عن خوفها على سلامة طفلها الصغير:

«ما كنت أشعر به كان يسمى «بالأمومة». إنه الحب العصيب، الصراع الدائم الذي أشعر به تجاه صغيري بطرس. في كل مكان، في أي مكان أذهب فإن أفكاري في مكان آخر. إنها مع طفلي، إنني أرتعد عندما يكون الجو باردًا أو عندما يخرج. أخاف أن يقع، أخاف أن يتعسر هضمه إذا أكل قليلاً من الحلوى. كومة من احتمالات «ماذا لو» تدفعني إلى طريق الجنون».

في الرواية كانت الأم لا تخضع فقط لهذا الرابط العاطفي لكن أيضًا لرابط أكثر حقيقة وهو أن:عليها الإبقاء على وظيفتين مختلفتين من أجل أن تستطيع العناية بطفلها ماديًا. وأن هذه الحاجة هي التي تجعلها مرتبطة بموطنها الفقير اليونان وتمنعها من السفر إلى باريس المدينة العالمية التي عاشت بها سابقًا.

الراعية

كتبت كثير من النساء عن مخاوفهن تجاه العناية بأطفالهم. وبالرغم من حبهن الشديد لهم إلا أن العناية بالطفل ستمنع تطوير الموهبة والإبداع. ونتيجة مماثلة «للجز والتقليم» تحدث عندما يكون على المرأة ترك مهنتها حتى يتسنى لها العناية بوالديها المسنين. قال العديد من النساء بأن تعاسة أمهاتهن نبعت من تخليهن عن الدراسة أو العمل بسبب مرض الأم مثلاً حيث كان عليها العودة إلى المنزل للعناية بها. مثلاً أخبرتني إحدى النساء هذه القصة حتى تبين لماذا كانت تشعر دائمًا بخيبة الأمل: حصلت أمها على بعثة ودرست في جامعة جويلارد لعزف البيانو، ثم اضطرت للعودة للبيت لتعتني بأمها «الجدة» التي أصيبت بمرض عضال. وكانت هذه هي النهاية، لم تعرف أبدًا أين من الممكن أن يصل بها الطريق لو أنها استطاعت إكمال الدراسة.

في الرواية والفيلم «الماء بدلاً من الشوكولا» كانت الفكرة الأساسية للرواية هي الابنة التي تكرس حياتها للعناية بأمها. وقد دارت الرواية في القرن الماضي في المكسيك. وفي المقابل أخبرتني كثير من النساء أنه من المتوقع منها أنْ تضع طموحاتها جانبًا حتى يتسنى لها العناية بأمها المسنة. واحدة منهن تسمى إيديث وهي في السبعينات من عمرها الآن، إيديث تقول بأنها قد تلقت ضربة قوية وهي صغيرة عندما اضطرت أن تعتني بأمها تماماً كما أنه تم اختيار أمها للعناية بالعائلة من قبل. سلكت إيديث مساراً مهنياً في أحَد برامج الثانوية العامة بينما أخذت أختها التي صنفت على أنها ذكية مسارًا أكاديميًا وأكملت دراستها الجامعية. حاولت إيديث أن تتخلص من هذا المصير مع زوجها وولديها الذكيين. وعندما أصبحت في الثلاثين من العمر قامت بالانتقال إلى ولاية كاليفورنيا، الأرض التي تعد بالبدايات الجديدة دائمًا. وهناك بدأت مشاعرها وإمكانياتها بالظهور. وبتشجيع من زوجها قامت بالتسجيل في إحدى الكليات القريبة وشعرت بالسعادة الغامرة والمفاجأة بسبب أدائها الجيد في الدراسة. لكن كل شيء تغير بشكل سريع بعدما قرر والداها الانتقال إلى كاليفورنيا. وبالرغم من أن أمها لم تقل أبدًا إن عليها ترك الكلية والصديقات أو أخذ دور الراعي الذي يعتني بها، إلا أنها كانت تقول جملاً كهذه: «لا يمكنك أن تثق بالغريب.»و» لماذا يضيع الناس وقتهم مع الأصدقاء عندما يكون لديهم عائلة.» فهمت إيديث رسالة أمها فبدأت بإمضاء وقت أقل مع صديقاتها وأكثر مع أمها وتركت الكلية، وأصبحت العلاقة بينها وبين أمها علاقة «جز وتقليم».

تعمل شانون في عمل حكومي جيد، لكنها تتساءل كيف كان لحياتها أن تكون لو أن أمها قد أخبرتها عن المكالمة التي تلقتها. درست شانون

الصحافة في الكلية وقد كان هدفها أن تجد عملاً في إحدى محطات المذياع أو التلفاز. عاشت مع والدها بعد التخرج وتقدمت بطلب وظيفة لكل المحطات التي تعرفها. وبعد إرسالها طلبات غير محدودة وانتظارها شهورًا طويلة، تقدمت بطلب الوظيفة الحكومية وبدأت بالعمل في واشنطن دي سي. وحتى عندها كانت مازالت ترسل الطلبات للمحطات. وبعد ستة شهور من هذا الروتين كانت تتحدث إلى أمها عبر الهاتف عندما قالت أمها: «آه.. لقد نسيت أن أخبرك أنه من عدة أشهر تقريبًا اتصلت إحدى محطات المذياع في بافالو، وقالوا إنهم يحبون أن تعملي معهم، وأنك تحملين المميزات التي يبحثون عنها. لكني أخبرتهم بأنك قد بدأت العمل في مهنة أخرى». هل كان هذا تصرفاً بريئًا أم محسوبًا؟ ألم تعلم أم شانون بأن ابنتها مازالت تتشوق إلى العمل الصحفي؟ أو أنها كانت تعلم ولم تهتم بما أنها اعتقدت بأن العمل الحكومي كان فرصة أفضل؟ مهما كان حافز أمها فقد تساءلت شانون دائمًا ما إن كانت حياتها ستكون مختلفة لو أن أمها كانت قد أخبرتها بالمكالمة. ومن وجهة نظر شانون فإن هذا يقع تحت «الجز والتقليم».

إن هناك جانبًا آخر للقصة من المحتمل أن يحمل تلميحًا لكيفية التعامل مع مواقف محبطة كهذه. لقد شعرت شانون بالإحباط الشديد عندما أخبرتها أمها عن الفرصة الضائعة، لكنها لم تقل شيئاً لأن الوقت كان متأخرًا لفعل أي شيء مختلف. ولم تكن شانون من النوع الذي تناقش أمها بصراحة. وتخيل شعور شانون عندما تكررت الحادثة بعد ذلك بشهور قليلة. ومرة أخرى ذكرت أم شانون أن محطة مذياع بافالو قد اتصلوا وأخبروها عن وظيفة شاغرة، وأنها تصرفت معهم بنفس الطريقة الأولى. حتى أنها انتظرت مدة طويلة قبل أن تخبر شانون بالمكالمة الثانية.

لو أن شانون قد عبرت لأمها عن خيبة أملها بتصرفها في المرة الأولى، أو أنها أصرت على أن تعطيها أمها الرسالة حالما تتلقاها، أو أنها أخبرت المحطة بالاتصال بشانون على رقمها الآخر فإنها ربما تكون قد حصلت على الوظيفة التي كانت تتمناها والتي درست من أجلها.

المتنافسون الأقرباء

ليس هناك سبب يجعلنا نعتقد أن أم شانون تحمل في قلبها شيئاً آخر غير الحب ومصلحة ابنتها. (بالرغم من أننا نستطيع أن نتجادل في أنه ما إن يتلقى أحدنا مكالمة لشخص آخر، فإنه علينا أن نترك الكلام والإجابة للشخص المعني). وهناك حالات كثيرة يكون فيها التأثير المؤذي نتيجة النية الحسنة.

مثلاً، نجمة المجالي طالبة في جامعة جورج تاون تحضر رسالة الدكتوراه. كان على نجمة المجالي حضور موعد أخير لتقديم رسالة الدكتوراه وقد كانت وقتها تعبة للغاية، أحست نجمة أنها لم تقدم أفضل ما عندها بسبب أنها لم تنل أكثر من ساعتي نوم في الليلة السابقة. والسبب في عدم نومها هو اتصال أمها من بلدها الأصلي «عمان» في الثالثة صباحًا حسب وقت واشنطن دي سي. وبالرغم من أن نجمة عادة ما تكون يقظة في هذا الوقت، إلا أنها قد أوت إلى الفراش باكرًا هذه الليلة حتى تتأكد من حصولها على الراحة والقدر الكافي من النوم لهذا الموعد الحاسم. لقد كان وقع هذه المكالمة قويًا ومتعبًا، لكن نجمة لم تكن غاضبة لأنها عرفت بأن نوايا أمها كانت طيبة. وقد أخبرتني نجمة فيما بعد عبر البريد الإلكتروني أنها كانت فرحة بسعادة أمها عند حصول ابنتها على درجة

الدكتوراه. (بل في الحقيقة قد أخبرتها أمها أنها قد نذرت بذبح بقرة عند عودة ابنتها للوطن وتوزيع اللحم على الفقراء).

لكن هناك بالفعل أوقات تتمنى فيها الأم بأن تقف أمام ابنتها وتعيق طريقها من باب روح المنافسة. تكتب تشيسلر مثلاً أنها في كل مرة تصدر كتاباً جديداً كانت أمها تردد الملاحظة الآتية: «لا تعتقدي أنك متميزة أستطيع أنا أن أكتب كتاباً أيضاً».!! وفي بعض الظروف فإن المنافسة يمكنها أن تكون حافزًا. تحاول إلهامك حتى تحاول بجهد أكبر، لكنها أيضًا من الممكن أن تخلق شعورًا لقطع الطريق على المتنافس المقابل، لأنه من المحتوم أن تشعر الأم وابنتها بالمنافسة تجاه بعضهن، مهما كان مقدار الحب بينهن. إنه أيضاً من المحتوم أن تكون هناك أوقات تشعر فيها الأم أو البنت أنها تود إعاقة نجاح الأخرى.

المنافسة بين الأم وابنتها تنتج أيضاً من رغبة كل منهما بتقليد الأخرى. مثلاً قال والد آن سيكستون لها ولأخواتها: «إن البنت ليست ببراعة الأم». شعرت آن بالمنافسة تنطلق منها مباشرة ومن أمها أيضاً. عندما كانت آن سيكستون في مرحلة الثانوية لم تصدق أمها أنها كانت قد كتبت القصائد التي تدعي أنها كتبتها بنفسها. وحتى تتأكد الأم من أن ابنتها لم تنتحل كلمات مؤلف آخر قامت بإرسال قصائد آن إلى بروفيسور جامعة تعرفه. ووفقاً لكاتبة سيرتها دايان ميديلبروك فإن سيكستون تقبلت وفهمت شكوك أمها «كدليل على الرغبة في البقاء في المرتبة العليا».

هذا المثال دليل واضح وجلي على شعور المنافسة. لكن في بعض الأوقات فإن التعليقات التافهة من الممكن أن تؤدي إلى المنافسة أيضاً. طالبة أخرى

أخبرتني بأنها تتصلب من الغضب عندما تعيد عليها أمها أشياء تعرفها. مثلاً أثناء مكالمة هاتفية تخبرني أمي أنه من الضروري علي أخذ علاجي لأنني أعاني من السعال، بينما كنت قد أخذت علاجي وهي تعرف ذلك، وتعلم أيضاً أنني لا أتهاون بأشياء كهذه. وعوضًا على هذا فإني أبادر في إخبارها بكل الأشياء التي أتوقع أنها سوف تعلق عليها في الحوار. يتحول الحوار في النهاية إلى منافسة حول من يستطيع فعل الشيء المناسب أولا.

من الصعب تمييز المنافسة من الحسد حيث إنها مشاعر تشعر بها الأم والبنت تجاه بعضهما. وعندما كانت تتحدث أمي عن أمها كانت غالبًا ما تذكر أن أمها كانت تغار من صديقاتها، وقد كان هذا مثيرًا للسخرية بدرجة كبيرة لأني لطالما شعرت أنَّ أمي كانت تغار من صديقاتي، خصوصًا إذا فضلت أن أمضي وقتي معهم بدلاً من إمضائي الوقت معها. وقصة معينة تأتي للذاكرة بعد تخرجي من الجامعة، فقد كنت أدرس اللغة الإنجليزية في اليونان وعدت للوطن في زيارة بعد سنة من الغياب. و كان في استقبالي في مطار كينيدي والديّ وأربع من صديقاتي. ثلاث من الصديقات موسيقيات وقد أعددن أغنية صغيرة للترحيب بقدومي. وهذا المشهد هو واحد من المشاهد العزيزة في نفسي. فبينما كنت أمشي أنا ووالدي في الصالة الدولية رأيت صديقاتي وقد تجمعن، وكل منهن تحمل آلة العزف الخاصة بها. وهناك بين زحام المطار الدولي قامت صديقاتي بعزف أغنية الترحيب أمام الجميع. لم أشعر في حياتي بحب ودلال وتكريم كهذا. لكن لحظة الفخر قد شوهت من قبل غضب أمي المحجوب والمريض بالرغم من أنها لم ترني منذ مدة طويلة. فأعطيتها القليل من الانتباه وركزت انتباهي على أصدقائي. ولم تظهر أي إعجاب أو متعة لعرضهم. علقت

فقط بانزعاج ظاهر بأن هؤلاء الصغار السن يشتتون انتباهي. وقد كانت متلهفة لأخذي للمنزل، المكان الذي شعرت أني أنتمي إليه. بدت وكأنها تشعر بأن كل دقيقة ركزت فيها على أصدقائي كانت مسروقة منها. وكل قطرة حب شعرت بها تجاههن كانت من الكأس الذي ينتمي لها.

المنافسة على الجائزة الكبيرة: الأب

وفي النهاية تركت صديقاتي في المطار وذهبت للمنزل مع والديّ. لكن عند وصولنا كان هناك الخصم القوي الذي لا تستطيع أمي انتزاعي منه وهو والدي. في الفصل الثالث وصفت الرابط الذي يربط بين البنت ووالدها وتحيز الاثنين لبعضهم حيث تكون الأم مستبعدة من هذا الرابط. ومن وجهة نظر أخرى فهذا نوع من المنافسة بين الأم وابنتها. وقد لاحظت وجهة النظر هذه وأنا أراقب عائلة أخرى غير عائلتي.

كنت أنا وزوجي ضيوف عشاء في منزل أحد الأصدقاء. وبينما كنا نجلس حول المائدة بعد انتهاء العشاء دخلت ابنتهم المراهقة إلى الغرفة واتجهت مباشرة إلى والدها. وبينما كانت تقف إلى جانبه كانت تقلب شعره بحنان، واستمرت بتمرير أصابعها على رأسه حتى بعدما توقعت أنها سوف تتوقف وتتصرف. وبينما كنت أراقب شعرت بالغيرة دفاعًا عن صديقتي - «أمها». وفجأة أحسست بضربة داخل أحشائي وفهمت لماذا اغتاظت أمي دائمًا من حبي لأبي. إنه من الصعب مشاهدة أي تحيز أو صفوف تتكون ضدك بين الأخوات أو بين الأب وابنه والتي بدورها تقوم باستبعادك للخارج. لكن بالتأكيد هناك ألم خاص تشعر به المرأة عندما ترى الرجل الذي تحب يتلقى اهتماماً وافراً من امرأة يبادلها هو نفس

الاهتمـام بالمقابـل، حتـى وإن كانت هذه المـرأة الصغـيرة ابنتها. (يكون الموقف مؤلماً أكثر لو أن للرجل بنتًا من زواج سابق).

هنا تدخل الأم وابنتها في منافسة عدائية لا يمكن تجنبها. وكما ذكرت تشيسلر ببساطة:

«إن التركيز الزائد على مظهر الأنثى وتفضيل الذكر المسن للمرأة الصغيرة والرعب الناتج عن الهرم. كلها تؤدي إلى المنافسة النسائية المستمرة على الجائزة الكبرى».

وهنا أيضًا قصة من الذاكرة: فبعد ما انتهى زواجي الأول كنت مخطوبة لرجل يدعى توم وبينما كنت أزور والدي لاحظت وجود زهور جميلة في مزهرية على الطاولة. وعندما سألت أمي أجابت بأن والدي قد أحضرها. فسألت إن كان هناك مناسبة؟ فأجابت أمي: «لا.. فقط لأنه يحبني». ثم زادت : «أخبري توم بهذا». وأراهن لو سئلت أمي عن سبب كلماتها لكانت أجابت بأنها تريد أن تعامل ابنتها معاملة حسنة. لكن نبرة صوتها كانت قد سربت أثراً للنصر العسكري، وأنها قد فازت بحب أبي في هذه الجولة.

إن المنافسة على اهتمام الأب هي أكثر المنافسات حدة لكنها ليست الوحيدة في علاقة الأم بابنتها. أخبرتني امرأة تدعى جاكي عن تجربة مرت بها عندما كانت في الأربعين من العمر، وكيف أن هذه التجربة ذكرتها بسنوات مراهقتها. تقول إنه بينما كانت تتمشى مع ابنتها في أحد شوارع المدينة بدأت أمها بالشكوى، وأنه ليس من العدل أن ابنتها جميلة وأن الجميع ينظرون للبنت، ولا ينظر إليها أحد. تعبر المرأة عن تصرف

أمها وتقول «كانت تفعل هذا وأنا في الخامسة عشر من عمري». وتقول «إنه ليس من العدل». وهذا جعلني أشعر بالذنب، كنت أود أن أظهر جميلة لكني لم أكن أريد أن أحط من قدرها. ولاحقًا بدأت بالتفكير أنه ربما علي تجاهلها، لأني لم أكن أريد التوقف عن الظهور جميلة، وهو الشيء ذاته الذي أرادت مني فعله.

كنت على وشك تصنيف هذا في خانة المنافسة بين فتيات الخامسة عشر وبين النساء المنتصفات في العمر، والصغيرة دائمًا تفوز. لكني أجبرت نفسي على التوقف، فليس للبنات دائمًا اليد العليا في هذه المنافسة. فتمامًا كما تظهر الأم الناجحة والبارعة على أنها منافسة رهيبة؛ فإن الأم الجميلة تظهر أيضاً بالمظهر نفسه. فعندما يعلق أحدهم قائلاً: «يا إلهي أكاد أجزم بأنكن أخوات». فإن الأم تشعر بالإطراء من أنها تبدو صغيرة كابنتها. لكن البنت تشعر بالانزعاج من أنها قد تبدو كبيرة في السن كأمها. قامت صحفية بعمل مقابلة مع الروائية ماريلين روبنسون، ولاحظت الصحفية خلال استراق النظر إلى ثلاجة الروائية الصورة الفوتوغرافية المعلقة عليها. لقد كانت صورة أمها وهي تظهر بتوازن مغالى فيه. علقت روبنسون «يجب أن تكون هناك مجموعة مساندة للأمهات الملكيات». بالفعل فإن الأم تستطيع تحقيق النقاط في مجال الجمال الجسدي بغض النظر عما إذا كان سيحكم عليها بطريقة ملكية أم لا.

كتبت المؤرخة الأسترالية جيل كير كووي في مذكراتها «الطريق من كوريان» بأنها تساءلت بصوت عالٍ: كيف لامرأة مثل أمي لديها كاحلان نحيفان ورائعان أن تنتج بنتاً مثلي حيث يبدو كاحلاي مع آخر النهار منتفخين ومتورمين».

تراث الحياة

لقد شعرت جاكي أن أمها أرادت منها التوقف عن كونها جميلة وفي الحقيقة تشعر كثير من النساء بأن الأمهات تقص من أجنحة البنات حتى يجعلنهن أكثر تقبلاً من المجتمع. مثلاً تقول امرأة: «لقد كانت أمي مهتمة جدًا بكيفية تقديمي للمجتمع وتعرفي عليه. ولم تود أبدًا أن أكون ناجحة مهنيًا». وفي النهاية هذه هي حال المجتمع حيث يعلم الآباء ـ والأمهات على الأخص ـ أولادهم كل التقاليد الخاصة بالمجموعة التي ينتمون لها، وكل ما هو متوقع منهم إنجازه. وأحيانًا تتحول مسؤولية الأم في تعليم ابنتها إلى إساءة جسدية. فمثلاً خلال القرون التي كان يسمح بها بربط أرجل الفتيات الصغار في الصين ـ عندما كانت القدم الصغيرة من أوجه الجمال ـ كانت الأمهات هي التي تقوم بربط أرجل بناتهن. عملية في غاية التعذيب والألم حيث تتطلب كسر أصابع وقوس القدم ولف القدم الصغيرة تدريجيًا بضمادات أضيق وأضيق، والذي بدوره يقطع الدورة الدموية ويؤدي إلى التهابات خطيرة. إننا لا نشك في أن دوافع تلك الأمهات تنبع من رغبتهن في التأكد والتأمين على مستقبل بناتهن بغض النظر عن أي تعذيب جسدي أو إعاقة تعرضن لها. هذه الأنواع من التعذيب كانت ضرورية لتأمين الزوج، والزواج كان الطريقة الوحيدة لتأمين المال للمرأة وأولادها.

دافع الأم يمكن أن ينتج من التماثل أيضاً كما وضحت سابقا. فنوال نور طبيبة سودانية أنشأت وأدارت المركز الصحي للمرأة الأفريقية في برمنجهام ومستشفى نسائيًا في بوستن. قامت الطبيبة بمعالجة نساء تعرضن في صغرهم لعميلة ختان أفريقية متوحشة ورؤيتهن. وتقابلت مع مريضة أرادت تعريض ابنتها لنفس العملية. حاولت الدكتورة نور أن تثنيها

عن رأيها. قالت خلال المقابلة إنه من بين الجدال الطويل بينها وبين الأم، فإن واحدا من أكثر تفسيرات الأم المدهشة والصعبة هو قولها: «أريدها أن تبدو مثلي».

لو كان تربيط الأقدام والختان الأفريقي نوعًا من أنواع الإساءة الجسدية المقبولة في بعض المجتمعات التي تعامل معاملة طبيعية. فإن هناك حالات تسببت فيها الأمهات بإساءات جسدية غير مقبولة من المجتمع. بالرغم من أن التعبير «العنف المنزلي» غالبًا ما يشير إلى عنف الرجل تجاه المرأة وضربه لها، إلا أنني تحدثت لكثير من النساء التي تعرضن للضرب والتعذيب من قبل أمهاتهن وكان هذا فوق توقعاتي.

لنرى مثلاً قصة جيسيكا التي تعرضت للضرب من قبل أمها في صغرها. كانت أمها توقظها من النوم في منتصف الليل وتجبرها على الجلوس بسكون وصمت على أرض غرفة المعيشة تنعتها بالألفاظ الجارحة وترمي عليها الأشياء التي من حولها. كانت أمها تصرخ بوجهها وتقول: «إنها قبيحة ومتوحشة كوالدك» (الوالد كان قد طلق الأم من مدة) وأنها كاذبة وقد خدعت الناس على أنها طيبة وفاتنة، بينما وحدها أمها التي تعرف حقيقتها. وفي الوقت نفسه تقوم برمي أي شيء على الطفلة تقع يدها عليه مثل ملاعق وأدوات مطبخ، حتى وإن أصابتها هذه الأدوات ونزفت الطفلة من جراء ذلك، فقد كانت ممنوعة من الحراك أو الحديث. وبالنظر إلى قوة هذه الأم وسيطرتها على الطفلة فإن تعبير «العنف المنزلي» يبدو غير مناسب، ووفقًا لسلوك وتصرفات هذه الأم فإن تعبير «الإرهاب المنزلي» يبدو أكثر ملائمة.

جانب آخر لهذه الرواية التي تفطر القلوب والذي تحدثت عنه معظم الفتيات في روايات كهذه هو حكم أم جيسكا القاسي على شخصها. فإن أثر وصدى هذا الحكم يعم ويستمر في حياة البنت لفترة طويلة حتى بعد بلوغها سن الرشد، وحتى بعدما لا يبقى للأم أي سيطرة عليها.

وصفت الصحفية دايان ريم في مذكرتها «البحث عن صوتي» حياتها مع أم تضربها باستمرار، وكيف أن حكم أمها عليها كان جزءًا من ميراثها. وكان قد تم ضرب ريم «بحزام، وبملعقة مطبخ حديدية، وبملعقة مطبخ خشبية، وبحذاء قاسٍ». وكل هذه الأسلحة جاهزة ومتوفرة في المنزل خصوصًا المطبخ. وتتذكر أنها أبقت على هذا الضرب سرًّا لأنها شعرت: «بأنها كانت تستحق هذه المعاملة السيئة لأنها قد خيبت أمل والديها... لم يكن لدي أي طريقة أستطيع فصل نفسي عن الشعور بكره نفسي لأنني قد أسأت التصرف». وبعد سنوات طويلة وبينما كانت تعاني ريم في زواجها ووظيفتها وجدت أنها كانت معذبة بسبب كرهها لنفسها. كما لو أنه كان شريطًا يدور في رأسها «إنك لا تستطيعين إنجاز شيء. أنت فاشلة» وخلال المعالجة النفسية فهمت دايان ريم: «إن معظم هذا الحوار له علاقة بأمي. فكلما سمحت لنفسي بإدراك كم تضاربت مشاعري تجاهها زاد غضبي وحزني. بالكاد أستطيع أن أذكرها بدون أن أشعر بالبؤس والعداوة، كما لو أنها ما تزال جزءًا نشيطًا ودائمًا في حياتي. في الحقيقة مضى على موت أمي أكثر من أربعين سنة الآن لكن الشعور بالعجز الذي شعرت به في طفولتي كلما كنت حولها كان مازال موجوداً معي إلى هذا اليوم».

إن حكم الأم السيئ على ابنتها بالفشل ينطبع في نفسية البنت كما تنطبع و تتحجر بصمة ورقة الشجر على الحجر.

قالت امرأة أخرى تدعى أليس إن اتهامات أمها لها قد بقيت معها طيلة سنين طويلة حتى بعد موت أمها. وبينما كانت أمها تضربها كانت تصرخ في وجهها وتقول: «إن هناك شيئاً خطأ فيك!» هذه الكلمات كانت تظهر مراراً وتكراراً في حياتها. حتى أنها كلما كانت تتشاجر مع زوجها كانت تقول لنفسها: «إن أمي على حق. لابد أن يكون هناك شيء خاطئ فِيَّ.

لكن ربما أكثرها تدميراً كان قوة أمها على تقرير كيف تعيش أليس حياتها وسيطرتها على ذاكرتها. وهذا يظهر واضحًا في تجربة مرت بها أليس، ومازالت هذه التجربة حية في ذاكرتها رغم مرور عقدين عليها. كان لأليس رحلة عمل في المدينة التي تعيش فيها أمها مع زوجها الثاني. وبما أنها قريبة قررت أليس أن تزور أمها. كانت أمها وزوجها في رحلة وسيكون وصولهم للمدينة بعد وصول أليس بيوم. لذا فقد قامت أليس بالترتيب مع زوج أمها بأن تأخذ مفتاح البيت من الجيران وتنام في جناح الضيوف. وتستطيع بهذا مفاجأة أمها في الصباح التالي، بدا كل شيء مناسباً حتى وكتبت أليس في بريد إلكتروني تقول:

«في الصباح التالي وعندما صحوت بدأت أشعر بشعور أستطيع وصفه على أنه «نوبة قلق شديد». بدأت بفرك وتنظيف دورة المياه التي استخدمتها، أكلت القليل من طعام الفطور وبدأت بفرك المطبخ. أصبت بالهلع من أن كل شيء لم يكن نظيفا على الوجه المطلوب وأنني سأقع في ورطة مع أمي. اتصلت بأختي وأنا أبكي فقامت بتهدئتي. وصلوا في ذلك المساء وقد كانت أمي في غاية السعادة لرؤيتي. أخبرتها بأنني قد تناولت وجباتي في الخارج، وأنني قد تناولت القليل من طعام الإفطار. ونظفت المكان من ورائي وقمت بفرك دورات المياه. ولم أستطيع التوقف عن البكاء تمامًا كما أفعل الآن خلال كتابتي لهذه السطور».

عندما حدث هذا لم تكن أليس طفلة صغيرة تحت رحمة أمها وعرضه لغضبها غير المتوقع وغير المنطقي. لكن شعور البؤس والعجز والغضب بقي في داخلها مستعدًا للانفجار. إن للقصة نهاية سعيدة تقريبًا فقد قالت لها أمها بأن البيت يبدو جميلاً، وأنه ليس عليها الشعور بالقلق. ثم أضافت أمها «إنني أتفهم قلقك فقد كنت شديدة في هذا الموضوع عندما كنت صغيرة». إن ذكرى هذا الاعتراف ثمينة جدًا لأليس التي فسرت:

«خلال علاقتي مع أمي في الصغر كانت هذه هي المرة الوحيدة التي أرى فيها أمي تتفهم شيئًا ما من وجهة نظري. حتى أنها لمحت كم كانت تصرفاتها في هذا الموضوع مدمرة لي. واستخدمت تعبيرًا لطيفاً يشير إلى أنها قد خرجت عن السيطرة كثيرًا. لقد عنى هذا لي الشيء الكثير، وصدمت من شعوري بأني تمنيت لو أني سمعت كلماتها قبل ذلك بسنين عندما كنت صغيرة، وعندما كنت أحاول مناقشتها في هذه الأمور كانت تنتهي دائمًا بنفيها وبقولها: إنني اختلقت هذه القصص لتسلية طبيبتي النفسية. وبالرغم من أن الوقت قد انتهى لكلينا فقد عنى كلامها لي الشيء الكثير لأنني لطالما شككت في ذكرياتي وفهمي».

في النهاية ربما تكون هذه هي النقطة الحاسمة والحساسة لقوة الوالدين على الطفل. ليس فقط بخلق العالم الذي يعيش فيه الطفل بل بإدارة كيفية الفهم والتعامل مع هذا العالم. وكما هي الإساءة الجسدية للطفل مريعة وسيئة؛ فإن الأسوأ والأكثر تدميرًا هو التشكيك في فهم الطفل وإدراكه. إن قلبي ينفطر عندما أفكر بأليس (ودينا وجيسيكا) وكم عانت هذه الفتيات في الطفولة. لكن حتى بالنسبة لنساء مثلي لم يتعرضن لأي اعتداء جسدي، فإن الرغبة في الحصول على أم تتفهم وجهة نظرك وتعترف بعالمك الذي تعيشين فيه هو رغبة حقيقية ومؤثر جداً.

وأحد جوانب هذه القصة العجيبة أن أليس كانت في نهاية الثلاثينيات عندما حدث هذا، وفي قرابة الستينيات عندما بكت وهي تقص علي القصة.إن علاقتنا بأمهاتنا تستمر حتى بعد انتهاء حياتهن ومهما بلغنا من العمر.

بعد ذهابها

كنت أستمع إلى أختين تتحدثان عن الطرق المؤلمة التي استخدمتها أمهن المتوفاة وكيف أنها لم تتعافَ منها أبدًا، قالت واحدة: «من الأفضل ألا نتكلم بهذا الشكل. فإنها سوف تسمعنا وتغضب». قالت الأخرى: «إنها ميتة». فردت الأخت: «هذا ما تعتقدينه!»

إن موت الأم بالنسبة لكثير من النساء خسارة لا يتعافى منها الإنسان أبدًا.و الكثير منهن عبر بجمل كهذه: «إنني أشتاق لها كل يوم». و«بالرغم من مرور عقد كامل على موت أمي إلا أنني أشعر أنه مات مني جزء ذاك اليوم». وقالت أخرى: «أصعب شيء في طلاقي كان عدم وجود أمي إلى جانبي للتحدث معي». وعلقت أخرى بعد ممات أمها أنها شعرت كما لو أن السماء ملبدة بالغيوم وأنها لن تصفى أبدًا. إن وجود الأمهات الثابت هو شعور مريح بالنسبة لكثير من النساء، وصفت امرأة أمها المتوفاة على أنها ملاك يحميها: «أحياناً عندما يكون سير الأمور سيئاً وصعباً، فأنا أتخيل أنها بجانبي، لأنها كانت الشخص الوحيد الذي اعتمدت عليه... الشخص الذي قلق من أجلي وحماني ووبخني، والذي اعتقد بأني أستحق دائماً الأفضل». والتعليق الأكثر غرابة سمعته من مصورة قالت: «لسنوات طويلة بعد موت أمي وإحراق جثتها، أبقيت علبة صغيرة تحوي رفاتها وكنت أخذ

هذه العلبة إلى كل مكان أذهب إليه». إن امتلاك جزء صغير من أمها أينما ذهبت كان شيئاً ثمينًا للغاية. لأنه يذكرها بالرحلات التي قامت بها مع أمها والوقت الثمين الذي أمضته معها.

بالنسبة لكثير من النساء فإن الإبقاء على أمهاتهن قريبات هو شعور روحي أكثر من حرفي. كانت دونا برازيل المسؤولة عن إدارة حملة آل غور الانتخابية لعام 2000م تجري مقابلة في عام 2004م بعد نشر مذكراتها «الطبخ بالزيت». جرت المقابلة حول حياتها في مجتمع أسود وفقير وكيف أنها تطورت لتشغل أعلى المناصب في الحزب الديمقراطي. طلبت منها الصحفية أن تتحدث عن كيفية تعاملها وتحدثها لمجموعة كبيرة من الصحفيين وأعضاء نادي «الجريديرون» خارج واشنطن. أجابت برازيل: «عندما أشعر بالارتباك والقلق أنظر من حولي في الغرفة وأبحث عن أمي التي توفت في عام 1988م».



8

«أمي سأعود في الحال» كيف استطاع البريد الإلكتروني والماسنجر الفوري أن يغير العلاقات

ولد والدي عام 1908م في وارسو، بولندا. وهاجر عام 1920م للولايات المتحدة الأمريكية برفقة أمه وأخته (كان والده قد توفي وهو في الرابعة من العمر). وكما يخبر والدي فإنه عندما حان وقت إقلاعهم قام جده - الذي عاش والدي في كنفه طيلة حياته - قام باحتضانه وجعله يجلس على ركبتيه، كانت الدموع تجري على خد العجوز ولحيته البيضاء. أيقن العجوز بأنه لن يرى حفيده مرة أخرى، وحتى و إن لم يفقد العجوز حياته في المحرقة فإن رحلة العودة لزيارة بولندا ستكون مكلفة جدًا وخارج نطاق التفكير. ومن تلك اللحظة كانت طريقة تواصلهم الوحيدة من خلال الرسائل التي كان عليها قطع نفس الرحلة الطويلة عبر الأراضي والبحار للوصول خلال شهر أو نحوه. وبالرغم من وجود الهواتف لكن إمكانية استخدامها كانت مستحيلة. كان بإمكاننا إرسال البرقيات إذا كانت الرسالة ضرورية ومهمة لكنها كانت سرية ونادرة جداً.

في عام 1966م تخرجت من الجامعة، وعملت مدة ستة أشهر، وجمعت كل المال الذي جنيته، وسافرت إلى أوروبا بتذكرة ذهاب فقط، وانتهى بي المطاف في اليونان حيث وجدت عملاً لتدريس اللغة الإنجليزية. وخلال رحلتي تواصلت مع والدي من خلال كتابة رسائل جوية، سافرت هذه الرسائل أسرع من الرسائل العادية التي كان يرسلها والدي لجده، بالرغم

من أنها تأخذ أحياناً أسبوعاً إلى أن تصل. والرسائل لم تكن وسيلة الاتصال الوحيدة. فأحياناً كنت أستطيع الذهاب إلى مكتب البريد وأقوم بتعبة استمارة وأنتظر أن ينادى اسمي حيث يكون والدي على الهاتف. أحياناً كنت أنتظر ساعات طويلة حتى يأتي دوري. وذات مرة قالت أمي: «أفعلي معروفاً.. إذا أصبح الوقت بعد منتصف الليل لا تتصلي». يا للكارثة.. لقد كان هذا مؤلماً ومفاجئاً لكني توقعت أنها سوف تفرح بمكالمتي بغض النظر عن الوقت.

وفي عام 1996م ذهبت أختي إلى إسرائيل لمدة سنة. وخلال أسابيع بسيطة كانت قد اشتركت مع شركة إنترنت وتعلمت استخدام البريد الإلكتروني. وخلال مدة بسيطة كان لأختي الثانية وبناتها بريد إلكتروني أيضاً. وخلال شهر واحد كنا جميعًا على اتصال يومي، أكثر بكثير من تواصلنا الأسبوعي عبر الهاتف الذي كان يحدث في الوطن. لم تتعلم أمي أبدًا استعمال البريد الإلكتروني لكن في عام 1998م وفي عمر التسعين تعلم والدي كيفية استخدام البريد الإلكتروني. وأصبح هذا البريد طريقتي الجديدة لإخبار والدي بحبي له بدون جرح مشاعر أمي، وأسهل من كتابة الرسائل العادية والتي كان من المحتوم قراءتها من قبل أمي. إضافة إلى أن البريد الإلكتروني الآن يجعلني أتواصل بسرعة مع أصدقائي في اليونان.

عندما كان والدي طفلاً في وارسو كانت هناك طريقتان للتواصل بين العائلات. الأولى حديث الناس بعضهم إلى بعض، والثانية كتابة رسائل أو مذكرات. (كان هناك هواتف في المحلات التجارية، لكنها نادرة في

البيوت) التواصل وجهًا لوجه كان من أكثر الطرق شيوعًا. وعطل نهاية الأسبوع اقتصرت على زيارة الأقرباء الذين عاشوا دائمًا في الحي نفسه تقريبًا. كتب الناس أيضًا مذكرات صغيرة في بعض الأحيان، فقد كان والدي يتذكر كيف أنه كان يحمل المذكرات الصغيرة بين عمه وصديقته.

تغيرت طرق التواصل بين الناس خلال حياة والدي بسبب العدد الوفير من الآلات التقنية الجديدة. كان في البداية الحوار وجهًا لوجه ثم الهاتف. يتذكر صديقي بيتي بيكير الذي نشأ في قرية صغيرة في ولاية ميتشيغان خلال الثلاثينيات بأن أمه كانت تتحدث إلى والدتها كل يوم عبر الهاتف بالرغم من أنهم يعيشون بالحي نفسه. وقد كان هذا قبل الهواتف التي تعمل آلياً، يقول ساخرًا: «كنت أستطيع أن أرفع السماعة وأتحدث إلى مأمورة الهاتف والتي تدعى مرسيدسس وأسألها: أين أمي الآن؟ وكانت تجيب: إنها في بيت جدتك». واليوم مازال لدينا الرسائل والهواتف لكن أيضًا لدينا جهاز الرد الإلكتروني، والهواتف النقالة، والبريد الإلكتروني والماسنجر الفوري والرسائل النصية في الهواتف النقالة.

أحيانا تستبدل الطريقة القديمة للعمل بأسلوب جديد. مثلا كانت النساء قديما ترسل قصاصات الجرائد أو المقالات إلى البنات لتعبر عن نصيحة أو تعزز من نقطة كانت تدور في حوار ما بينهما، أو فقط للفت نظر ابنتها إلى شيء معين ومهم. واليوم مازالت الأمهات ترسل قصاصات الجرائد، لكن أيضًا تقوم بإرسال المقالات إلى البنات عبر الصفحات الإلكترونية والتي تؤدي الغرض نفسه. وأصبحت البنت الراشدة تفعل الشيء ذاته مع أمها. ومع كل طريقة جديدة للتواصل تتوسع وتتغير أساسات هذا التواصل والعلاقات الاجتماعية وطبيعتها.

هدايا جديدة، مخاطر جديدة

حتى الطرق المتشابهة للتواصل لها قدرات ومعانٍ واسعة ومختلفة في العلاقات. وسأركز على نوعين من أنواع التواصل الإلكتروني البريد الإلكتروني والماسنجر الفوري. لأنهما أكثر الطرق التي سمعت عنها من خلال محادثاتي مع النساء عن التواصل بينهن وبين أمهاتهن. بالرغم من أن كثيراً منهن قد ذكر طرقاً أخرى كالهواتف النقالة والرسائل النصية القصيرة. إلا أن رسالة البريد الإلكتروني هي تماماً كما الرسالة العادية لكنها أسرع. إنها تكتب عندما يكون للكاتب الرغبة والوقت للكتابة، تماماً كما الرسالة. ومن السهولة أيضاً إضافة أجزاء من وثائق أخرى «لصق ملف بالإيميل مثلاً» وبالرغم من أن الرسالة التي في البريد الإلكتروني تصل هدفها تقريبًا في نفس لحظة إرسالها إلا أن هذا لا يعني أن الشخص المتلقي للرسالة سيقرؤها في الحال. ربما تقرأ بعد دقائق من وصولها إذا صادف هذا وجود المتلقي على شبكة الإنترنت، لكن أيضًا ربما تنتظر أيامًا أو أسابيع حتى تفتح.

وتمامًا كما الرسالة، فإن البريد الإلكتروني قد يضل طريقة ويضيع أو أن تنتهي به الحال في العنوان الخاطئ. لكن الأكثر أهمية فإن البريد الإلكتروني هو طريقة تواصل من طرف واحد فقط. فالكاتب يكون وحيدًا عند كتابته للرسالة، ينشئ الأفكار وتسلسلاتها بدون حصوله على أي جواب من الملتقي إلا حين إرساله للرسالة. ولكل هذه الأسباب فإنه ليس عرضًا أن المفردات التي نستخدمها في البريد الإلكتروني هي مؤسسة مجازيًا بناءً على كتابة الرسائل العادية. بداية بالاسم نفسه «بريد إلكتروني» وأيضاً كلمات مثل «فتح وقفل» الرسالة و«القص واللصق» في الرسالة.

الرسائل الفورية أو الماسنجر تبدو مشابهة للبريد الإلكتروني من الخارج فقط. وكالبريد فهي تطبع على شاشة وترسل إلكترونياً، لكنها مختلفة بالأساس، لأن طريقة التواصل تتم عبر طرفين. وخلال هذا فهي تشابه الحوارات العادية التي تدور على الهاتف أو وجهًا لوجهه. إن الرسائل الفورية أو«الماسنجر» تتم عند وجود الطرفين على الإنترنت، وتظهر الرسائل فورًا على الشاشة حال كتابتها. إذًا فكل منهم يتلقى ردة فعل الآخر قبل أن يكون سلسة الأفكار. الرسائل الفورية غالبًا ما تستخدم كما لو أن أحدهم جالس في غرفة يتحدث إلى شخص وكل منهم مشغول بعمل شيء ما ويتجاذبون الحديث في الوقت نفسه. إذا كان الشخصان موجودَيْن على الإنترنت ومتصلين بالماسنجر، فإنهما في حالة تواصل وحوار مفتوح. بغض النظر عما إذا كانا يتبادلان الرسائل بتلك اللحظة. إن شاشة الحاسوب مثل الأرضية للحوار مستعدة لمن له رغبة في قول شيء ما. إن الشباب عادة يتوقعون من أصدقائهم أن يكونوا قريبين من شاشاتهم وموجودين استعدادًا للتفاعل في الرسائل الفورية، إلا إذا تركوا الماسنجر مثبتًا على حالة «في الخارج» معلنين بذلك بأنهم غير موجودين.

من الصعب المغالاة في التأكيد على هذا التغير الجذري في التواصل والذي يستتبع أن تكون صداقة وعلاقة. إن الأفراد الوحيدين في الغرفة لم يعودوا في الحقيقة وحيدين عند وجودهم مع الأصدقاء على الماسنجر الفوري ولم يحددوا حالتهم في حالة «خروج».

طيلة كتابة هذا الكتاب وأنا أحاول توضيح كيف أن الأمهات والبنات يدمجن باستمرار الرغبة في الشعور بالتواصل وبين الرغبة المتزامنة مع الشعور بعدم الإعاقة والتحكم التام في حياتهن. إن التواصل الإلكتروني

يحول من توازن التواصل والتحكم. إن المكالمة الهاتفية هي تواصل لكنها في الوقت نفسه تطفل، والتحكم غير متوازن. فالمتصل يبدأ بالاتصال لكن الشخص المتصل به يستطيع أن يرد أو لا. لكن في كلا الحالتين هو يتفاعل. لكن في البريد الإلكتروني فإن التحكم في التوزيع أكثر تساويًا. فإن الشخص الأول يبدأ بالاتصال لكنه لا يتطفل على حياة الشخص الآخر، حتى يقرر الشخص المتلقي باستقباله. إن الكلمات التي نستخدمها للحديث عن البريد الإلكتروني توضح هذا الاختلاف. فالشخص المتلقي للبريد الإلكتروني لا يستلم البريد ــ تصرف غير فعال ـ لكن يسترجعه وهو تصرف اختياري نتحكم به، حتى وإن أعلن جهاز الحاسوب الخاص بك أنك قد تلقيت بريدًا إلكترونيًا للتو. فالرسالة تصل فقط لأنها مبرمجة على هذا لكن الاختيار مازال ملكك.

إننا لا نتخلى عن طرق التواصل القديمة عند اكتشافنا لطرق جديدة. إننا نختار من كل الطرق المتوفرة ما يناسب سياق حديثنا. تخيل معي ابنة تستخدم هاتفها المتنقل لمكالمة أمها بينما تقوم بقيادة سيارتها للعمل. تترك رسالة لفظية على جهاز الرد الخاص بأمها، وترسل لها بريدًا إلكترونيًا عند وصولها للعمل. وفي المساء إما أن تتكلم مع أمها على الهاتف أو تتبادل الرسائل معها عبر الماسنجر الفوري. بإمكانها كتابة وإرسال رسالة ورقية، لكنها على الأرجح لن تفعل. فسرت امرأة صغيرة في السن سبب استخدامها للبريد الإلكتروني مع أمها وقالت: «أعتقد أنه بإمكاني كتابة «رسائل حلزون» كناية عن الرسائل الورقية القديمة، وسيكون سخيفًا للغاية استخدام رسائل ورقية». إن التعبير «رسائل حلزون» يتعاكس مع البريد الإلكتروني وهذا يوضح سبب استخدامها لكلمة سخيف فإن هذه الرسائل تسافر ببطء شديد.

تستطيع الأمهات والبنات استخدام كل وسائل التواصل التقنية للإنشاء وللتفاوض والتفاعل في التواصل والتحكم وهذا يؤلف من العلاقة بينهما. لنلقي نظرة على كيفية استخدام بعض البنات والأمهات للبريد الإلكتروني والماسنجر الفوري.

أنا أحبك --- أرسل

تستخدم كثير من الأمهات والبنات الهواتف النقالة كوسيلة تواصل في علاقة ممتازة، وكثيرات أيضًا تستخدم البريد الإلكتروني في كثير من الأحيان. إلا أني صادفت الكثير ممن استخدم البريد الإلكتروني يوميًا، فقط ليكونوا على اتصال أو لإطلاع بعضهن على ما يدور في حياتهن. وبالنسبة لبعضهن فإنها وسيلة أخرى لتبادل المعلومات التي من الممكن أن تتم وجهًا لوجهه أو عبر الهاتف. أما بالنسبة لآخرين فإنها وسيلة تواصل و ـ نوع من القرب ـ لم يكن متوفرًا قبل وجود البريد الإلكتروني.

كتبت امرأة في الخمسينات من عمرها ردًا على تساؤلاتي في بريد إلكتروني كنت قد أرسلته لها:

«لقد ازدهرت وتفتحت العلاقة بيني وبين ابنتي بطريقة لم أكن أتوقعها أبدًا. عندما كانت ابنتي في مرحلة الثانوية كانت تتحدث إلي بصعوبة، وعندما ذهبت للجامعة بدأ التغيير، حيث بدأت بالاتصال على الأقل مرتين يوميًا. والآن نستخدم البريد الإلكتروني فيما بيننا باستمرار ونتبادل فيه الأخبار الحلوة والصغيرة... ولا أزعجها أو أتطفل بمكالمة كما كنت أفعل سابقًا... ولم يعد يصحو ابنها الصغير بسبب صوت رنين الهاتف».

أحببت جداً الكلمة التي اختارت هذه المرأة استخدامها «ازدهرت» لتصف تطور علاقتها مع ابنتها.. والشكر للبريد الإلكتروني. إن التغير بدأ عندما ذهبت البنت للجامعة، وبعد المسافة بينهن جعل من الضروري إيجاد وسيلة تواصل جديدة. يقدم الأحفاد إمكانيات جديدة للتواصل والعناية (أو حتى النقد) وبينما تتشارك الآن البنت وأمها (التي أصبحت جدة) حبهن وحرصهن على الأطفال. فإن البريد الإلكتروني يصبح الأرض الخصبة والمثمرة التي تستطيع من خلالها بذرة هذا الحب والحرص أن تنمو وتزدهر. ولأن التحكم هنا موزع بالتساوي فإن الأم حرة في إرسال الرسائل متى أرادت وبالعدد الذي تحب لأن البنت تستطيع التحكم بالوقت الذي تسترد به هذه الرسائل. والابنة أيضا يمكنها إرسال الرسائل وصور الطفل الصغير طيلة اليوم مدركة بأن أمها سوف تسترد هذه الرسائل والصور عندما يكون الوقت مناسبًا لها.

إن الطريقة التي يوفر فيها البريد الإلكتروني التواصل بين طالبة الجامعة وأمها قد فسر من قبل الطالبة «جولي دورتي» التي تدرس في جامعة جورجتاون. وبإجابتها عن سؤالي حول الدور الذي يلعبه التواصل الإلكتروني في علاقة الأم بابنتها قالت جولي: «إن أمي ترسل لي بريدًا إلكترونيًا كل يوم بينما أكون في الجامعة، فقط للسلام والسؤال عني. وهي تعلم أني أحب أن أتلقى الرسائل والبريد منها مما يعني أنه بالتأكيد سيكون هناك رسالة واحدة على الأقل. وصف جولي يوضح كيف أن البريد الإلكتروني يمكنه أن يكون امتدادًا إلكترونيًا للتعبير: «كيف كان يومك؟» وامتداد للألفة التي تقدرها الكثير من النساء. تقول جولي: «إنني قريبة جدًا من أمي، والحديث عما دار في يومي ويومها في غاية الأهمية. وإذا كنا

لا نستطيع الحديث خلال ذاك اليوم (والذي يحدث عندما أكون في الجامعة أو العمل) فإن البريد الإلكتروني ممتاز لأنني أستطيع أن أكتب عما دار في يومي قبل أن أنساه، وبالمقابل هي تكتب عما دار في يومها. كلانا يأخذ فكرة عامة عما دار في يوم الآخر. إننا نحب هذه الطريقة.. كلمات بسيطة.. مزاح ودعابات وأشياء عابرة نشعر أن الشخص الآخر عليه معرفتها».

كل شيء صغير يشعرها بأن الشخص الآخر مهتم بالتفاصيل التافهة لحياتها يجعل جولي «وأمها» تعلم أنها ليست وحيدة في حياتها، حتى وإن كانت الاثنتان تعيشان في مدينتين مختلفتين حياة مختلفة.

يستطيع البريد الإلكتروني أن يخلق القرب بين الأم وابنتها بتعزيز أوجه الشبه بينهما وهو عنصر آخر تكلمت عنه الكثير من النساء عند تعريفهم للقرب. تقول جولي: «لقد جعلني البريد الإلكتروني أدرك مدى التشابه بيني وبين أمي. إننا نكتب بالطريقة نفسها ونتشارك بالحس الفكاهي نفسه و طريقة مزاحنا وهزلنا واحدة ومفهومة لكلينا، حتى أنني أدرك من قراءتي لكلماتها متى تكون ساخرة ومازحة ومتى تكون جدية. لقد كان تعبيرها فصيحاً للغاية عند وصفها بأنهما يتشاركان بنفس الحس الفكاهي، نظراً للطبيعة ذات المعنى الخفي والموجز للتواصل عبر البريد الإلكتروني. لذا فإن المعنى الخفي أو ـ ما وراء الرسالة ـ للقرب والألفة والذي ينشأ بسماع الشخص لدعابة يزيد ويقوى عند تحول هذه الدعابة إلى بريد إلكتروني. ولهذا ربما يكون السبب وراء النسبة العالية للبريد الإلكتروني الذي يدور حول العالم والذي يتكون من نكات ودعابات فقط. وقد قالت لي العديد من النساء بأن الهاتف هو الطريقة الرئيسة للتواصل بينهن و بين أمهاتهن، لكن النكات والدعابات ترسل عبر البريد الإلكتروني.

وهناك طريقة أخرى تجعل البريد الإلكتروني يزيد ويقوي من العلاقة والتواصل بين الأم وابنتها عندما تكون البنت بعيدة وفي الجامعة. تقول امرأة إنها أصبحت قريبة من أمها أكثر عند ذهابها إلى الجامعة. ومن الممكن أن يبدو هذا مفاجئًا. فكيف يمكن للبعد والسفر أن يجعلك قريبة؟ والإجابة كانت الرسائل. فبتبادل الرسائل أسبوعيًا بدأت الأم وابنتها بالتعرف على بعضهما بطريقة لم تعهداها من قبل. ولم تكن لتجربها لو أن التواصل كان وجهًا لوجه كما في الماضي.

إن طبيعة الرسائل العادية صعبة وحاسمة، فكل منهما عليه كتابة ما يدور برأسه وكان على الأخرى الإصغاء. كم من الأمهات ـ خلال حياتهن المزحومة ـ تخصص وقتًا للجلوس والاستماع لابنتها تتكلم عن حياتها لحد معين وبفراغ تام؟ إن كتابة الرسائل سمحت لكل منهما بإظهار نفسها بطرق جديدة. البريد الإلكتروني وفر حدوث ذلك.

ميزة أخرى للبريد الإلكتروني هي أنها تسمح لكل طفل باستخدامه بالتساوي. بينما التواصل وجهًا لوجه يعطي الأفضلية فقط للأطفال كثيري الكلام. إنه توفير طريقة إلى داخل الحوار ثمين للغاية خصوصًا للبنت التي تعيش تحت ظلال الإخوة الذكور. (علقت امرأة أنه عندما ذهب ولدها للجامعة اكتشفت أن ابنتها تستطيع الكلام).

وبواسطة البريد الإلكتروني فإن الأمهات والبنات يستطعن مد الألفة بينهن لمدة طويلة حتى بعد تخرج البنت من الجامعة. وربما أكثر المقابلات إثارة و التي أجريتها لهذا الكتاب كانت تجربة مع امرأة صماء. كانت أم أماندا تتمتع بسمع جيد في وقت ولادة أماندا ونشأتها، وكانت خبيرة في

تعليم الصم. اعتقدت أم أماندا أن على الأطفال الصم تعلم كيفية قراءة الشفاه. (قد اكتشف لاحقًا بأن هذا مستحيلٌ إلا على بعض الأطفال). وقد نصح الخبراء الآباء بألا يعلموا أولادهم لغة الصم والتي هي الطريقة الوحيدة للتواصل بينهم وبين أولاهم الصم. حيث شرح الخبراء محذرين بأن هذه اللغة سوف تعيق الأطفال عن تعلم الكلام. وقد اتبعت أم أماندا نصيحة الخبراء هذه. وكنتيجة لهذا لم تستطع أماندا أن تتواصل مع أمها طيلة مدة طفولتها. وعندما ذهبت للجامعة بدأت بتبادل الرسائل مع أمها. وفقط عندها بدأت بالشعور بأنها قريبة منها وبأنها أصبحت تعرفها الآن. وكثير من الأمهات و بناتهن استمرت أماندا وأمها في تبادل الرسائل من خلال البريد الإلكتروني. وفي الحقيقة لقد وفر البريد الإلكتروني للأم وابنتها لغة يستطعن التواصل من خلالها.

اجتماع عائلي فعلي

عندما يكون للبنات أولاد فإن العلاقة بين الأحفاد والأجداد من الممكن أن تخلق جوًا عائليًا كبيرًا وغنيًا. هناك عامل مشترك يستمتع به الآباء والأجداد وهو الكلمات المميزة والمفاجئة والمسلية التي يقولها الصغار أحيانًا أو يفعلوها. وبواسطة البريد الإلكتروني استطاعت الأمهات الصغيرات السن بالتشارك بهذه الأمثلة من الحوادث العرضية المميزة والتي تتضمن أطفالهن، وتوسيع هذه الأمثلة إلى قصص مسلية.

وهنا سأعطي مثالاً من بريد إلكتروني يدور بين أم صغيرة تدعى إلين ووالديها حتى أبين كيف قامت بسرد تصرف ولدها المهرج الذي يبلغ من

العمر سنتين بطريقة بارعة وحولته إلى قصة، وأيضا للمقارنة بين رد أمها ورد والدها:

«لقد انتهت أيام سجن بوبي. لقد وضعته في سريره الليلة في الثامنة مساءً. كنت وإميلي (ابنتي الكبرى) جالستين على الكنبة نبحث عن صور للحيوانات في القاموس. سمعت صوت حاجز السرير يتحرك في غرفة الأولاد وتوقعت ما يحدث. وبالفعل بعد ثوان قليلة خرج علينا بوب يخطو بخطوات واسعة مباعدًا بين رجليه. قال وقد فقد حفاضته بطريقة ما: «أمي.. لي بلت في السرير». وكان يقصد: أنا تبولت في السرير، سمحت له بأن يجلس معي ومع أخته إميلي. وبعد ذلك عندما وضعته في السرير بدأ يفسر لي تصرفه وقال: «لي أبكي أمي». يعني أنا كنت أبكي في السرير. وسألته لماذا كان يبكي فقال: «لا أريد سريرًا» يعني لم أكن أريد الذهاب للسرير والنوم. من المؤكد بأنه سوف يجلس في سريره لو أن أخته إميلي تنام في الوقت نفسه لكن هذا ليس من العدل لإميلي. ماذا علي أن أفعل؟»

أجاب الوالد على هذا البريد بالآتي: «كمتهم بالجريمة لا أعرف ماذا أقول غير: ممتاز يا بوبي وإلى الأمام... لم أستطع القيام بهذا في أيامي ومع سريري ذي الحاجز الحديدي».

وردت ابنته قائلة: «لقد توقعت أن تأخذ صف بوبي بدلاً من صفي في هذا العراك». ثم استمرت ووضحت كيف أنها شاركت والدها في وجهة نظره فقالت: «حتى عندما أكون محبطة من تصرفاته فهو جذاب ومبهج للغاية. دخوله لغرفة المعيشة بالأمس وهو منتصرٌ مباعدًا بين رجليه كان ظريفًا جدًا. لقد بدا وهو راض عن نفسه».

ردت أم إيلين على البريد نفسه بالآتي: «أوه يا إلهي.. يا لها من معضلة. هل يمكنك تحديد وقت واحد لنوم الاثنين معا؟ أعرف أن الموضوع شاق عليك، لكن القصة كانت لطيفة للغاية».

كلا الجوابين من الوالدين كانا ينبعان بالحب، وكلاهما مناسب ومقدر، لكنهما أيضًا مختلفان. قد وضع الوالد المرح نفسه في منافسة مع بوبي ذي السنتين، وأعلن أن الطفل هو الفائز. كانت هذه طريقة لطيفة لقول الشيء نفسه الذي تحدثت عنه المرأتان، وهو أن ما حققه الصغير بتسلقه وخروجه من السرير كان مثيرًا للإعجاب نظرًا لسنه. لكن الأم أيضا أبدت تفهمها لتجربة إيلين «أنا أعرف أن الموضوع شاق عليك.» وقدمت اقتراحاً: «هل يمكنك تحديد وقت واحد لنوم الاثنين معا؟» كل والد كان له المقدرة على التعبير وخلق نوع من التجاوب بدا طبيعيًا لأن البريد الإلكتروني يوفر أرضًا للحوار بدون أن يقاطع. بينما الاتجاه الذي يأخذه حوار الوجه لوجه أو حوار الهاتف غالبًا ما يشكل من تحدث شخص واحد.

تستمتع إيلين وأمها بعلاقة رائعة. وتبادل البريد الإلكتروني يلعب دورًا في هذا. (وعلاقتها مع والدها رائعة أيضاً) بالرغم من أنها تتحدث إلى والدتها على الهاتف كل أسبوعين أو ثلاثة فإن إيلين تستطيع استخدام البريد الإلكتروني لتخبر أمها عن أشياء حدثت للتو مع صغيرها. وشكرًا للبريد فإن إيلين تستطيع إخبار كلٍّ من والديها في الوقت نفسه. هذا فقط لا يوفر من وقتها ولكن أيضًا يقوي ويعزز من الشعور العائلي فيما بينها وبين والديها وأطفالها. ربما تقول بأن إرسال الرسالة نفسها لكلا الوالدين يدل على رسالة خفية للألفة والوئام.

إن المقدرة على إرسال الرسالة ذاتها لكلا الوالدين هي مهمة وثمينة بالتحديد عندما تكون مسؤولية الكلام معهم غير مفروضة. وهذا كانت الحال مع «ماجي». ماجي كانت امرأة صغيرة في السن انفصل والداها، وتزوج والدها بعد مدة ورزق بطفل من زوجته الثانية. كانت ماجي تواجه قراراً صعباً في حياتها وقد انتهت من دراستها للقانون. وقد كانت متحيرة فيما إذا كانت تريد أن تختار مهنه في مجال القانون أم لا. وقد كانت تفكر في العمل لدى شركة أخرى وبهذا شرحت لي ماجي هدية البريد الإلكتروني المميزة:

«لقد كنت متحيرة للغاية من هذا القرار، وأعتقد أن هذا النوع من الحوارات يلزم الحديث مع كلا الوالدين معاً. خصوصًا بعد أن أنفقت الوقت الكثير والمال الكثير في الحصول على شهادة قانون. أرسلت بريدًا إلكترونيًا لأمي وأبي متسائلة ما إذا كنت سأخيب أملهم أذا أصبحت فقط مجرد مدرسة ابتدائي في مدرسة قريبة في حيي. وأجاب الاثنان (بشكل منفصل) أنهما «بالتأكيد سيحباني ويدعمان قراري مهما كان، وأن علي اتباع ما يريده قلبي». لقد ارتحت عندما كان رَدُّهُمَا لرسالتي واحدًا. وأعتقد أني شعرت بأن هذا مميز، لأني لا أملك أي ذكرى لوالديّ وهما متزوجان. وأيضًا ليس لدي أي ذكرى لتحادثنا نحن الثلاثة معاً وبمفردنا، فأما وجود أختي أو أختي من أبي أو زوجة أبي أو أي أحد آخر. لذا فأنا أشعر بأن البريد الإلكتروني سمح لنا نحن الثلاثة بطريقة ما بأن نتشارك في حوار. وهذا كان مهماً لي لأني كنت غير مرتاحة ومشككة في مستقبلي».

إن ماجي محظوظة لأنها تحظى بوالدين مساندين، وما عبر عنه الوالدان في جوابهم «بالتأكيد سيحباني ويدعمان قراري مهما كان» سيكون ردًا ثمينًا

لأي طفل في أي عمر. لكن البريد الإلكتروني وفر لماجي شيئًا مستحيلاً حصوله، وهو اجتماع عائلي فعلي ثمين جداً نظراً لانفصال والديها.

لغة لنا وحدنا

لِنَعُدْ قليلاً إلى جولي دورتي، والتي تبادلت الحديث العابر مع والدتها عبر البريد الإلكتروني وأخبرتها عن تفاصيل يومها. ولتفسير سبب إرسال أمها لعدة رسائل علقت جولي: «أعتقد أن السبب الآخر الذي يجعلها تراسلني على نحو دائم هو لأني قد علمتها قريبًا كيف تستعمل البريد الإلكتروني والماسنجر الفوري، لذا فهي تحب أن تتمرن». ومن خلال تعلمها لاستخدام البريد الإلكتروني والماسنجر الفوري تعلمت أم جولي لغة ابنتها. وهذا وحده يرسل رسالة خفية تتضمن الحب والألفة.

في بداية استخدام البريد الإلكتروني كثير منا اعتبره شيئًا خاصًا، وعندما بدأت باستخدام البريد الإلكتروني في عام 1980م لم تكن هذه الطريقة مستخدمة على نطاق واسع، وقد استخدمته مع عدد قليل من الأصدقاء في العمل. وحتى بعد سنين لم يكن الاستخدام كثيراً لكن في عام 1993م عدت إلى الجامعة التي كنت أدرس فيها وقد ارتعبت من حقيقة أن كل من في الجامعة كان يستخدم البريد الإلكتروني لتبادل الرسائل، والأسوأ أنه بدأ يستخدم للمعاملات التجارية. لقد شعرت بالغزو تماماً، كما لو أن أحدهم قد دخل إلى بيتي. لا أعتقد أني قد تعديت ذاك الشعور بعد الرضا، وأن الشيء الذي كان في غاية الخصوصية أصبح يستخدم في المعاملات التجارية.

حتى الآن - ومع أن البريد الإلكتروني يستخدم في كل مكان - فإنه مازال من الممكن أن يكون مجالاً خاصاً جداً يعزز من خلاله المتراسلين

ألفتهـم وحبهـم لبعض من خلال لغتهـم الخاصة. مثلاً كانـت الأم وابنتها تتراسـلان دائماً بالبريـد الإلكـتروني، وكلتاهما صمـاء، وتستخدمان لغة الإشارة. وتماماً كالكثيريـن فإنهما تقدران طريقة التواصل بهذه الطريقة، لكـن بالنسبـة لهما فـإن البريد له بعد خاصـ. لأن لغة الإشـارة تشكل عن طريقـة استخـدام الأشكال باليـد، فإن هذه اللغـة لا يمكن كتابتهـا باللغة الإنجليزية. لذا عندما تكتب هـذه الأم والبنت البريد الإلكتروني لبعضهما فإنهما تستخدمان الكلمات الإنجليزية المكتوبة بدلاً من كلمات لغة الإشارة، وتقـوم الأم وابنتهـا بدمـج هذه الكلمات مـع جمل من لغة الإشـارة. فتكون النتيجة خليط من اللغتين معًا. وزيادة على الكتابة باللغة الإنجليزية العادية فإن هذه اللغة الخاصة فيما بينهما تعزز وتقوي القرب والتواصل بينهم.

أي شخصين يستطيعان ابتكار لغة خاصة بهما. وكثير من الأفراد القريبين من بعضهم لديهم بالفعل لغة خاصة. (وهذا السبب وراء الألم عند انتهاء علاقة رومانسية: فإنك تجد نفسك وحيدًا مع مجموعة من الكلمات التي لا تستطيع استخدامها مع أحد لأنه ليس هناك من يفهمك). واحدة من تلميذاتي وتدعى ماديلان ماكجرين تتشارك أيضًا بلغة خاصة مع أمها لكنها فريدة من نوعها. وخلال واجب دراسي قامت ماديلان بتحليل حوارات متبادلة بينها وبين أمها تظهر فيه لغتهن الخاصة. توضح الحوارات أيضاً كيف أن الأمهات والبنات تستخدم أمزجة مختلفة للتواصل حتى تحصل على التوازن بين القرب والحكم.

كتبت ماديلان تقول إنها وقد أصبحت في العشرينيات من عمرها فإن علاقتها مع أمها قد تحولت إلى صداقة، لكنها مازالت تشعر أن أمها «ترغب في توجيهها والتحكم بها» وتحدد ماديلان كلمات كهذه: «تقول لي

ماذا علي فعله وما إن كنت قد تصرفت بشكل خاطئ. وتحاول إعطائي النصائح». علقت ماديلان ساخرة: «وهذا بالطبع يدفعني للجنون».

ساعدت لغتهم الخاصة في حل هذه المعضلة. قالت ماديلان عندما تستخدم أمها اللغة الخاصة بهم في قول شيء، يكون في الأصل مزعجًا جدًا، فإن مادلاين لا تستطيع إلا الضحك، لأن لغتهم الخاصة مضحكة للغاية، إنها أشبه بلغة الأطفال. كما لو أن ماديلان ليست ابنتها فقط ولكن طفلتها الصغيرة. هذه اللغة تظهر كيف أنها وأمها تدركان كم هو سخيف أن تعامل ماديلان كطفلة. وفي الوقت نفسه فإن الحديث بهذا الشكل حتى أثناء السخرية يذكرهم بالألفة والقرب في علاقتهما. إن اللعب بالألفاظ والكلمات يمكّن الأم أيضًا من تمرير الكلمات السلبية لكن بطريقة مضحكة. وبهذا تكون الأم قد استخدمت حق الأمومة في توبيخ طفلها.

نسيج التواصل

الطريقة التي تحركت بها ماديلان وأمها بين استخدام الهاتف والبريد الإلكتروني عادية بين أفراد العائلة، وتظهر كيف يمزج الأفراد بين وسائل الاتصال الحديثة والقديمة لصنع نسيج للتواصل.

تستخدم امرأة بريطانية تدعى أليسون تعيش في الولايات المتحدة الهاتف والبريد ورسائل الهاتف النقال للتواصل مع أمها التي تعيش في لندن. وهنا مثال لكيفية جمعهم لأساليب عديدة للتفاوض وحل مشكلة اشتعلت عندما اعترضت أليسون على عمل قامت به أمها.

انزعجت أليسون عندما علمت أن أمها كانت قد شاركت في مسيرة في لندن تستنكر قانون منع صيد الثعالب. عبرت أليسون عن استيائها لأمها

عبر الهاتف، وذكرتها بأنها كانت دائماً ضد أي عدوانية على الكائنات والحيوانات. وأنها من المؤكد قد وقعت تحت سطوة زوجها وتأثيره. وأنها كانت دائماً تؤيد المنع ولا تؤيد هذه الرياضة الدموية.

لم تقدم أمها أية طريقة دفاع معينة خلال المكالمة الهاتفية لكنها قامت بكتابة بريد إلكتروني تدافع به عن قرارها بالمشاركة بالمسيرة، وتبين لابنتها أنها قد أخطأت فهمها. وقبل أن تجاوب قامت أليسون بالبحث عبر الإنترنت ثم قامت بإرسال المعلومات لأمها والتي تدعم نظرتها السلبية للمسيرة، ما أهداف المسيرة؟ وما المؤسسات التي تدعمها في الخفاء؟ ثم حلت الأم وابنتها المشكلة عبر الهاتف حيث شرحت الأم أنه لم يكن لديها الصورة الكاملة عن المسيرة لكنها دافعت عن حقها في المشاركة بالمسيرة بدون أن تتعرض لحكم ابنتها الناقد. وهو حق قد اعترفت به أليسون وأقرت أيضاً.

بالرغم من أنه كان يمكن لاليسون وأمها استخدام طريقة تواصل واحدة لحل المشكلة، إلا أن استخدام عدة وسائل مكّن كلاً منهما من شرح وجهة نظرها بطريقة أفضل. بعد أن قدمت أليسون اعتراضها عبر الهاتف استطاعت الأم استرجاع أفكارها وكتابة بريد ردًا على ابنتها. بعد ذلك استخدمت أليسون الإنترنت كأداة لتقوية حجتها، واستخدمت البريد الإلكتروني لإرسال هذه المعلومات. ولو أن أليسون لم يكن لديها فرصة البحث على الإنترنت وإمكانية كتابة بريد الكتروني فلن يكون لديها الحجة القوية والكافية للفوز بقضيتها.

لم تستخدم أليسون وأمها رسائل الهاتف النقال في حل هذه المشكلة لأن المعلومات التي استعملت طويلة جدًا، وهي طريقة تستخدم في مجال

آخر مثل إرسال رسائل عند السفر وعندما تود واحدة منهما معرفة مكان الأخرى، وماذا تفعل؟ وما إذا كانت في مكان آمن أم لا؟.

ومن جهة أخرى تفاجأت أليسون باستخدام أمها للبريد الإلكتروني لنقل معلومات مهمة، لكن من السهل رؤية السبب الذي جعل أمها تفضله. أليسون اعتقدت أن أمها وافقت على الانتقال إلى الولايات المتحدة مؤقتاً لتقضي وقتاً أكبر مع ابنتها وطفلها الجديد، بما أن زوجها قد وافق على الانتقال معها مؤقتاً. لكن عندما وجدت أليسون بيتاً جديداً وقد عزمت نيتها على شرائه لكن في اللحظة الأخيرة قامت أمها بإعلامها عبر البريد الإلكتروني بأنها قد غيرت رأيها. أليسون تعتقد بأن الحديث عن معلومات مهمة كهذه من المفروض أن تتم عبر الهاتف على الأقل إن لم يكن وجهاً لوجه. لكن فسرت أمها أنه كان من الفظيع رفض عرض ابنتها الكريم للعيش معها، وقد شعرت بالإحراج من الحديث معها عبر الهاتف. ومن الصعب تخييب أمل شخص قريب وحبيب. والبريد الإلكتروني هنا يعمل عمل السحر، فليس عليك سماع خيبة الأمل والنقاش في صوت هذا القريب.

كتبت تلميذتي كاثرين آن هاريسون عن ماسنجر فوري دار بينها وبين أمها والذي ظهر من خلاله كيف تستخدم النساء أشكال التواصل المختلفة للحصول على التوازن بين التحكم والتواصل. وهكذا بدأ: كانت كاثرين تعمل على بحثها في ساعات الصباح الباكر، عندما قامت أمها بالتسجيل على الماسنجر الفوري. ولاحظت أن ابنتها موجودة على الإنترنت وبهذا افترضت أنها تستطيع الحديث معها. حيتها قائلة: «مرحبًا كايت! ماذا

تفعلين في هذا الوقت الباكر؟» أخبرتها كاثرين بأنها كانت تراجع ورقة بحث وأن عليها تسليمها للمدرسة قريباً. وزادت بالتعليق: «أنا تعبة للغاية، لكن كل شيء سيتم بطريقة جيدة». وكانت هذه الكلمات كما صوت البوق القوي للأم التي تحاول حماية ابنتها فقالت: «حسناً هذا لا يبدو جيدًا. هل نمت الليلة على الإطلاق؟ لماذا أنت مستيقظة. هل بقيت يقظة طيلة الليل؟ لا أريدك أن تمرضي». وبهذا توقفت كاثرين عن إعطاء المعلومات وانتقلت إلى إعادة التأكيد فقالت: «لا لا يا أمي لا تقلقي. كل شيء على ما يرام». استخدمت هذا أسلوب لاسترضاء أمها «حتى تتوقف عن طرح الأسئلة المزعجة». ولتظهر لأمها بأنها لا تود أن تعاملها كطفلة، وأنها تستطيع الاعتناء بنفسها.

تغير موضوع الحوار بينهما لكنه عاد إلى الموضوع الأول وقالت أمها: «هل أنت على ما يرام؟ تبدين محبطة قليلاً. هل تريديني أن أتصل بك؟» ومن الواضح أنها اعتبرت أن المكالمة الهاتفية ستكون طريقة مناسبة أكثر لتقديم المساندة لابنتها. رفضت كاثرين عرض أمها بسرعة وقالت: «لا لا أنا بخير». لكنها عادت وقالت: «أنا أريد التحدث إليك حقاً، لكني أريد الانتهاء من مراجعة هذا البحث قبل أن يتوقف عقلي عن العمل». وبالطبع تجاوبت الأم مع هذا الرد بنفس روح الأمومة السابقة وقالت: «يتوقف عقلك عن العمل!!! كاثرين هذا لا يبدو جيدًا، متى عليك تسليم البحث؟ كان عليك الانتهاء من هذا قبل وقت طويل. إن هذا لا يعجبني على الإطلاق.» ثم أجابت كاثرين: «أوه يا أمي .. سأعود في الحال». (هنا يرمز لهذه الجملة باللغة الإنجليزية بثلاث أحرف خلال الحديث عبر والماسنجر وهي وجه آخر للتواصل الإلكتروني عبر الأجيال. وهنا قالت الأم: «ماذا يعني هذا؟» Brb وهنا يقع وجه آخر للتواصل الإلكتروني عبر الأجيال.

Brb

جسر فوق الفجوة التي تفصل ما بين الأجيال

عندما تتواصل البنت الجامعية مع أمها من خلال البريد الإلكتروني والماسنجر الفوري فإن البنت عادة ما تكون أكثر راحة وأكثر خبرة في استخدام هذه الوسائل من أمها. بل في الحقيقة إن البنت غالباً كما حدث مع جولي دورتي هي من يعلم أمها استخدام البريد والماسنجر. إن التواصل الإلكتروني هو جزء مكمل في حياة معظم الشباب، بل هو جزء من نشأة ونمو معظمهم. لقد بدأ آباؤهم باستخدامه في منتصف العمر ـ هذا إن استخدموه على الإطلاق ـ حيث من الصعب عليهم تعلم أشياء وعادات جديدة. إن تبادل الرسائل عبر البريد والماسنجر الفوري هو بحد ذاته طريقة لبناء الجسور بين الأجيال المفصولة. والاختلاف في الاعتياد على وسائل التواصل هو تذكير دائم باختلاف وجهات النظر والتجارب بين الأجيال.

وتماماً كما على الأم تعليم صغيرها الطريقة المناسبة للرد على الهاتف فإن الشباب عليهم تعليم آبائهم كيفية استخدام البريد الإلكتروني والماسنجر الفوري. لذا فعندما طبعت كاثرين جملة «سأعود حالا» ـ مستخدمة الثلاث حروف الإنجليزية كان على الأم سؤالها «ماذا تعني هذه الحروف؟» وبعد تسع دقائق تقريبا عادت كاثرين لشاشة الحاسوب وقالت: «حسنا لقد عدت... أرأيت لم يأخذ الموضوع حتى عشر دقائق. لقد انتهيت. والحروف اختصار سريع، وتعني سأعود حالاً».

وبمـا أن السرعـة وعدم الرسمية مـن صفات الماسنجـر الفوري، فإن الماسنجـر أصبـح لغة ثانيـة بالنسبـة للشباب، حيـث استطاعـوا تطوير اختصارات لجمل كاملة مثل:

Lol . IC . TTYL . J/K

وحقيقـة أن كاثريـن عليها تعليـم أمها هـذه العادات مسـاواةً لتوازن القـوة فيمـا بينهـم، حيث ليس للأم الخـبرة الواسعـة في هـذا المجال، بالرغم من سنهـا وخبرات حياتها. إنها ليست عـادات الماسنجر والبريد الإلكـتروني تحديـدًا التي تفصل بين الجيلين، إن اختـلاف التقنية يوضح العالمـين المختلفين للجيلين والتي يشار إليها من خلال هذه العادات. ويأتي مـع كل عـالم الفروق الخاصة بـه حول ما هو مناسب فعلـه في لحظة فهم هـذه التلميحات والإشـارات. وقد وقعت امرأة صغيرة تدعـى أليكساندرا في مشكلـة بسبب سـوء الفهم والـذي نشأ من اختلافات كهـذه. كثير من النـاس يرفقـون توقيعًـا أو اقتباسًا يضاف لـكل بريد إلكـتروني بطريقة تلقائيـة. انزعجت أم اليكساندرا من توقيع ابنتها الذي كان: «عندما تكون بجانبي أنام بالطول، وعندما لا تكون بجانبي أنام بالعرض». وقد كتبت لها بريـدًا إلكترونياً تطلب منها تغيـير توقيعها لأنه غير مناسب. وقد اختارت أليكساندار الماسنجر الفـوري للرد ولحل هذه المشكلة. وقد سألت أمها ما المشكلـة في ذلـك وبعد بضعة رسائـل متبادلة أصبح مـن الواضح أن أمها اعتقدت أن أليكساندرا كانت قد كتبت هذا التوقيع بنفسها.

موضحـة بذلـك تفاصيل خاصـة جدًا عـن حياتها. لكـن في الحقيقة كان التوقيـع اقتباساً من كلمات لأغنيـة لفرقة غنائية تدعى فيش. وتتكون

الأغنية من تكرار هذه الجملتين مراراً وتكراراً. وقد استخدمت أليكساندرا هــذه الجمل فقط لتشــير إلى الأغنية التي أحبتها و أصدقاؤها. إن مصدر هــذه الجمل والسبــب الذي جعل أليكسانــدرا تستخدمها واضــح جداً لها ولأصدقائها، لكنه مبهم وعويص بالنسبة لأمها. واعتقدت أليكساندرا أنه بما أنه حلت سوء التفاهم ووضحت الأمر لأمها فإنها تستطيع ترك التوقيع. وبالرغم من أن أمها ارتاحت حال معرفتها أن الجمل كانت اقتباسات من أغنيــة لكنها مازالت تعتبره غير مناســب بما أنه يسمح للآخرين بارتكاب خطأ الأم نفسه. انتبهت أليكساندرا إلى تحذير أمها وغيرت توقيعها.

لقد نشأ الخلاف بين أليكساندرا وأمها وتم حله من خلال التواصل الإلكتروني، وأحيانا يكون البريد الإلكتروني مفيدًا في حل الخلافات بغض النظر عن أصل نشأتها. لِنَعُدْ قليلاً إلى قصة ليا في الفصل الثالث. طلبت ليا من ابنتها آيرين عدة مرات أن تساعدها في مرافقة جدتها من ولاية فلوريدا إلى الاجتماع العائلي في ميلواكي. وبالرغم من أن ليا قالت لابنتها بالحرف: «لا أريد أن تشعري بالذنب. أنا فقط أطلب». فأجابت آيرين: «من الواضح أني لا أشعر بالذنب لأنك تستمرين في سؤالي» هنا لعب البريد الإلكتروني دوراً مهماً في حل هذه المشكلة. أرسلت ليا بريداً لابنتها تعتذر فيه، وتعترف أن إعادة الطلب والسؤال ثلاث مرات كان خاطئا. وأنها قد نسيت كم مرة قد طلبت منها ذلك، والسبب يرجع إلى سنها وحالتها الصحية وهو السبب الأول الذي جعلها تطلب مساعدة ابنتها بدلاً من مرافقتها لأمها في ثلاث رحلات جوية طويلة. وبالمقابل قامت آيرين بالرد على أمها وشكرها. كان من الممكن أن يدور هذا الحوار بين ليا وآيرين وجهاً لوجه أو على الهاتف، لكن استخدامها للبريد الإلكتروني لم يكن من

محض الصدفة. فإنه على الأرجح من الأسهل على ليا الاعتذار والاعتراف بالخطأ عبر البريد الإلكتروني بدلاً من المواجهة أو استخدام الهاتف.

ومن السهل لكثير من الناس الغضب وفقدان السيطرة دفاعًا عن أنفسهم عندما يتم اتهامهم من قبل آخرين. وهم على الأرجح سيرون وجهة نظر الطرف الآخر بعد أن يأخذوا وقتًا للنقاهة من المفاجأة والألم. والكثير أيضًا يصعب عليهم الاعتذار والاعتراف بالخطأ، لأن هذا يعرضهم للإحراج. وهنا يقلل البريد الإلكتروني من حدوث هذه الأمور، فعندما تكون جالسًا وحدك أمام شاشة الحاسوب فإن فرصة تعرضك للإحراج أقل. والأهم من هذا أن البريد يسمح للكاتب بأن يرتب من أفكاره ويقدمها بطريقة يشعر بأنها تعبر تمامًا عن أفكاره، ومن ثم تساعده في تبرير وجهة نظره.

في هذه الأمثلة استخدمت الأمهات والبنات أساليب إلكترونية جديدة للتواصل، وهناك الكثير ممن يتواصلون بأسلوب أقدم وهو الهاتف. تفضل بعض الأمهات والبنات استخدام الهاتف والغالب هن الأمهات. واختلاف هذه العادات في استخدام وسائل الاتصال من الممكن أن يحدث تضاربًا في الفهم بين الثقافات ـ أو تضاربًا في الأجيال.

وهنا مثال من تلميذة تدعى لورا بالمار، لورا تقارن بين مكالمتها الهاتفية مع أمها وبين حوارها مع أختها عبر الماسنجر الفوري. تقول لورا:

كُلٌّ من والديَّ يتصلان في يوم الأحد عند عودتهما من مباراة الجولف التي يشاركان بها دائمًا. وبما أنني من النادر ما أصحو قبل الظهيرة فأنا عادة أتلقى رسائلهم على جهاز البريد الصوتي الخاص بي. وأقوم

بتدوين مذكرة صغيرة حتى أتذكر مكالمتهم عند وقت فراغي. ولهذا فإنني عادة لا أرد على مكالمتهم إلا بعد ظهر يوم الاثنين. وبالمقابل فإني دائمًا على اتصال مع أخواتي سارة وليندسي. أنا وسارة ندرس معًا في جامعة جورج تاون، لذا فنحن دائمًا نرى بعضنا، لكن ليندسي مازالت تعيش في البيت مع والدي في كاليفورنيا ولا نتحدث على الهاتف أبدًا. لقد سمح لنا الماسنجر الفوري بأن نبقى على قرب دائماً، لكني أسمع صوتها من فترة لأخرى عندما أتصل ببيت والدي لأتكلم معهما.

والسبب في أن لورا استطاعت البقاء قريبة وعلى اتصال من أختها أكثر من قربها من والديها هو اختلاف طرق التقنية المستخدمة.تقول:

إنه من الأسهل علي الحديث مع أخواتي لأنني دائمة الحضور على الإنترنت، فأنا دائمًا أكتب الأوراق أو أقوم بتفحص بريدي الإلكتروني. وبالمقابل فإنني عندما أود الحديث مع والدي علي أن أتحرر من جميع مسؤولياتي حتى أجلس على الهاتف. وبسبب الطبيعة المفتوحة للماسنجر الفوري فإن لورا تستطيع الحديث مع أخواتها بينما تقوم بعملها المدرسي، وليس عليها تحديد وقت معين للحديث كما الهاتف. لكن ماذا يفهم والدا لورا من طبيعة قربها وتواصلها مع أختها وابتعادها عنهم؟ توضح لورا أن والديها يتساءلان كيف يكون لديها الوقت للحديث إلى أختها ولا يكون لديها الوقت للحديث إليهم. واستنتاج والديها يبدو منطقيًا تمامًا حتى بالنسبة لي. لكن الأشخاص الذين لم ينشؤوا مع الاستخدام الكثير للتواصل الإلكتروني يعتقدون أنه إذا كان لديك الوقت للجلوس على شاشة الحاسوب وتجري حوارًا على الماسنجر فإنه بالتأكيد لديك الوقت لإجراء مكالمة هاتفية. وعادة لا نبقي على شاشة الماسنجر مفتوحة في أثناء قيامنا

بعمل شيء آخر كما يفعل صغار السن. والشك الذي يشعر به الآباء هو لمحة لتضارب الفهم في الثقافات.

إن مثال لورا وتعليقها جعلني أفكر بأن الآباء الذين يريدون التواصل أكثر بينهم وبين أولادهم عليهم ربما التحول من الهاتف إلى الماسنجر أو إضافة الماسنجر إلى كل الوسائل المستخدمة للتواصل. وربما سيفتح هذا طرقًا أكثر للتواصل. فقد أصبح البريد الإلكتروني والماسنجر الفوري جسرًا فوق الفجوة التي تفصل بين الأجيال.

إلى المستقبل

إن كل وسيلة اتصال توفر فرصًا فريدة للعلاقة والتواصل بين البشر، ومجازفات فريدة أيضاً. إن التقنيات الإلكترونية تستلزم طرقًا جديدة للبقاء على الاتصال وتعزيز الألفة وحل الخلافات فيما بينهم. لكنها أيضًا توفر طرقًا جديدة للتعبير عن الغضب والألم والمجازفة في سوء التفاهم. إن وسائل الاتصال مثل البريد الإلكتروني والماسنجر تيسر من التواصل بكثرة بدون استلزام التطفل بصورة زيارة أو مكالمة هاتفية مفاجئة. أيضًا يوفر البريد الوقت الزائد والكافي للشفاء من ومضات الغضب التي تحدث بسبب تعليق أو طلب.

لكن وسائل الاتصال أحيانًا يتبعها مسؤوليات. أولاً هناك خطر مضاعف، وهو سوء التفاهم لأنه وكما لأية وسيلة كتابة فإنه لا يمكننا فهم ما وراء الرسالة من نغمة الصوت أو تعبير الوجه. وللتعويض عن هذا فإن الأشخاص الذين يستخدمون البريد يستخدمون صورًا أو أشكالاً تعبر عن عواطف وتعابير الوجه مكتوبة بواسطة علامات الترقيم والأقواس. مثل:

تعبير عن الوجه المبتسم، وتعبير عن الوجه الحزين، وهي غالبًا تعبر عن الجملة المكتوبة.

وكما هي الحال في كتابة الرسائل والبريد الصوتي، فإن المرسلين لا يتلقون الجواب على الفور، لذا فإنهم لا يعرفون تمامًا متى تؤخذ عباراتهم بشكل خاطئ. وإذا علمت أنك تلفظت بكلمات قد آذت الشخص المقابل فإنك تستطيع الانتقال إلى تصحيح سوء التفاهم. ففرصة تلقيك لرد سريع عندما تكون وجهًا لوجه مع الشخص أو عندما تسمع صوته على الهاتف أكبر بكثير من فرصتك خلال استخدام البريد. وبدون هذا الرد ستحفر لنفسك حفرة أكبر، غير واع للنتيجة التي ستحصل عليها. وخطر آخر هو تحول بعضهم إلى ذم وتحقير الآخرين مضيفين غضبًا على غضب، وفرصة حدوث هذا ستكون أقل لو كان الشخص أمامهم وجهًا لوجه أو على الهاتف.

مجازفة فريدة خاصة بالبريد الإلكتروني وحده هي سرعة وسهولة إرسال الرسائل وأيضًا نسخها وإعادة إرسالها.

إن السرعة جميلة لكنها تكون أحيانا خطرة. في لحظة ضغطك على زر «أرسل» لا تستطيع تغيير رأيك كما هي الحال في إرسال رسالة عادية. وأيضاً خطر نسخ الرسائل وإعادة إرسالها، فالرسالة المعاد إرسالها هي رسالة محوله. فكل الكلام الذي نتفوه به لا يأخذ معناه فقط من الكلمات، بل من النص أيضاً. لذا فإذا تغير النص يعني تغير المعنى. إن قراءة بريدٍ لم يكتب لك أنت شخصيًا هو كما لو أنك تستمع إلى حوار يدور ولا تشارك به. ربما تستمع وتهتم بما يدور لكن ربما تتأذى أيضاً من النغمات والتلميحات التي لن تكون موجودة لو أنك شاركت في الحوار.

إن وسائل التواصل التقنية تتقدم بسرعة كبيرة و من المبكر أن نفهم تمامًا كيف حولت وسائل الاتصال الإلكترونية ـ كالبريد الإلكتروني والماسنجر الفوري ورسائل الجوال ـ العلاقة بين الأمهات والبنات. إننا نعلم وقد رأينا أدلة على أن هذه الوسائل تستطيع توسيع كل الاحتمالات في الحوار حيث الحب والألفة الثمينة التي تنتج من البقاء على اتصال ومن تبادل التفاصيل الصغيرة للحياة اليومية، والفرصة لطلب وتقديم المعونة والمساندة والتعبير عن الحب والاهتمام. لكنها تبالغ أيضاً في سوء الفهم ومشاعر الألم وبخلق المشكلات عن طريق نسخ وإعادة إرسال الرسائل. إن البريد الإلكتروني يوفر الفرص الغنية للرجوع إلى الحوارات القديمة والمؤلمة. ولمعرفة الخطأ الذي دار فيها ولتقديم التفسير والاعتذار. وأحيانًا يكون الهاتف أكثر تأثيراً وكفاءة لحل مشكلة ما، أو حتى الانتظار لحلها وجهًا لوجه. إن فهم الأخطار والمنافع لكل وسيلة تواصل تقنية يجعل من السهل علينا أن نستفيد من الفرص، ونقلص من المسؤوليات التي تتبع كل وسيلة.



9

دمج المودة والاستقرار

طرق جديدة للحوار

عانت أمي من مرض في الرئة، وكلما زادت شدة الألم عليها وأصبحت أضعف، أردت زيارتها أكثر وإمضاء أكبر وقت معها لمساعدتها والعناية بها. وفي إحدى الزيارات كنت مستلقية بعد الظهر لآخذ قسطًا من الراحة. ومع بداية غفوتي شعرت بحركة خفيفة على رجلي، فتحت عيني ببطء ورأيت أمي تقف عند رجلي. كانت تحمل في يدها بطانية صغيرة كانت على سريرها وترتكز باليد الأخرى على عكازها. وبينما كانت تحاول أن توازن نفسها على عكازها بيد واحدة، حاولت باليد الأخرى وضع البطانية الصغيرة على رجلي. لا أستطيع أن أذكر هذه القصة بدون أن تدمع عيناي. إنها واحدة من أورع وأثمن الذكريات لأمي في آخر سنوات عمرها. لكن من السهل علينا رؤية التجاوب المختلف للفتاة المراهقة في موقف كهذا. حتى من الممكن أن يسبب موقف كهذا غضب البنت وتقول كلمات كهذه: «بالله عليك يا أمي.. لم أعد طفلة. أستطيع أن أعرف بنفسي إذا كانت قدماي باردة أم لا».

أي إيماءة أو ملاحظة مريحة في بيئة معينة من الممكن أن تكون مزعجة في بيئة أخرى. وهذا صحيح بالأخص الإيماءات أو الملاحظات التي تقوم بها الأمهات في سبيل حماية أطفالهن. وهذا ما كان عزيزاً عليَّ عند

إحضار أمي للبطانية لتغطي قدمي. في هذا التلميح فإنها كانت لا تزال تحاول حمايتي ورعايتي. لكن الحماية سيف ذو حدين، حيث تختلف فيها وجهة النظر بين الأمهات وبناتهن. عندما ترى الأم ذلك حمايةً وتواصلاً، فإن البنت تراه حدًا قاطعًا لحريتها وتطفلاً على خصوصيتها. إنه من الصعب على البنات فهم عمق رغبة أمهاتهن في حمايتهن. ومن الصعب على الأمهات فهم أن التعبير عن الاهتمام من الممكن أن يضعف ثقة البنات بأنفسهن ويبدو كما لو أنه نقدٌ بدلاً من اهتمام.

لقد حاولت في هذا الكتاب تفسير السبب الذي يجعل الحوار بين الأم وابنتها من أكثر الحوارات راحة لكن أيضاً من أكثرها إيلامًا وأذية، وتفسير حدوث ذلك. وكيف يمكننا أن نرى الحوار من وجهة النظر الأخرى، و كيف أن نقلص من الألم والأذية ونسرع في الشفاء. وبالرغم من أن ما يناسب أمًا وابنتها ربما لا يناسب الأخرى إلا أن هناك قواعد ومبادئ يمكنها أن ترشدنا. وفي هذا الفصل الأخير سأوضح كيف وجدت النساء طرقًا جديدة للحديث، وكيف أن هذه الطرق استطاعت تحسين العلاقة فيما بينهن.

ما مقدار التواصل المناسب؟

قالت امرأة إنها تتحدث إلى أمها ثلاث أو أربع مرات في اليوم، وأن علاقتها بأمها ممتازة، تقول: «أستطيع إخبارها عن أي شيء في الصباح أو ربما تتصل هي. لكن إذا لم تتصل إحدانا بالأخرى مع حلول الساعة التاسعة صباحًا فهذا يعني أن هناك خطأ ما».

قالت امرأة أخرى: «إن أمي ليست من النوع الذي تحب الحديث على الهاتف كل يوم، وهي دائمًا تقول: ماذا يمكنك الحديث عنه مع الشخص نفسه كل يوم.. أرجوك؟».

ثالثة كانت تعيد لأخيها الحوار الذي دار بينها وبين أمها، وخلال الحديث سألها: «كم مرة تتصلين بها؟» فأجابت: «كل يوم» (بنغمة تلمح إلى أنه من المفروض على أخيها معرفة جوابها). ثم سألته: «ألا تفعل هذا أنت؟» فقال: «لا. أنا أتصل بها مرة في الأسبوع». وقال الأخ في بريد إلكتروني تلقيته لاحقًا: «أعتقد أننا كنا مرعوبين.. حيث اعتقدت أن أمي قريبة جدًا من أختي، لدرجة أنهما أصبحتا كالتوأمين، وأختي اعتقدت أنني مهمل بعلاقتي بأمي».

ما مقدار التواصل المناسب بين الأم وابنتها؟ أكُل يوم ـ أو كل أسبوع ـ عليك زيارتها؟ أكل يوم عليك الاتصال بها؟ ليس هناك إجابة صحيحة لهذه الأسئلة. فأي مقدار من التواصل يمكن فهمه على أنه علامة تواصل أو رفضه على أنه تطفل. لأن التواصل والتحكم ينشآن ويعبر عنهما بنفس الكلمات والتصرفات. في جهة فإن المكالمات الهاتفية تعزز وتقرب من التواصل، هذا من وجهة نظر الأمهات والبنات اللاتي يقدرن هذه المكالمات. ومن جهة أخرى فإن البنت التي تقرر أن تخفف من مكالماتها لأمها، أو تنزعج من مكالمات أمها الكثيرة فإنها تركز على جانب الحد من حريتها في هذا التواصل. إننا جميعا نواجه هذا يوميًا، فهو يشكل لب العلاقة بين الأمهات وبناتهن.

من يحتاجك؟

يأتي مع شعور الأم بالحماية لأطفالها شعور المساعدة وشعور أن الآخرين في حاجة لها. وقد صورت رغبة الأم الشديدة باحتياج الآخرين لها في رواية بولي مارشال «فتاة سمراء، أحجار بنية.» والتي تدور في بروكلين في الأربعينيات. وتنتهي الرواية بشكل تفاؤلي بينما تدرك بطلة الرواية سيلينا – والتي جاء والداها من الباربادوس – بأن حلمها هو أن تخرج من مجتمع المهاجرين الذي نشأت به. وأن تهرب من قدر الزواج المحتوم الذي اختارته أختها الكبيرة. لكن لم يكن إعلان سيلينا بالمغادرة الوشيكة مفرحًا لأمها التي تدعى سيلا. كان رد سيلا مؤثراً من خلال لهجتها المحلية البربادوسية. قالت: «سيرحلون.. واحدة تعتقد أنها ستتزوج وواحدة سترحل. حسنًا. إذا لم يعد لهم حاجة بي. سيرحلون». إنه من المؤلم تحت أي ظرف هجر أناس قريبين ومحبين لنا. لكن كانت خيبة أمل سيلا كبيرة ومؤلمةً لأنها رأت أن بناتها سيرحلن لأنهن لا يحتجن إليها بعد الآن.

سيلينا تحتاج أن تغادر المكان وأمها تحتاج حاجة الآخرين لها. وتحقيق حاجة من هذه الحاجات يتعارض مع تحقيق الأخرى. تمامًا كما تتعارض رغبة الأم بالمساعدة مع رغبة ابنتها بالشعور بأنها لا تحتاج أي مساعدة. إن الخلاف قد يجعل المرأة ترفض مساعدة أمها حتى عندما تكون في مصلحتها. هل هناك حل لهذه المعضلة؟ قد تجد البنات طرقًا تجعل أمهاتهن تشارك في الحياة بدون المس باستقلاليتهن. وربما تجد الأمهات طرقاً تكون فيها أكثر مساعدة بدلاً من إعطاء النصائح والرغبة في الحماية. وها هنا طريقة وجدتها واحدة من هذه البنات.

كانت أم بام خياطة موهوبة لم تعمل خارج منزلها أبدًا. وكانت تظهر براعة أمها خاصة في الخياطة في عيد القديسين. لقد كانت الملابس التنكرية التي تصنعها أمها لها ولأخيها محط أنظار وحسد أصدقائهم. وعندما رزقت «بام» بطفلة لم يكن لديها لا الوقت الكافي ولا براعة أمها في خياطة الملابس التنكرية لها. لذا فقد كانت تشتري لها الملابس الجاهزة. وفي سنة من السنوات عرضت أم بام عليها بأن تخيط لحفيدتها زيا تنكريًا بنفسها. رفضت بام عرض أمها لأنه بدا وكأنه اتهام: «لا تستطيعين أن تكوني أم جيدة، لذا سأفعل هذا عنك». ثم قررت بام أن تعيد تفكيرها ونظرتها لهذا الموضوع، فعرض أمها لا يعني بالضرورة عجزها لذا فقد قررت أن تتقبله بسرور. فترك أمها خياطة زي تنكري لابنتها هو من مصلحتها تمامًا. فالطفلة تحصل على الزي، وبام تتخلص من المهمة، وأمها تشعر أنها مشاركة ومساعدة في حياة ابنتها وحفيدتها. لقد نجح الموضوع تمامًا لدرجة أنه في المرة التالية عرضت أم بام بأن تخيط الزي مجددًا، ولم تتردد بام بالقبول. وعندما كانت تستعد بام لاستقبال مولودها الثاني قامت أمها بخياطة الستائر والشراشف والبطانيات لغرفة الطفل الجديد. لقد كانت أم بام سعيدة بمشاركتها للاستعداد بقدوم الطفل الجديد، وقد قدرت بام تحسين أمها لغرفة الطفل الجديد.

ختم للرضا

ليست كل النساء خياطات بارعات، وليس للكل الوقت الكافي لخياطة الملابس التنكرية أو الستائر والشراشف. لكن هناك هدايا تستطيع الأمهات تقديمها للبنات لا تتطلب الوقت الكثير، مثل التفهم والقبول والرضا. وإدراك هذا يبدد من الإحباط الناتج عن رفض نصيحتك أو مساعدتك.

تكتب بيا ليويس عامودًا أسبوعيّاً في جريدة بام بيتش بعنوان «اليوم والعمر» وضعت بيا في إحدى الأسابيع رسالة من قارئة محبطة تتحدث فيها عن ابنتها التي قامت بشراء منزلها الأول حديثاً. عرضت الأم على ابنتها نصائح عن التأمين والعقار وأمور أخرى مهمة للمشتري الذي ليس له خبرة في الشراء. وقد انزعجت ابنتها وأكدت لها بأنها على علم بما تفعله تمامًا. لكن بعد ذلك بمدة ذكرت البنت لأمها كيف أن نصائح صديقتها كانت مساعدة لها في شرائها لبيتها. كانت نفس النصائح التي رفضت عندما كان مصدرها الأم. قالت الأم: «أتوقع هذا النوع من التصرف من فتاه في السادسة عشرة من عمرها، لكن من امرأة في الخامسة والثلاثين! هذا محير».

إنه من السهل رؤية حيرة هذه الأم. لكن عليها معرفة أن طبيعة النصائح التي قدمتها لابنتها كانت تستطيع الحصول عليها من مكان آخر، وبالفعل فقد تم ذلك. الشيء الوحيد الذي تستطيع الأم إعطاءَه فقط هو التأكيد بأنها فخورة بابنتها، وبأنها وصلت إلى سن الرشد، وأنها تثق بقراراتها وتعاملها مع كل المسؤوليات التي تأتي معه. ومن وجهة النظر هذه فإنه من المفروض للأم أن تشعر بالراحة لعلمها أن ابنتها مازالت تنظر إلى رضاها على أنه شيء مهم في حياتها ـ ليس فقط في سن الثلاثين بل لآخر حياتها.

امرأة أخرى شعرت بأن هذه الطريقة قد حسنت من علاقتها مع ابنتيها. في الماضي كانت تأخذ طلب البنتين للنصيحة بغاية الجدية، خصوصًا إذا اختلف عن التصرف. أو ربما تسمع ردًا مهلكًا مثل: «لم أتصل بك كي تنتقديني». بعدها أدركت أن ما كانت البنتان تريد في الحقيقة هو ختم رضا لأفعالهما ـ حتى وإن بدت الفتاتان تطلبان النصيحة. تحسنت

علاقتها بالبنات بشكل غير محدود عندما تبنت سياسة حجب رأيها عندما لا تتوافق مع بناتها (باستثناء أمور الصحة والسلامة).

أحياناً لا نستطيع التحكم في إضافة نصيحة لتعبير إطراء حيث إنه شيء مغر للغاية. فمثلا امرأة تدعى توبي قالت: إن تعلم رفض هذا الإغراء طور من علاقتها مع ابنتها. فمثلاً إذا قالت ابنتها: «لقد التحقت بالنادي الرياضي ونقص وزني ثلاثة أرطال في الأسبوع الأول». توبي كانت تجيب عن هذا قديمًا بالآتي: «إن هذا عظيم» ثم تزيد على ذلك بالتشجيع: «يجب عليك الالتزام بهذا». ثم تفاجئ من أن ابنتها منزعجة. ثم أدركت في آخر الأمر أن الجزء الثاني من كلامها اقتطع من الجزء الأول. فبدلاً من تقديم التشجيع قد بدت وكأنها تقلل من المدح، أو كما لو أنها كانت تلمح إلى: «كل الذي فعلتيه إلى الآن بدون معنى». أما الآن فعندما تعلن ابنتها عن شيء مثل لهذا فإن توبي تقول: «هذا رائع» وتتوقف عند هذا.

تكلمت مع امرأة توفت أمها من وقت قريب فقالت: «كتبت تأبيناً لأبي عندما توفي، لكن عندما توفيت أمي لم أكتب لها تأبيناً لأنها لم تكن موجودة لتسمعه، لتسمع: إنك قد قمت بعمل رائع.» هذا التعليق يعكس ما يطلبه الكثيرون منا من أمهاتهم ـ وما تطلبه الأمهات من البنات عندما يتقدمن في السن ـ وهو ختم الرضا.

أرجوك لاحظيني

قالت امرأة: «لا أعتقد أن أمي تلاحظني أبدًا». لقد صعقت بعدد النساء الكبير اللاتي عبرن عن أمهاتهن بتعليقات كهذه. ماذا يعني يا ترى هذا؟ ألا تلاحظ الأم ابنتها؟ أخبرتني كثير من النساء أن معظم

الأمهات لا ترى أو تلاحظ ابنتها كشخص. وبشرح أفضل قال الكثير منهن بـأن الأم لا ترى ابنتهـا بالطريقة التي ترى البنت فيهـا نفسها. وكلمة «لا ترى» ـ تعني أو تلمح لعدم التقدير. ـ لم ترى الأمهات الخصائص الجميلة التـي تمتعت بها البنات واعتزت فيها. لماذا هـذا مهم لهذه الدرجة؟ لماذا تستحـق خيبة الأمل هذه أن تذكر عند الحديث عن الأمهات والبنات؟ لأنه بالنسبة للكثير منا نعتبر أمهاتنا المعيار الذي نقيس من خلاله العالم. وإذا كانـت أمهاتنا لا ترانا كما نرى أنفسنا فإننا نشك ونتساءل ما إذا كنا نرى أنفسنا على حقيقتها.

كتبت فيفيان كرونيك في مذكراتها «الرباط الجبار» عن هذه النقطة. فقد علقت فيفيان على مقابلة تصور فيها التأثير المفرغ للأم التي تبدو أنها لا ترى ابنتها. وتفسر في بعض الأجزاء كيف أن شعور الأم بالحماية يجعلها لا ترى ابنتها بشكل واضح. وتصف فيفيان حادثة حصلت في إحدى الأيام الهادئة والصافية فقالت: «أستطيع أن أتذوق الهواء وأشعر بالضوء.. إنني أتنفس بسهولة وببطء.. أشعر بالسلام والإثارة وأني فوق أي تأثير أو تهديد، لا شيء يستطيع لمسي، أنا آمنة.. أنا حرة». وفي هذا المزاج الصافي تذهب وتقابل أمها في ذاك اليوم. وتكمل فيفيان كتابتها: «إنني أطير.. أطير، أود أن تشعر أمي بهذا الشعور المتألق وأن أنقل لها هذا الشعور السعيد بالحياة». لكن ما حدث بعد ذلك هو العكس تماماً:

«أوه.. يا أمي. يا له من يوم».

قالت الأم «أخبريني هل لديك إيجار هذا الشهر؟»

أجبتها «أمي.. أنصتي أقول لك».

قالت « المقال الذي كتبتيه لمجلة التايمز، من المؤكد أنهم سيدفعون لك مقابله. أليس كذلك؟»

«أمي توقفي.. دعيني أخبرك عما شعرت به».

ردت الأم « لماذا لا تلبسين ملابس شتوية دافئة. إننا على مشارف فصل الشتاء؟»

بدأت مشاعري بالداخل بالغليان والجدران تنهار من حولي متجهة للداخل، رددت في داخلي: «ابلعيها ببطء». وقلت لأمي: «أنت لا تعرفين أن تقولي الشيء المناسب في الوقت المناسب. هذه الميزة فيك عجيبة. إنها تسرق أنفاسي».

لكن لم تفهم أمي ما حصل. لم تدر أن جملتي كانت ساخرة، ولم تدري أنها تمسحني. هي لا تدري أني أمتص ارتباكها في الحياة بجدية لدرجة أني أشعر به معها، وأشعر بالتدمير من كآبتها. كيف لها أن تعرف هذا؟ هي لا تعرف حتى أنني هنا. وكيف لي أن أخبرها أنها تقتلني بتجاهلها وعدم رؤيتها لي. إنها تحدق النظر إلي بعينيها الممتلئتين بالحيرة والأسى.

هذه الفتاة الصغيرة ذات السبع وسبعين عامًا تبدأ بالبكاء بغضب وتقول: «أنت لا تفهمين.. لم تفهميني أبدًا!»

لدينا الكثير من المشاعر المزحومة في هذا المقطع القصير. إن البنت تأخذ ارتباك أمها بجدية وتشعر بالتدمير من كآبة أمها لأن الرابط الذي بينهما عميق للغاية. فقدت فيفيان مزاجها الحماسي لأن أمها لم تلاحظه. لم تعترف به ومن ثم لم تعترف بها. وبالرغم من ذلك فإن أمها ركزت

على الطرق التي تستطيع من خلالها حماية ابنتها. هل هي في مأمن من الناحية المادية؟ هل هي متأكدة من أن أحدًا لا يقوم باستغلالها؟ هل هي تلبس ملابس دافئة تحميها من الجو البارد؟ والمثير للسخرية أن فيفيان كانت تشعر «بالأمان» في مزاجها الحماسي. وأن قلق أمها على حمايتها بدد هذا الشعور. والخطر الوحيد الذي نسيت أمها حمايتها منه هو الشعور بتجاهل أمها لها وعدم رؤيتها.

أنهت فيفيان هذا المقطع باعترافها اليائس بأنها كلما حاولت أن تفسر لأمها تأثير كلماتها فإن أمها «تبكي بغضب وتقول: أنت لا تفهميني. لم تفهميني أبدًا». ومن وجهة نظر الابنة هذا يوضح أثر كلمات الأم. لكن من وجهة نظر الأم فإنه يصف الحقيقة الآتية: إذا كانت الأمهات لا ترى بناتهن فإن البنات لا ترى الأمهات. وفي الحقيقة فإن البنت لا تفهم أمها أكثر مما تفهم الأم ابنتها. وهذا مصور أيضا في رواية بولي مارشال «الفتاة السمراء، الأحجار البنية». حيث إن الفكرة الأساسية لهذه الرواية أن سيلينا ترفض كل شيء له علاقة بأمها، ومبادئها وحرصها على شراء المنزل الذي عاشوا فيه وأن تجني المال عن طريق تأجير بعض الغرف. والأكثر أهمية غضب أمها تجاه والدها بسبب اعتراضه لشراء المنزل. وخلال الرواية تخبر سيلينا صديقتها المؤتمنة على أسرارها ـ المرأة العجوز كيف أنها لا توافق على أسلوب حياة أمها. فأجابتها العجوز: «ربما ستفهمين أمك في يوم من الأيام، وحينها ستفهمين لماذا تقوم هي بفعل كل هذه الأشياء». فقالت سيلينا: «أنا لا أريد أن أفهمها أبدًا». تبدو سيلينا وكأنها تشعر أنه مع التفهم يأتي القبول. لاحقًا في الرواية نرى هذا التوازن من وجهة نظر الأم. بعد أن سمعتها سيلينا تتحدث إلى صديقاتها عن

أهمية رفع أسعار الغرف، فإن سيلينا رأت في عيني أمها المثبتتين عليها التماساً صامتاً للتفهم وللتحمل ـ ليس فقط لما قد قالته لصديقاتها، بل أيضًا لكل ما قالته أو فعلته على الإطلاق. إن الأم تمامًا كما البنت تتشوق إلى أن يتم فهمها وتقبلها من خلال الكلمات والنظرات.

تخطي النسخة القديمة مني

إن التفهم والقبول والملاحظة هي أكثر تعقيدًا مما تبدو عليه. هذه الحقيقة تقدم تحديات بالتحديد للأمهات والبنات. إننا نتغير، ونبقى بنفس الطريقة. لذا فإن الشخص الذي عرفنا طيلة حياتنا ربما يعرف الشخصية القديمة لنا. وليس الشخصية التي تطورت معنا، وكما نتغير فإن علاقاتنا تتغير. والتحدي الآخر هو معرفة الأشياء التي نحتفظ ونبقي عليها والأشياء التي نغيرها ونزيلها من علاقاتنا. وبسبب المعنى المزدوج للتحكم والتواصل فإن التعليقات التي كانت تقدم الراحة والمساندة سابقًا أصبحت تسبب التعب والقلق.

إن تينا تنكمش عندما تسمع جملة من أمها تبدأ بـ «أنا أعلم أنك لا تحبين ....» تينا تعلم أنها على وشك سماع جملة تشير إلى شيء كانت لا تحبه قديمًا لكنها قد غيرت رأيتها تجاهه منذ زمن طويل. مثلاً ربما تقول أمها «أنت لا تحبين السوشي». لأن تينا قد قالت هذا منذ عقد كامل تقريبًا، لكن السوشي الآن هو واحد من الأكلات المفضلة لديها. والشيء المثير للسخرية هنا أن عبارة «أنا أعرف أنك لا تحبين..» تدل على القرب والألفة عن طريق إخبار ابنتها أنها تعرف أشياء حميمة خاصة بها كذوقها في الطعام. وهذه المعرفة بالتأكيد تنفع عندما تعد الوالدة طعام ابنتها

المفضل عند زيارتها لها. لكن في هذه الحال كان التأثير هو العكس تماماً. فقد أعطى تينا الانطباع بأن أمها تعتبرها غير قابلة للتغيير.

وصفت تلميذة تدعى هيذير إحباطًا مشابهاً لهذا:

«أثناء طفولتي عشنا في ولاية كونيتيكيت. لذا كانت تحضرني أمي إلى مدينة نيويورك في أجمل أوقات السنة، والذي يتصادف أيضًا مع أبرد أوقات السنة. كان علي أن أمشي في الجادة الخامسة مرتدية ثلاثة أزواج من الجوارب. ومعطفاً كبيراً، وزوجين من القفازات. وخلال سنوات عمري الخامسة والثامنة كنت قد أخبرت أمي أنني لا أحب الذهاب إلى مدينة نيويورك. والآن أنا في العشرين من العمر وأحاول دائمًا أن أجد الوقت للذهاب لمدينة نيويورك. وأحاول دائمًا أن أذهب عندما أكون في الجامعة. وأمي الآن تقول بكل جدية «لكنك تكرهين الذهاب لنيويورك.»

إن تعليق أمها يعني أنها لا تسمح لابنتها أن تتغير أبدًا. والأسوأ أنها تحكم عليها في الوقت الذي كانت فيه طفلة عندما كانت مقيدة بعمرها وبملابسها الشتوية. أهم ما في الحوارات كلها هو سياق الكلام. كنت أتساءل عن سياق الكلام الذي قالت فيه أم هيذير: «لكنك تكرهين الذهاب لنيويورك» ربما هي تحاول أن تغير رأي ابنتها من تقصير زيارتها لها، لأنها تريد زيارة نيويورك أيضاً. بغض النظر عن السبب، فإن التعليق يزعج هيذير لأنه يجعلها تشعر بأن أمها لا تراها كالشخصية التي هي عليها الآن.

وفي هذه القصص من السهل علينا رؤية كيف يقع الجميع أسرى في الصورة القديمة التي تكونت منذ من زمن طويل. وكثير من الأمهات أيضاً

تشعر بأن البنات الراشدات ترى أمها بالشكل الذي كانت عليه سابقاً، وليس ما أصبحت عليه الآن. مثلاً من الممكن أن تستمر البنت في التوقع بأن أمها ستستمر بخياطة الملابس لأحفادها، حتى بعدما بدأت العجوز ترى أنه ليس من السهل عليها العمل بيديها وأنها ربما تحبذ أن تمضي وقتها بفعل شيء آخر. في الحقيقة إن الطريقة التي سجل من خلالها عجز وفشل الأمهات هي نفس الطريقة التي تجعلنا نحكم عليهن في مدة زمنية محددة كانت منذ سنين، حين كانت الأمهات أنفسهن صغيرات بالسن، ويحاولن مواجهة التحديات الكبيرة لتربية أطفالهن.

إن البنت أو الأم تستطيع مساعدة الأخرى عن طريق رؤيتها بشكل جديد من خلال الحديث معها بطريقة جديدة. مثلاً تجد كثيرًا من الأمهات والبنات أنفسهن يُعِدْنَ تكرار الحوادث بشكل ديناميكي، حيث تحضر البنت مشكلاتها لأمها من أجل الحل. وكان هذا العمل في وقت من الأوقات مرضيًا للطرفين، حين شعرت الأم بأنها مفيدة وحكيمة، وشعرت البنت بأن أمها تعتني بها وتصغي لها. لكن عندما تكون البنت راشدة فإن الحوار المعتاد عليه لن يكون مرضيًا كالعادة.

إن نصيحة الأم قد تصبح مزعجة حيث تشعر الأم في بعض الأحيان أن ابنتها تقوم بإغوائها للوقوع في فخ كبير. مثلاً تلتمس البنت المواساة والنصيحة ثم تغضب عندما تحصل على هذه النصيحة. ولتغيير هذه الحال فإن عليك تغيير الحوار القديم إلى جديد. ربما على البنت تذكير نفسها بأن تقص على أمها قصصاً عن نجاحها أكثر منها عن فشلها ومشكلاتها. وأن تذكر الأم نفسها بأنه ليس عليها حل مشكلات ابنتها بعد الآن بل عليها أن التجاوب من خلال التفهم والتعبير عن الثقة بأن البنت ستجد الحل المناسب.

انتبهي لخطواتك

إن رغبة الأمهات في حماية البنات هو السبب في كل هذه النماذج التي تكونت عندما كانت البنات صغيرات واستمرت ـ بطريقة غير مريحة ـ لما بعد بلوغ البنات سن الرشد. والإحباط قد يكون أكبر للبنات اللاتي لديهن إخوة في العائلة. حيث الاختلاف الواضح في التعامل مع الأولاد. ومرة أخرى فالمفارقة تستشف من المعنى المزدوج للتواصل والتحكم. فعندما نكون في سن المراهقة فإن البنت عليها البقاء في المنزل بينما يستطيع أخوها أن يسهر خارج المنزل إلى ساعات مبكرة من الصباح. وهذا بالفعل حقيقي وواقعي حيث إن البنات يتعرضن للمخاطر أكثر من البنين. لكن بغض النظر عما إذا كانت البنت تتفهم هذا الخطر أم لا، فإنها على الأرجح سوف تغضب من أن حريتها محدودة مقارنة بأخيها. ومن الممكن لهذه الفروق أن تستمر في حياتها.

فرانسيز أم لديها أربعة أولاد بنتان وولدان. لم تدرك فرانسيز أنها كانت تفرق في معاملة البنات عن البنين خلال سنوات تربيتهم. لكن البنات أدركن ذلك. وبما أن البنات كبرت الآن فهما تذكران الأم باستمرار كيف أنها كانت تعطي البنين فرصاً أكثر وحرية أكبر. وقد أدركت الأم أن البنات كن على صواب، إن هذا لا ينطبق فقط على صرامتها عند نشأتهم بل أيضًا على أصغر أبنائها الذي هو في سن الثلاثين الآن. مثال على ذلك هو توقعات الأم بأن يبقى بنوها على اتصال بها. وكأم مطلقة تعمل دوامًا كاملا فإن فرانسيز احتاجت إلى أن تعلم مكان وجود أولادها دائمًا، وتتأكد إن كانوا آمنين. والآن عندما أصبحوا راشدين فإنها مازالت تتوقع ـ أو حتى تطالب ـ بأن تعرف مكان البنات دائمًا، لكنها تنازلت عن هذا المطلب

من البنين شيئاً فشيئاً. إنها لا تشتكي من عدم اتصال البنين بها حتى بعد مرور أسابيع. بينما تتوقع من بناتها الاتصال بها كل أيام معدودة. إن رغبة فرانسيز بأن تعرف مكان بناتها دومًا يعكس خوفها المستمر على سلامتهن، وقد اعتادت على التواصل الكبير من بناتها أيضاً. على كل فإن البنات يرفضن هذه الطريقة غير المتساوية في التعامل، لأنها تلمح لعدم العدل أو حتى للتوقعات المهينة.

إيلين في الثلاثينيات، وهي عادة ما تعمل إلى ساعات متأخرة من الليل. إنها تشعر بقليل من الارتباك بينما تخرج من مكتبها الخالي باتجاه سيارتها. لكن هذا ليس أكثر من ارتباك زائل، تمامًا كما تشعر بالارتباك عند ركوبك في سيارة مع صديق لا تثق بطريقة قيادته للسيارة. إنك تضع الشعور بعدم الراحة جانباً وتستمر في حياتك. لذا فقد غضبت إيلين عندما اقترحت أمها أن تطلب من حارس المبنى أن يرافقها إلى السيارة - بالمناسبة إيلين تفعل هذا دائماً - لكن إيلين ركزت على اقتراح أمها غير المنطقي، حيث إنها لا تستطيع إزعاج الحارس كل ليلة وهذا سيجعلها تشعر بالغباء. فإن مكتبها لا يقع في حي سيئ وموقف السيارات مزود بالأضواء الكثيرة. أعادت أمها الاقتراح مما جعل إيلين تشعر بالارتباك الزائد. فبدلاً من أن تكون أمها مصدر راحة أصبحت أمها مصدر قلق. والأسوأ من هذا أن اهتمام أمها المتواصل جعلها تشعر بأنها غير مؤهلة.

إن إيلين ليست وحيدة عندما تشعر بأن قلق أمها يلمح إلى أنها تعتقد أن ابنتها لا تستطيع الاعتناء بنفسها، ولا تستطيع اتخاذ القرارات الصائبة ولا تقوم بعملها بالطريقة الصحيحة. ولا شيء مؤلم أكثر - أو مغضب أكثر - من الشعور بأن الشخص الأكثر أهمية في حياتك لا يثق بقراراتك. كم

هذا مختلف عن الخصائص التي تثمنها كثير من النساء في أمهاتهن: «هي التي تقول لك.. أنا متأكدة من أنك تستطيعين فعل هذا.» إن سماع هذا النوع من التشجيع يعطيك القوة. لكن إذا كانت أمك لا تثق بك فإنه من الصعب عليك أن تثق بنفسك.

إن هذه التلميحات بعيدة جداً عن تفكير الأم التي ببساطة تركز جل اهتمامها على حماية أطفالها. لكن النوايا لا تؤكد حصول التأثير: فإن رسالة الحماية قد تحمل في طياتها رسالة خفية لعدم الثقة. وفي حالات كهذه فإن الأم قد تكون مفيدة أكثر لابنتها بتقليل الكلام وليس بكثرته.

الفكاهة تساعد

كثير من المشكلات بين البنات والأمهات تنشأ من الخلط بين الرسالة في سياق الكلام وبين ما وراء الرسالة ـ الرسالة الخفية ـ فإن التصرف أو القول الذي يحمل النية الإيجابية للحماية يحمل أيضاً في طياته الرسالة الخفية المؤلمة وغير المقصودة بأنك لست على المستوى المطلوب. حتى الشكوى الدائمة للأمهات، ونقد مظهر بناتهن هو في الحقيقة الجانب الآخر للاهتمام والقلق والذي يظهر التواصل. والمواضيع المفضلة للنقد (يعتمد على وجهة نظرك) هي الثلاثة الكبرى: الشعر و الملابس والوزن، يمكنها أن تكون أيضاً مواضيع لحوارات مبهجة.

كانت فاليري واحدة من النساء الكثيرات التي ذكرت بأن علاقتها مع ابنتها أفضل من العلاقة التي كانت بينها وبين أمها. ولتوضيح سبب هذا ذكرت فاليري أن أمها كانت تظهر قلقاً زائدًا على مظهر ابنتها: «كانت تريدني أن أبدو جيدة للعالم. وعندما كنت في الأربعين ظهرت على وجهي

بعض البقع الملونة، وقد أرادت أن أعالجها على الفور». لاحقاً في حوارنا كانت فاليري تصف العلاقة الرائعة بينها وبين ابنتها.(تحدثت إلى ابنتها فيما بعد وقد وافقت على كلام أمها). قالت فاليري: إن ابنتها دائماً تشجعها على أن تنفق المزيد من المال على نفسها. مثلاً: «إن ابنتي دائما تخبرني عن بعض المراهم التي علي شراؤها حتى أتخلص من التجاعيد».

أتساءل لماذا اعتبرت فاليري اقتراحات ابنتها لشراء مراهم إزالة التجاعيد على أنها دليل على العلاقة الجيدة. بينما اعتبرت اقتراحات أمها بأن تتخلص من البقع الملونة على أنها دليل العلاقة غير الجيدة. ربما شعرت أن دافع ابنتها لم يكن لجعلها «تبدو جيدة للعالم». كما كانت تفعل أمها. بغض النظر عن الدافع فإن الاختلاف يقع في سياق الكلام في علاقتهم. هنا سياق لحوار دار بين فاليري وابنتها عن مراهم الوجه:

«إننا نحب أن نتحدث عن أشياء مثل الأقراط وأقلام الحمرة والملابس. في السنة الماضية عندما قدمت محاضرة في مؤتمر أصرت ابنتي على أن أنفق المال في فستان. لقد أرادت أن نجده سوية لأنها تعتقد أنني لن أشتري إلا إذا كانت موجودة. عندما ندخل محلاً فإن ابنتي تخبر البائعة بأني عنيدة وصعبة المراس. إنها تتمتع بخفة الدم. لقد أخبرتني كثيرًا عن مراهم الوجه وأن علي شراءها لأتخلص من التجاعيد. إن لنا مملكتنا الخاصة بنا ونستمتع كثيرًا بها.. إننا نمزح».

إذًا الاختلاف الوحيد بين اقتراح أمها واقتراح ابنتها هو سياق الكلام والطريقة التي تم بها. إن تفاعل فاليري مع ابنتها هو تفاعل مازح ولعوب. وبالمقابل مع أمها «فلم يكن هناك مزاح، كل شيء كان جديًا بشكل مميت».

إن المزاح والفكاهة عامل مهم جدًا تستطيع فاليري وابنتها أن تستمتع من خلاله بالتواصل بدون التعثر بحبال التحكم.

لا تعلقي

بالرغم من أن اللعب والمزاح يوفر الكثير من المتعة إلا أنه علينا التعامل معه بحذر ككل أساليب الحديث. إن اللعب يمكن أن يكون خطيرًا إذا كانت (الأم أو البنت) غير متأكدة من قبول الطرف الآخر لأسلوب حياتها. إن كل تعليق تقريبًا من الأم لابنتها (وفي بعض الأحيان العكس) يمكن أن يؤخذ على أنه انتقاد إذا كانت الأم لا توافق على الموضوع. وعدم الموافقة عادة ما يظهر إذا كانت الأم والبنت قد اتخذتا أساليب حياة مختلفة عن بعضهما.

أحيانا تكون البنت هي من يبدأ بإثارة المواضيع المشحونة، مشعلة بذلك حلقة حوار كئيب. إنه كما لو أننا نعود لنقاط الخلاف القديمة دائماً ومجددًا. كما لو أنك تمرر لسانك فوق قرحة مؤلمة في لثتك مرارًا وتكرارًا. مثلاً: مارجريت منزعجة من انتقاد أمها الدائم لشعرها. تقول أمها: إنه أشعث وطويل للغاية ويبدو مهملاً. تسمع مارجريت برعب الكلمات الخارجة من فم أمها عند وصولها لمنزل والديها في زيارة قصيرة. وأول شيء تفوهت به بعد تحيتها لأمها «إن شعري يبدو منفوشاً اليوم. لم أستطع السيطرة عليه اليوم». لا شك في أن دافعها كان بأن تستبق النقد قبل أمها. بحيث لو أنها هي من اشتكت أولاً من شعرها فالأم لن تستطيع قول شيء، لكن ما حصل كان على العكس تماماً. فقد فتح تعليق مارجريت الباب لأمها وقامت أمها بالقفز داخل الموضوع بسرعة. فقد عرضت على ابنتها

بأن تأخذها إلى مصففة الشعر الخاصة بها. وقد تجاوبت مارجريت بانزعاج متوقع من عرض أمها لتحسين شعرها. لكنها أيضاً انزعجت من نفسها، لأنها أشعلت فتيل هذا الحوار عن طريق إثارة موضوع شعرها.

هنا حالة أخرى حيث لم تستطع ليز تصديق أن ابنتها جودي غاضبة بهذا الشكل. فقد كانت سألتها سؤالاً بريئاً: «هل تحبين الخَضْرَاوات؟» وبدأت جودي بالغليان، متهمة أمها بانتقادها. وهكذا بدأ الأمر: فقد كانت جودي وأطفالها يتناولون طعام عشاء عيد الشكر في منزل والديها بوجود أختها وزوجها الجديد. وقد ثار فضول الأطفال عند علمهم بأن الزوج الجديد ليس من آكلي اللحوم، بمعنى أنه يأكل الخَضْرَاوات فقط. وهذا أدى إلى حوار وصفته ليز كالآتي: «حسنًا كنا نتكلم عن نوع الخَضْرَاوات التي يحبها كل منا، وأي منها نأكل. وسألت جودي: أي نوع من الخَضْرَاوات تحبين؟ أو ربما قلت: هل تحبين الخَضْرَاوات؟ ثم غضبت كثيرا واتهمتني بانتقادها لطريقة إطعامها لأطفالها. قالت: إني أتهمها دائمًا بأنها لا تعطي أطفالها خَضْرَاوات كافية. هذا صحيح أنا أعتقد هذا. لكني لا أعتقد أنني قلت لها هذا أبدًا. وعلى أية حال كل الذي فعلته هو سؤالها. أشعر أني لا أستطيع أن أفتح فمي مع جودي بدون أن تتهمني بانتقادها».

قد كانت لي الفرصة لأتحدث مع جودي أيضاً. فسألتها عن وجهة نظرها في الحوار. وقد كان تقريبًا مماثلاً لكلام أمها. ما عدا كلمة صغيرة ـ وقصة قديمة كبيرة. وعندما وصلت للجزء الذي تسأل فيه الأم السؤال المزعج قالت جودي: «تسألني أمي «جودي.. هل تحبين حتى الخَضْرَاوات». هذه الكلمة الصغيرة «حتى» جعلت الرسالة الخفية تبدو مختلفة. فقد افترضت مقدمًا أن جودي لا تحب الخَضْرَاوات. وهذا ذكرها بتاريخ لحوار حدث في

الماضي. قالت:» في كل مرة تزورني فيها أمي تقول لي تقريبًا عشر مرات بأني لا أطعم أطفالي خَضْرَاوات كافية». لذا فإن الاختلاف الكبير بين وجهة نظر جودي وليز كان تذكرهم لعدد المرات، أو الأوقات التي أظهرت بها أمها قلقًا أو اهتمامًا من قبل.

ليس من المفاجئ أن تتذكر جودي وربما تبالغ في عدد المرات التي أخبرتها أمها فيها أن تزيد من الخَضْرَاوات في طعام الأطفال. وعلى كل حال فإن هذا يعني لجودي أن أمها تعتقد أنها فاشلة في أهم عمل عليها القيام به. وهو كونها أما. وليس من المفاجئ أيضًا أن تقلص ليز من عدد المرات التي تكلمت بها مع ابنتها عن الخَضْرَاوات، أو حتى أن تعترف بأنها علقت على الإطلاق. من المعقول أن ما تعتبره جودي «تعليقات» تعتبره ليز حديثًا غير مباشر كما كان هذا السؤال. لذا فربما تعتقد ليز أنها لم تقل شيئًا على الإطلاق. بينما تعتقد جودي أن ما سمعته كان صريحًا.

(لقد كان مسليًا جدًا اكتشاف عدد المرات التي تحدثت فيها مع أمهات وبناتهن كل على انفراد. وقد كانت تخبرني الأمهات عن أشياء لا ترضى البنات عنها ولم تتكلم الأمهات فيها. وعند حديثي للبنات اشتكت البنات بأن الأمهات ينتقدن الشيء نفسه مرارًا وتكرارًا).

ربما سيكون مــن النافع بالفعل أن يأكل أولاد جودي خَضْرَاوات أكثر، أو ربمــا لا يكون. فإن القناعــة التي تقول بأن الخَضْرَاوات أفضل للصحة ربمــا تصبح موضــة تدريجيًا، وتستبدل بأخــرى. إن آراء الخبراء تتبدل باستمــرار وكمــا شهدنا فإنه خــلال بضعة سنين تغيرت مبــادئ التغذية السخيفــة مــن تقليل الدهــون إلى تقليل الكاربوهيــدرات. وعلى أية حال

لا يهـم هـذا: فإن الأطفال أصحـاء وسعيدون، ومحبوبـون، و بما أنهم لا يتعرضـون للإيذاء ولا للجوع فإنهم على الأرجـح سيكونون بخير. (وهنا أنقـل جملة إحـدى النساء وقـد كانت تسـدي النصيحـة إلى أم جديدة فقالت: «عليك فقط ألا تقتلي الرضيع»).

عندما لا تقوم البنت بفعل ما تود أمها، أو عندما لا تستطيع الأم الرضا عـن اختيـارات ابنتها. فإنـه ليس هناك مخرج مـن هذا المـأزق إلا ترك الموضـوع وشأنـه. وإلا فإن المسافـة ستزيد بينهما. فـإذا أصرت الأم على الإشـارة للموضوع، فإن البنت ستحـاول التقليص من الوقت الذي تقضيه مـع أمها. وهذا لا يعني فقط أن الأم ستحظى بوقت أقل برفقة ابنتها، بل إنـه يعني أيضاً أن فرصتها للتأثير علـى ابنتها أصبحت أقل، ولا أعتقد أن هذا ما تريده الأم.

والآن شيئًا مختلفًا

عندما يتحول الحوار إلى اتجاه لا نحبه. فإننا عادة ما نفكر بأننا نتفاعل مع أذى بدأه الطرف الآخر. ومن النادر ما نتوقف ونفكر ما إذا كان الطرف الآخر يتفاعل معنا أم لا. أو ما الأمور التي سوف تترتب على تفاعلنا هذا؟. وبغض النظر عَمَّن هو الذي حول الحوار من لطيف إلى متوتر أولاً، فإن كليهما يستطيع أن يرأس جدالاً مماثلاً من خلال تغيير طريقة تجاوبها. وهنا مرة أخرى مثال من مذكرات فيفيان كرونيك.

كانـت فيفيان وأمها تمشيان معًا عندما قالت أمها: «أنا أقرأ السيرة الذاتيـة التي أعطيتني». وقـد كان الكتاب عن جوسيفين هيربس، كاتبة عنيـدة ومتصلبـة وثائـرة من حقبـة الثلاثينيـات. كتبـت في السياسة

والحب والكتابة حتى اللحظة الأخيرة. وقد سرت فيفيان بقراءة أمها للكتاب. ولكن عندما بدأت أمها بالكلام أدركت فيفيان بأن هذا الحوار في طريقه للجدال:

«أوه.. وقد ابتسمت بفرحة. وقلت هل تستمتعين بقراءتك للكتاب؟»

قالت: «اسمعي». وبدأت البسمة بالاختفاء من وجهي وتقلص بطني. معنى كلمة «اسمعي» أنها على وشك سب الكتاب والاستخفاف به، إنها ستقول: «ما الشيء الذي يضيفه هذا الكتاب ولم أكن أعرفه من قبل؟ لقد عشت تلك الأيام، أنا أعرفها تمامًا. ما الذي يمكن لهذه الكاتبة أن تقول وأنا لم أعرفه من قبل؟ لا شيء. بالنسبة لك إنه مشوق. لكن بالنسبة لي.. كيف يمكن له أن يكون مشوقًا ؟»

لقد دارت الحوارات الكثيرة بين فيفيان وأمها لدرجة أنها أصبحت تتنبأ كيف ستتكلم أمها بالضبط وكيف سيكون ردة فعلها هي:

«اسمعي» تقولها أمي الآن بنغمة استرضاء: «ربما هذا مشوقًا لك لكن ليس بالنسبة لي. أنا أعرف كل الذي دار في الكتاب، ولن أتعلم شيئاً جديدًا منه، لكنه بالنسبة لك مشوق».

وكالعادة فإنها عندما تتكلم بهذا الشكل فإن رأسي يمتلئ بالدم، وقبل أن تتوقف الجمل عن التدفق من فمها، أكون أنا قد اندفعت عليها بقوة: «أنت جاهلة، لا تعرفين شيئًا. فقط الجاهلة هي التي تتكلم بهذه الطريقة. إن النقطة هي ليس فقط أنك قد عشت في تلك الحقبة كما تقولين بل لتتعلمي شيئاً جديداً من أناس آخرين. لقد قرأ الكتاب أناس مثقفون أكثر منك بألف مرة وقد تعلموا من الكتاب. لكنك لا تستطيعين عمل هذا؟!».

إنه من السهل رؤية السبب الذي جعل فيفيان تتجاوب بهذا الشكل، فقد كانت تتجاوب بنفس الطريقة المزدرية التي تكلمت بها أمها. وردة الفعل الغاضبة تكون هنا طبيعية تماماً، بما أن أمها احتقرت الكتاب، نابذة بذلك تلميح ابنتها بالتواصل عندما أهدتها الكتاب الذي أعجبها. وهذا يعني أيضاً أنها كانت تطعن في رأي وحكم ابنتها.

في هذه المرة لم يستمر الجدال لأن فيفيان تجاوبت بشكل مختلف لفظيًا وجسديًا. بدلاً من القفز إلى مناظرة بينها وبين أمها، أخذت خطوة للخلف وغيرت نغمة الحوار. أيضًا قامت بحركات تواصل جسدية من خلال لمس أمها:

التفّت إلى أمي، ووضعت ذراعي اليسرى على كتفها، واليمنى على يديها، وقلت: «أمي.. إذا كان هذا الكتاب لا يعجبك فإن الموضوع سهل. يمكنك قول هذا». نظرت إلي بعيني كبيرتين وقد لفتت انتباهها الآن. وأضفت «لكن لا تقولي إنه لا يعلم أو يضيف أي شيء. وأنه فارغ ولا يستحق وقتك، فهذا يعني أنني لا أستحق وقتك أيضاً. أنت بهذا تحطين من قدرنا جميعاً».

من خلال ردة فعلها المختلفة عن المعتاد، فقد لفتت فيفيان انتباه أمها وغيرت اتجاه الحوار. وبعد مدة صمت طويلة علقت أمها بطريقة مختلفة تماماً وقالت: «يا لها من امرأة جوسيفين هيربس. إنها بالتأكيد وصلت لما تريد». وبعد سماع هذا شعرت فيفيان بالراحة والسعادة واحتضنت أمها. استمرت الأم بالقول: «إنني أشعر بالغيرة.. أشعر بالغيرة من أنها عاشت حياتها. لم أستطع أن أعش حياتي».

استطاعت فيفيان تغيير طريقة حديث أمها معها عن طريق تغيير طريقة حديثها مع أمها. وقد كان المفتاح المختلف في ردة فعلها الجديدة تجاه أمها عن طريق تركيز الانتباه على التلميحات المؤلمة في تعليقات أمها. وبدلاً من التفاعل العادي مع هذه التعليقات.. تفاعلت بلطف. وهذا ما يسميه عالم الأنثروبولوجي: «بما وراء التواصل أو ـ الحديث عن الحديث». تستطيع هذه الطريقة تغيير أسلوب الحوار بقوة. لأنها تتطلب منك أن تخرجي نفسك من الحوار وتلقي عليه نظرة من الخارج، وهذا لوحده يوفر للحوار الهدوء ووجهات نظر جديدة.

إن مكمن القوة في ـ الحديث عن الحديث ـ يكمن في لفت فيفيان لنظر أمها حول تأثير كلماتها عليها. إنه من الطبيعي ـ حتى أنه يحدث تلقائيًا ـ أن نفترض أن تأثير كلمات الآخرين عادة ما تعكس نواياهم. لكن هذا الافتراض ليس صحيحاً دائماً. ذكرت امرأة بينما كانت تشرح لي كيف أن علاقتها بأمها تحسنت عندما قامت بخطوة جديدة في العلاقة. خطوة قد لا تخطر على بال معظمنا. عندما تقول أمها شيئاً مؤلماً فإنها تسأل أمها ماذا تعني بهذا:

إنها تعلق على شيء ولا أعرف ماذا تعني. وبدلاً من أن أنشغل في التفكير بما تعنيه أو أن أتجاهل الموضوع فإني أسألها «ماذا تعنين بهذا؟» أو «هل قلت هذا لتؤلميني؟»

أكملت البنت قائلة وبمعنى آخر: «ربما أنا أفهم تعليقها بطريقة معينة، لكنها ربما لم تعنِ ما قالت.» وعندما تطلب من أمها توضيح نواياها بدلاً من امتصاص ـ الرسالة الخفية ـ المؤلمة بصمت. و بفتح هذه المرأة لهذا

الحوار فقد طورت من علاقتها مع أمها. وأوضحت لأمها تأثير كلماتها عليها. بغض النظر عما كانت تقصد من التعليق.

عندما نجد أنفسنا في منتصف أحد الحوارات غير المفضلة لدينا ونشعر بأننا قد وقعنا في مأزق وليس هناك مخرج، فإنه من المفيد أن نتذكر أنه عندما نتحدث بطريقة مختلفة عن العادة فإن الشخص المقابل عليه أن يتجاوب بطريقة مختلفة أيضاً. ولا أستطيع أن أضمن بأن النتيجة ستكون دائماً مرضية كما حدث في هذه الأمثلة. لكن على الأقل ستذكرنا بأن القوة تقع في أيدينا لتغيير الطريق الذي تأخذه حواراتنا.

افعلي شيئًا

بدأت عالمة اللغات إليني بيتراكي بإجراء مقابلة مع امرأتين «أم وابنتها» فسألت «هل أنتما بنت وأم؟» فقالت البنت: «نعم.. يمكننا أن نجلس هنا ونتكلم لساعات وساعات وساعات». إنه جانب جميل في علاقة الكثير من النساء بأمهاتهن أو بناتهن الراشدات. إنه أيضاً حجر الأساس في علاقة النساء، إنه الحوار المتبادل. إن تبادل الحديث من أروع المتع للتواصل عند النساء. لكنه من الصعب أن نتشارك بكل هذا الحديث بدون أن نلمس مواضيع يريد الطرف الآخر تجنبها. وإذا كانت هذه هي القضية، فإنه بدلا من الجلوس والحديث لوقت طويل فإن الأم وابنتها يستطعن فعل عمل ما معاً وفي هذا الموضوع تستطيع النساء التعلم من الرجال. حيث إن الصداقة بين الرجال غالبًا ما تبنى حول فعل نشاطات مع بعضهم بدلاً من الحديث إلى بعضهم. بنفس الطريقة التي من الممكن أن يستفيد بها الرجال من النساء عن طريق تبني بعض طرق النساء لخلق الألفة والمودة من خلال الحديث.

كانت روث وابنتها تتجولان في متجر يدعى كوسكو. وبينما كانتا تتجولان بين أجنحة المتجر ذراعاً بذراع، تتبادلان الضحكات وتتوقفان لفحص المبيعات. لاحظت روث أن زوجها كان يرمقهما بنظرة وابتسام فاستغربت. قال الأب: «أحب أن أراقبكما معًا». نعم روث وابنتها تحبان الحديث مع بعضهما، لكن هناك متعة مختلفة في التسوق معاً. حيث يتساوى التناغم بينهما والتركيز لا يكون على أنفسهما.

دهشت عندما سألت النساء عن الشيء الأكثر متعة من خلال العلاقة بين الأمهات أو البنات، فقد كانت معظم الإجابات هي التسوق. وها هنا تعليق من امرأة - وهي تشرح كم تستمتع برفقة أمها:

«إننا نحب أن نتسوق معاً ونفعل هذا بكثرة خلال مرحلة الأعياد وعند التخفيضات. إننا لا نحتاج لأن نوفر كل قرش. لكنه شعور صاخب عندما أجد سلعة تعجبني وتكون بنصف السعر. وزحام الناس لا يحتمل في الأعياد، حيث علينا أن نجد طريقنا بين ثلاثين شخصًا».

وقد تساءلت كثيرًا ما الشيء المغري في التسوق بالنسبة لكثير من الأمهات والبنات؟ والنتيجة التي حصلت عليها هي أن الشيء المميز هو وجود شيء يفعلنه معاً. إضافة أو عوضًا عن الوقت الذي يقضينه في الحديث.

تقريبًا أي نشاط متبادل من الممكن أن يكون مصدر متعة. من الممكن أن يكون الذهاب للنادي أو للصالون معاً. مهما كانت هذه الأنشطة فإنها تعمل من وراء الستار، تعطي الفرصة للنساء بأن تتوسع العلاقة بينهن وتلتقي. وأضف على هذا بأن النشاط أحيانًا يضم مجموعة من النساء مما يزيد من المتعة. وفي النهاية فإن القيام بعمل أو نشاط معاً يوفر الفرصة لقضاء الوقت مع بعضنا. والفعل نفسه يرسل رسالة خفية بالألفة والوئام.

إذا كنت لا تستطيعين الخروج لعمل الأشياء لسبب ما فإنه يمكنك عمل حوارات من نوع جديد، لا تتضمن المواضيع العادية التي تتحدثن بها. اسألي أمك عن الماضي، عن تاريخ العائلة أو موضوع لها خبرة فيه. اسألي ابنتك عن عملها، تحدثي عن الأفلام، عن برنامج تلفازي، عن كتاب تقرئينه، ربما تقترحين إنشاء ناد للكتاب بينكما إذا كنت تسكنين في المدينة نفسها. إذا كنت عادة تتناقشين في أمور خاصة حاولي الحديث عن أحداث عامة تجري حالياً. وإذا كنت عادة تتجنبين الحديث في الأمور الخاصة حاولي الحديث عن شيء فعلتيه في اليوم السابق أو عن شيء تخططين لفعله. تبادلي النكات والمزاح فمازال يمكنك الاستمتاع بالعلاقات المتبادلة والتناغم المتبادل، وتجنبي المواضيع التي تؤدي إلى الإحباط القديم.

غيري السياق

كل هذه طرق لتحسين الحوار بين الأم وابنتها. لكن الانتباه إلى الطريق المتغير للحوارات هو ما يحتاجه الأفراد لإيجاد متعة أكبر وإزعاج أقل في الحديث إلى الأمهات والبنات. كتبت لي امرأة بعد قراءتها تحليلي للمعنى المزدوج للعناية والنقد وفسرت كيف كان هذا ناجحاً معها. قالت: إنها في الماضي كانت لا تحب العطلات، لأنها كانت تعلم بأن أمها ستكون منتقدة لكل شيء، وأن هذا سيؤدي لانفجارها بالمقابل. يبدو أن أمها كانت تعاملها كما لو أنها في الثالثة عشرة من العمر، وليس كامرأة في منتصف العمر تحمل شهادة ماجستير وناجحة مهنياً. وبعد قراءتها للفصل لم يتغير شيء إلا طريقة فهمها لتعليقات أمها. وهذا بدوره غير كل شيء، إن فهمها

لتعليقات أمها على أنها تعبيرات عن العناية بدلاً من الانتقاد كان كل ما تحتاج إليه لتغير نظرتها تجاه زيارة أمها في العطلات.

مثلاً، عرضت المرأة على أمها ملابس اشترتها ومنها زوجان من الجوارب وكانت سعيدة بهما. كان أحدهما أسود والآخر أزرق. الجوارب كانت مصنوعة من قماش ناعم للغاية ودافئ في الوقت نفسه. وفي اليوم التالي لبست المرأة واحدًا من هذه الجوارب. ولفتت نظر أمها إلى أنه كان يتناسب مع لون ملابسها. فأجابت أمها: «أعتقد أنك خلطت بين اللونين، فواحد أسود وواحد أزرق. هل أنت متأكدة من أن كل فردة مع الأخرى؟ وفسرت المرأة لي كيف أن ردة فعلها قد تغيرت: «كان تفكيري المباشر هو: ماذا تعتقدين؟ أنا لا أستطيع أن أتأكد من ألوان الجوارب التي ألبسها؟ إنني في نظرك لست كفؤاً حتى لاختيار جواربي؟» في الماضي اعتدت على الغضب من تعليقات كهذه، لكني توقفت لدقيقة للتفكير وأدركت أنها تحبني وأنها تريدني أن أبدو بمنظر حسن. وألا أحرج نفسي بجوارب مختلفة ألوانها. لقد أصبحت لطيفة للغاية معها، لأنها تهتم بأشياء صغيرة لكنها مؤثرة كثيراً في الوقت نفسه».

إن السؤال عما إذا كنت قد خلطت بين الجوارب الزرقاء والسوداء هو شيء فعلناه ونفعله جميعًا، لكن فقط الأم تستطيع ذلك. من منا سيكون مهتمًا وقلقًا من ألوان الجوارب التي تلبسينها؟ من الشخص الذي تستطيعين عرض جواربك الجديدة عليه غير أمك؟ وأنا أراهن لو أنك سألت هذه الأم عما لو كنت فعلاً اعتقدت أن ابنتها قد خلطت بين ألوان الجوارب فإنها بالتأكيد ستجاوبك بالنفي. فإن تعليقها كان فقط نوعًا من إظهار الانتباه للسلعة التي اشترتها ابنتها. أو ربما تذكرت في مرة من

المـرات أنها خلطت بين ألـوان جواربها، وأنهـا أرادت أن تنتبه قبل أن تقع ابنتهـا بالخطأ نفسه. لكنه كان مسرحاً ممتـازًا لانزعاج ابنتها واتخاذها جانب الدفاع، إلى أن غيرت طريقة فهمها لتعليقات أمها ونواياها.

تلميذة أخرى تدعى جيسي وجدت أن إعادة صياغتها لأفكارها عن أمها أدى إلى فتح طرق جديدة للحديث مع أمها. وبنتائج سعيدة لكليهما. وها هنا وصف للتغيرات في عائلتها وكيف بدأت بإعادة صياغتها:

«بقيت في الصيف الماضي في منزل والدي.. ووجدت نفسي أتناول طعام العشاء معهم في كل ليل. وقد سيطر والدي على كل علاقة في العائلة. وقد بدا لي واضحًا في الشهور الأخيرة كيف تستبعد أمي من كل نقاشات العائلة بينما نأخذ جميعًا صف والدي. وفي ليلة من الليالي أمضينا تقريبًا الساعة في الجدال ضد أمي في موضوع ما. بالكاد نجعلها تتفوه بكلمة، بل وندين كل ما تقوله. أنا بالفعل كنت أوافق والدي لكني لاحظت أن كل إخوتي وأخواتي كانوا أيضًا في صفه. وأمي كانت دائمًا هي الغريبة والوحيدة.

أعادت جيسي تقييم ردة فعلها لأمها بعدما بدأت بالنظر إلى النقاش من وجهة نظر أمها. وقد ناقشنا في الفصل كيف تستبعد الأمهات أحياناً عندما تقف البنات في صف الوالد. وكنتيجة لهذا النقاش قامت جيسي بعمل بعض التغييرات:

بعد هذا الصيف أدركت كم هي أمي مستبعدة من دائرتنا. فوالدي كان دائماً هو المفضل لدينا، للحديث معه أو لإمضاء الوقت. وبينما تحاول أمي دائماً أن تكون مشاركة في حياتنا، فإنني وأخوتي دائماً نراها على أنها متطفلة ومزعجة. وقد قررت أن أعمل جاهدة في إمضاء بعض الوقت معها،

وأن أكون في صفها كلما سنحت لي الفرصة. وقد فرحت أمي باهتمامي بها وبحياتها وأصبحنا أكثر قربًا الآن نتيجة لهذا.

إن تجربة جيسي تظهر أن النظر بطريقة جديدة إلى العلاقة يؤدي إلى طرق جديدة للحوار والتصرفات، ومن ثم لتحسين العلاقة. لطالما اندهشت من مقدرة الأفراد على ابتكار طرق جديدة للتواصل مع الأفراد المحببين في حال تفهمهم للطرق المسببة للضغط. بالرغم من أن كل العلاقات بين الأمهات والبنات تتشارك في خصائص كثيرة، كما اكتشفت في بحثي ووضحت في هذا الكتاب. فإن كل علاقة فريدة بذاتها، لذا فإنه ليس هناك حل سهل يناسب الجميع. وكما تحاول الأمهات والبنات أن تجد المقدار المناسب للتواصل بدون التسبب في النقد ولا التطفل. فإنه قد يبدو ضرباً من الجنون ألا نجد إجابة صحيحة لهذا السؤال: «كم هو مقدار التواصل الصحيح؟» في الحقيقة إنه من الجيد ألا نجد إجابة لهذا حتى تجد كل عائلة المقدار المناسب لها.

إن التحدي يكبر عندما يكون المقدار المريح لشخص غير مريح لشخص آخر. إلا أن ـ وأكرر ـ تفهم التغيرات من الممكن أن يساعد. سأفسر هنا بتشابه جزئي لعملية غير شفهية وصفها عالم اللغات إدوارد هال.

حلل إدوارد التضارب بين الثقافات عن طريق التشبيه بكيفية وقوف الأفراد وكم المسافة التي يتركونها بينهم عند حديثهم لبعضهم. فإن المرأة التي تتوقع أن تقف أقرب ستتقدم لتعدل من المسافة بينما المرأة التي تتوقع أن تقف أبعد ستتراجع إلى الخلف. وكلاهما ستتحركان عبر الغرفة إلى أن تجد إحداهما ظهرها مثبتًا إلى الجدار أو قريبًا من سلالم، وأنها على

وشك الوقوع من أعلاها. فإن هذا التشبيه ممكن أن يحدث في العلاقة بين الأم وابنتها. لنقل أن الأم تتطلع إلى قدرٍ من القرب والألفة أكثر مما تعتبره البنت قدرًا مريحًا. فالابنة تفهم هذا على أنه تطفل وتتراجع إلى الخلف، والذي من شأنه أن يدفع الأم لتزيد من جهدها لتقترب أكثر وأكثر. إلى أن ينتهوا إلى حافة هاوية هذا إذا لم يقعا فيها.

تمامًا كما في التشبيه حين تتحركين للأمام وللخلف لتعديل المسافة بينكما أثناء الحديث، فإننا نميل لأن نحاول جاهدين ولفعل الشيء نفسه عندما لا نكون مرتاحين من الحوار أو العلاقة. لكن ضع في الاعتبار نتائج فعل كهذا: فإن كل خطوة تأخذينها لترتاحي أكثر ستدفع الأخرى لأن تأخذ خطوة للخلف. وأيضاً ضعي في الاعتبار النتائج المختلفة التي من الممكن أن تنشأ من تصرفاتك. مثلاً لو أنك توقفت عن التقدم للأمام فإن الشخص الآخر سيتوقف عن الرجوع للخلف. وبالعكس لو توقفت عن الرجوع للخلف فإن الشخص المقابل سيتوقف عن التقدم للأمام. ربما ستكون هناك لحظات غير مريحة عندما تقفين ثابتة بدون حراك أو حتى عندما تأخذين خطوة في الاتجاه المعاكس. لكنه بالطبع أفضل من التحرك المتصلب وغير المجدي في الغرفة ـ أو إلى الهاوية ـ هذا يعنى أنه عندما تفعلين شيئًا مختلفًا فإنك تستطيعين كسر دائرة، أو القيام بفك الحوارات الملتفة حول بعضها. ويوفر هذا الكتاب الطرق الكثيرة التي تستطيع من خلالها الأمهات والبنات التراجع عن حافة الهاوية والرجوع إلى الأرض الآمنة التي تزخر بالحوارات المريحة والممتعة.

في النهاية

لقد كنت واحدة من الفتيات التي رأت أمها على أنها العدو في سنوات مراهقتي. لقد نشأت قبل الأوان وقد كان لي شكاوى وأحكام مرة تجاهها. وفي العشرينيات من العمر واحدة من الأشياء التي أزعجتني هي شوق أمي لإمضاء الوقت معي. وقد تفاجأت كثيرًا عندما كتبت رسالة لها بدأتها «بأمي العزيزة» أجابتني قائلة: إنها قد انتظرت طيلة حياتها كلها لتسمعني أقول لها هذه الكلمة. قد توقعت بأن هذا كان خاصًا بها إلى أن جاء وقت بحثي لهذا الكتاب. أرسلت لي راشيل ألبريتين بريداً إلكترونياً تلقته من أمها واندا، وفي البريد ترد واندا على بطاقة معايدة أرسلتها ابنتها تعبر فيها عن تقديرها للتضحية التي قدمتها أمها، وكم تعلمت منها وكم هي محظوظة بأنها أمها. وقد كان رد أمها مشابهه لرد أمي. قالت:

«أوه راشيل.. لقد كان هذا رائعًا.. لقد جعلتني كلماتك أبكي.لقد انتظرت خمسة وعشرين عامًا وثلاثة أشهر وسبعة أيام لأسمع هذا منك».

وعندما قرأت هذا أدركت أن تجاوب أمي مع رسالتي لم يكن خاصًا بها. جعلني أتوقف وأفكر: كم عمق العلاقة بين الأم وابنتها، وكم هي عاطفية.

كلما طال عمر أمي أدركت بأني أقدر وأحتاج حبها. لم أفكر في هذا من قبل لأني لم أعطها حق قدرها. كنت أفكر في الطرق التي أخطأت بها أمي، والطرق التي أغضبتني بها وآلمتني. لأن حبها والطرق الكثيرة التي أظهرت بها هذا الحب كانت كالخلفية ضد أساليب دفاعها الراسخة. لم أشك أبدًا في أنها ستكون سعيدة عند زيارتي لها. وأنها ستحاول إقناعي بالبقاء أطول مدة ممكنة.

كلما زاد عمر أمي وضعف جسدها أصبحت أدوارنا غير واضحة. فكنت أتصل بها يوميًا وأرسل لها رسائل وهدايا صغيرة وزرتها بكثرة. معتقدة بأني أعاملها كحبيبة، كنت أمسك يدها عندما نمشي مخففة من سرعتي. ساعدتها بالاستعداد للنوم، جعلتها ترتكز على كتفي حتى توازن من نفسها، بينما كنت أحاول أن أساعدها في لباس الحفاضة الخاصة بالمسنين، القدم اليمنى ثم اليسرى. كلما كبرت أمي وأصبحت أضعف كلما كان علي العناية بها أكثر. أصبحت أسمع نفسي أتحدث إليها بنفس الطريقة التي كانت تتحدث هي إلي. أسألها إذا كانت قد تناولت القدر الكافي من الطعام في الغداء، وما إذا كانت تأخذ القدر الكافي من النوم. وعندما اشتد مرض رئتها تعلمت كيفية استعمال الجهاز الذي تستنشق من خلاله أدويتها. وكلما كان عليها البقاء بالمستشفى كنت أسافر لها وأبقى معها، أطعمها وأدفع كرسيها المتحرك. وعندما كانت تتعب وترفض الذهاب إلى دورة المياه كنت أحاول إقناعها بالذهاب من خلال الغناء لها ومعها، وبالاقتراح عليها أن نرقص معاً إلى دورة المياه.

من خلال العناية بأمي بدأت أدرك حجم حبي لها وحجم حبها لي. وقد بدا هذا مؤثرًا للغاية عندما استطاعت أن تسترجع دورها. عندما قلت لها ذات مرة عبر مكالمة هاتفية بأنني كنت أعاني من ألم في حلقي، فقالت: «أتمنى أني كنت موجودة بجانبك حتى أستطيع صنع بعض الشاي لك». كان كلامها مؤثرًا كما لو أنها كانت بجانبي بالفعل.

وفي يوم من الأيام بينما كنت أكتب هذا الكتاب شاهدت مسرحية درامية. حيث كان طائران من فصيلة الكاردينال قد قاما ببناء عش في شجرة خارج النافذة التي بجانب مكتبي. وبينما كنت أجلس يومًا بعد

يوم شاهدت الوالدين وهما يطعمان عصافيرهم الصغيرة. وشاهدت العصافير تكبر وتكبر. في البداية كنت أراهم في العش بصعوبة لكن بعد ذلك ارتفعت رؤوسهم عاليًا فوق العش وكنت أراهم بوضوح. وقد تبادل الوالدان الأدوار في الطيران لإحضار الطعام لهذه العصافير الجائعة. وفي يوم قام الوالدان بالطيران بالقرب من العش لكنهم لم يدخلوا العش أبدًا ليطعموا الصغار. وبالعكس كلما اقترب الوالدان من العش وفتح الصغار أفواههم ليتلقوا الطعام غير الوالدان اتجاههم وطاروا باتجاه آخر. وكان هذا اليوم هو اليوم الذي ترك فيه الصغار العش. واحدًا تلو الآخر تسلقوا لحافة العش وقفزوا إلى غصن من الأغصان. وطيلة هذه الفترة كان الوالدان يلاطفون الصغار ويطيرون من حولهم ثم طار الاثنان بعيدا.

الذي فاجئني وسرني هو أن الطائرين الوالدين لم يدفعا الصغار خارج العش. ولم يتوقفوا عن المجيء لهم. لذا فإن على الصغار أن يخرجوا للخارج للحصول على الطعام. ومن خلال الطيران قريبًا ثم الطيران بعيدًا منهم، فإن الوالدين استطاعا إغواء الصغار للخروج من العش. ويبدو لي أن الصغار أخيرًا تركوا العش بحثًا عن والديهم في الجوار.

لو كنت سألتني قبل عدة سنوات لكنت قد قلت لك: إنني أمضيت سنوات عمري أحاول الهروب من أمي. ولو سألتني الآن لقلت لك إنني أمضيت سنوات عمري وأنا أحاول إيجادها. وبالرغم من أني فقدت أمي خلال كتابتي لهذا الكتاب، إلا أن الكتابة ساعدتني في إيجادها. أتمنى أن يساعد هذا الكتاب القارئات على إيجاد أمهاتهن وبناتهن في الذكرى أو في الحوار.